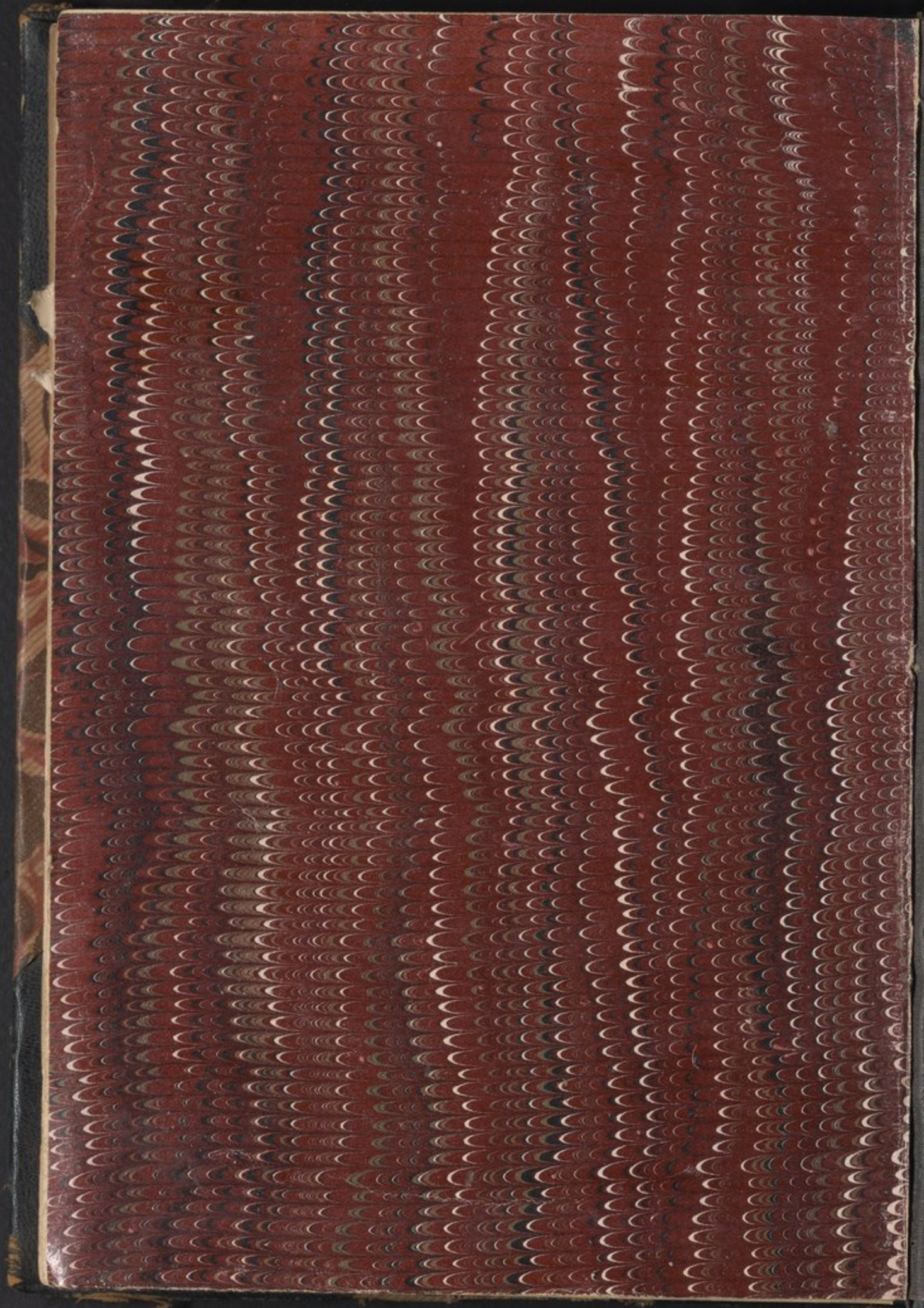


THE AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
3 8534 00606 5746

DT
10
.S
19
C.





97B2099 put 16/10

أبطال مصر

تأليف

عبد الحليم

سنة ١٩٢٢ - ١٣٤٠

DT
107.8
.S5
1922
C.2



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله

الحمد لله

الحمد لله

اهداء الكتاب

الى مليكنا المفدى صاحب الجلالة احمد فؤاد الاول خلد
الله ملكه وادام سلطانه

في عهدك اليمون استروحت مصر نسمات الحرية وذاقت
حلاوة الاستقلال وفي ظل رعايتكم الظليل وفق رجال عاملون
الى خدمة قضية البلاد . وانما بمددك وعونك وفقوا وبحولك
وقوتك اعزموا وصمموا وبهمتكم العالية خاضوا الغمار وساوروا
الاخطار . وبغزيمتك الماضية ابتدروا في سبيل رفعة الاوطان
غاية المجد والفخار . فان كان لهم في ذلك فضل فمن معين مواهبك
الغزيرة مغترفه ومستقاه . ومنك واليك في كل حال مبتدؤه
ومنتهاه .

فاليك يا مليك البلاد اتقدم باهداء هذا الكتاب المضمن
كلمات صدق واخلاص عن اولئك الرجال ابطال دولتك - حاملي
رايتك . ومنفذي مشيئتك . ولا بسي مطارف فضلك ونعمتك .
واني اضرع الى الله سبحانه وتعالى أن يصون دولتك
ويحوط سلطانك وبقائك لرعاياك المخلصين ذخراً عتيداً وظلاً
مديداً . وروضاً مريعاً . وكهفاً منيعاً . وان يقر عينك وعميون

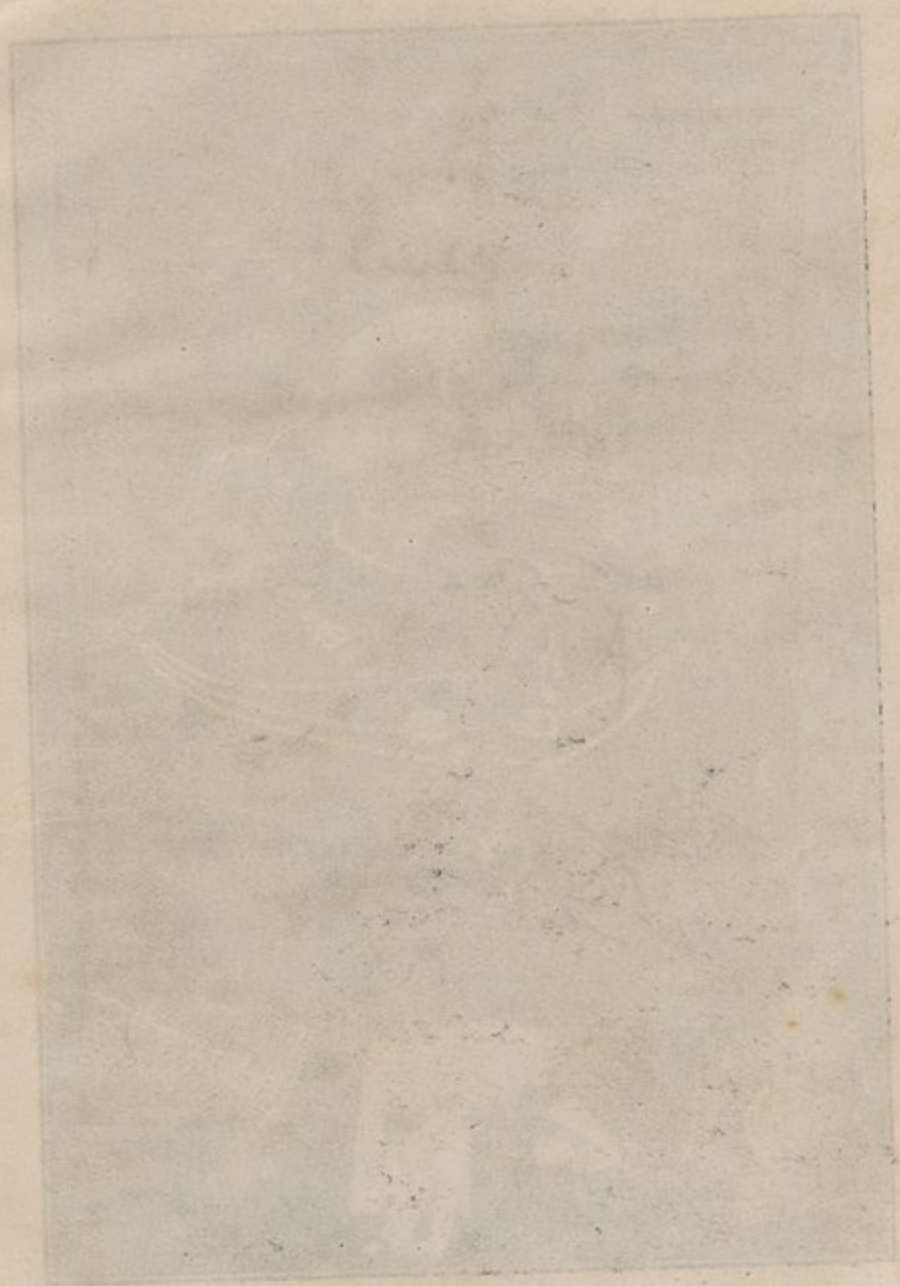
المصريين جميعاً بولي عهدك المفدى الامير فاروق كعبة آمالنا
ومطمح امانتنا .

ليحي جلالة الملك فؤاد الاول وولي عهده الامير فاروق
ورجال دولته المخلصون .

عبدكم الخاضع
محمد السباعي



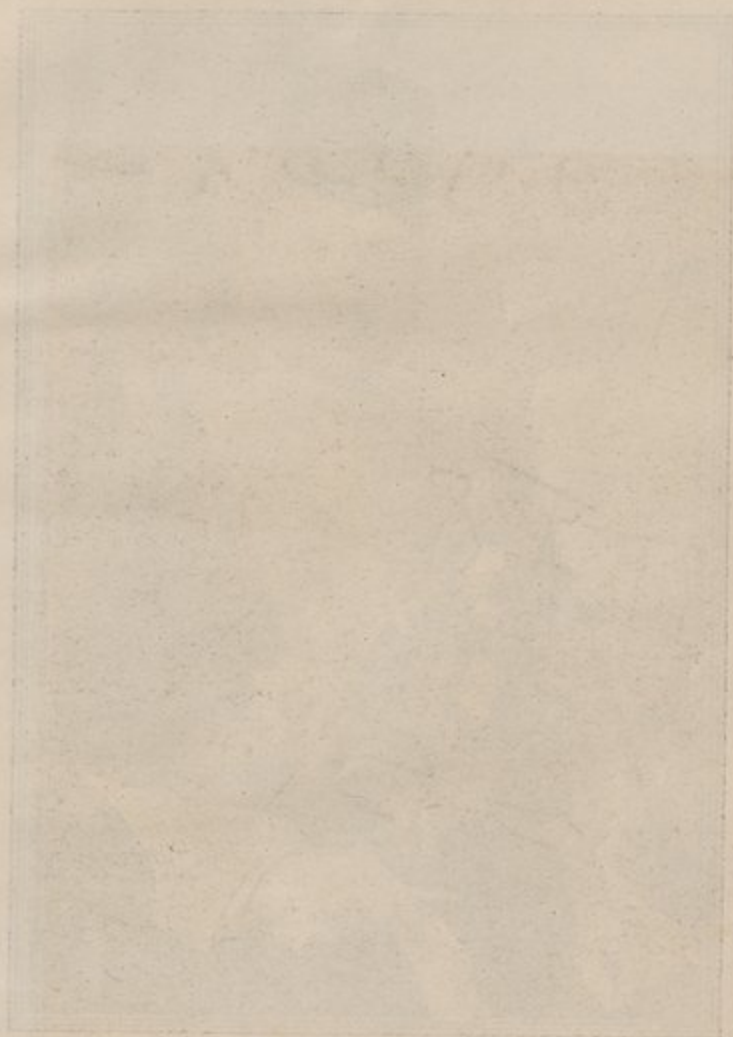
حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الاول
واهب الحرية والاستقلال ومانح الدستور



ما يلاحظ من أن هذا الكتاب قد
تمت الطبعة الأولى منه في سنة ١٢٩٥



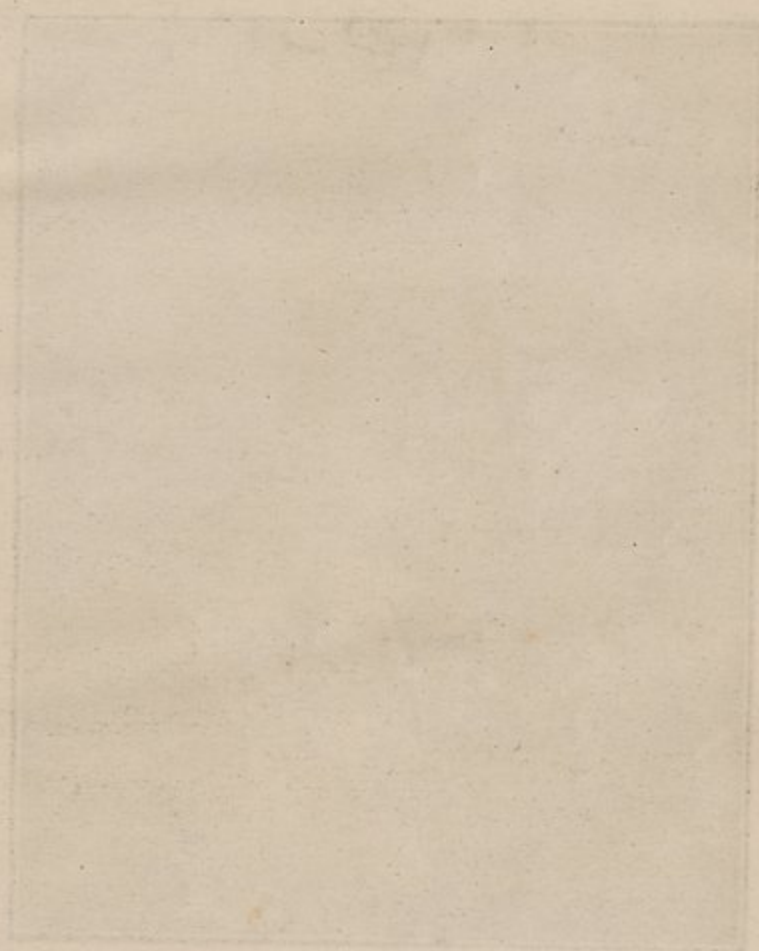
حضرة صاحب الدولة عدلي يكن باشا
رئيس الوفد الرسمي



الحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله



حضرة صاحب الدولة حسين رشدي باشا
رئيس لجنة الدستور



مكتبة جامعة القاهرة
القاهرة

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ان عصور النهضة في كل امة لا تزال مملوءة بعظماء
الحوادث مزدانة بعظماء الرجال والحقيقة ان كل حركة او نهضة
تعترى الشعوب الساكنة المطمئنة فتحدث فيها تطورا او انقلابا
انما هي في الحقيقة نوع من الزلزال فلا عجب اذا رأيت هيكل
الامة قد تفجر عما يستكن في جوفه من ملكات ومواهب
وفضائل ومناقب وتفتحت كنوزه فباحث بخفايا بدائعها
وابرزت خبايا ودائرها . وهناك يقذف المنجم ياقوته وعقبانه .
ويلفظ اللج لؤلؤه ومرجانه . وهناك تظهر فحول الرجال . وعظماء
الابطال .

اولئك الفحول والعظماء من جلة رجال الامة يبرزون على
مسرح النهضة فيلعب كل دوره الذي اعدته له الفطرة والطبيعة
وهيأته لتمثيله الظروف والاحوال .

لكل رواية دورها المعصوب المسمى في الاصطلاح التمثيلي
ازمة الرواية او « قمتها » حيث يبلغ السيل الربى ويصعد الترمومتر

الى درجة الغليان ويجلس القدر على منصة الحكم وينصب الميزان .
واذ ذاك تتشوف ابصار وتشرئب اعناق وتحقق افئدة وتبهر
انفاس ويلوى القلق والاشفاق اوتار القلوب ويقوم الشعب بين
الخوف والرجاء على سراط الشك المرهف الذليق . الاملس
الزايق . المعلق فوق هاوية التلف والخسار يؤمون لدى نهاية هذا
السراط وادى السعادة والنعم مسترشدين فى مأزق هذه الرحلة
الخطرة المخوفة بكوكب الأمل الدائم الخفق واللمعان .
تلك هي حالنا بالدقة فى دورنا الحالى الخطير وان كنا قد
اجتزنا بعد من مناطق هذا السراط اشدها خطرا واورعها مسلكا
ودخلنا فيما نستطيع ان نجعله بفضل الحكمة والحزم منطقة
سلامة وخطاة نجاة .

وبديهي ان مثل هذا الدور العصيب من ادوار رواية الجهاد
الوطنى جدير ان يحرك بعظيم احداثه من نفوس الكتاب مالا
تحركه العصور الخاوية الفارغة وان يثير من خواطرهم بما يبيديه
من مآثر الرجال ومفاخر الابطال ما ليس تثيره الاوقات الساكنة
الوسنى باشخاصها الصغار العاديين — اجل ان عصر النهضة
خليق بفضل حوادثه وابطاله ان يهز جذران النفوس من ارسخ
آساسها ويثير لجج الارواح من اعماق اعماقها حتى تقم الاذهان

من مزدحم الافكار والعواطف بما يأتي الا التدفق على اسلات
الاسن والاقلام لعجز اربابه عن حبس طرفانه في أوعية صدورهم
ودفن نيرانه في حنايا ضلوعهم .

وكذلك الكلمة الحارة هي كالدمعة الحارة ان نفثت أراحت
وفرجت . وان كتبت امضت وارمضت . فهي مدفونة في
الجنان — اخبث داء . ومنطلقة من اللسان — انجع دواء . ورب
كلمة خزنت في الضمير فكانت منية صاحبها وآخرين . وكلمة
لفظت فكانت حياة صاحبها ومنجاة ملايين

فبديهي بعد ما تقدم ان اصبحت كغيري ممن تصدوا للكتابة
عن عصور النهضة يأتي ضميري إلا نفث ما يجول به ويزدحم
من سوانح الفكر والخواطر عما يبدؤى من حوادث هذا العصر
وما أثر رجاله وابطاله .

وسأؤخى في كتابتي ان شاء الله وصف الواقع لا اقل ولا
اكثر ونعت الحقيقة جهد طاقتي محاولا ان اكون في ذلك كالمرآة
المنبسطة تعكس صورة الأشياء كما هي دون ادنى تحوير او تبديل
وليس كالمرآة المحدبة او المقعرة التي تعكس شبح الشيء مفرغا
في قالبها المشوه — وان اجعل من مخيلتي مجازا ومعبرا للحقائق
ليس الا — تدخل من أحد طرفيه وتخرج من الآخر ثابتة على

حالم لم يخالطها مزاج ولم تشبها شائبة — متعاشيا ان اجعل من
مفكرتي وعاء طيب وغالية تمر به الحقائق فتخرج مضمخة بذكي
نشره وعاطر اريجيه . ولكني سأجعل من يراعتي معزفا ترتل عليه
الطبيعة الحان الحقائق خالصة حرة صريحة — لم يتعرض لها ما جن
الانانية فيطبعها بالحنان الاغراض ويوقعها على نبرات الحب
والبغضاء والسخط والرضى

والله اسأل ان يجيء هذا السفر غير خال من النفع والفائدة
وأن يجعله وسيلة هداية وارشاد في ظل صاحب العرش الكريم
المحفوف بالعناية والتأييد جلالة ملك مصر والسودان فؤاد الأول
ادام الله ملكه وسلطانه . واغدق على رعاياه المخلصين بره واحسانه
وارتعمهم من جنانه الفسيح في اخصب واد . واطيب منتجع
ومستراح . واحلهم من ركنه الوطيد في اسمى ذروة وقعة . وامنع
ملاذ وعصمة . ماهبت نسمة . ولاحت نجمة . والله سميع الدعاء
محمد السباعي

الفصل الاول

م شروع كرز ن

والمزكرة الابضاميه

ليست حياة الأمة الناهضة الساعية الى استقلالها بالحياة
السهلة الهينة ولا مسيرها الى غايتها المحيطة بالزهة الجميلة بين
الحدائق والبساتين في سنا رونق الساعات الذهبية وعلى شجا
ترتيل النغمات الشبية . ولكنها حرب طاحنة ضروس وجهاد
شاق في أوعر المسالك وأضيّق المآزق . ولا تزال مثل هذه الأمة
تتقل في تاريخ نهضتها من طور الى طور وتتحول عن دور الى
دور وكل أدوارها وأطوارها صعب شديد وان تفاوتت في درجة
الشدة والصعوبة تبعاً لتغير الظروف والأحوال — على انها
لا تلبث ان تصل يوماً ما الى ذلك الدور الذي يصح لنا بحق ان
نسميه عقدة العقد وعقبة العقبات والباب الموصد والغل المحكم
حيث يخيل للمرء انه ليس ثمة من منفذ ولا مخلص ولا مستروح
ولا متنفس . وأن متن الرجاء قد انبت . وظهر السعي قد انبت
وانحسر . وان ملائكة العون والمدد قد رنقت أجنحتها وطار

وان القلم الاعلى قد سجل حكم الشقاء على الأمة في صحيفة الأبد
مثل هذه الازمة العصبية والساعة السوداء لم تكذب تخلو
منها سير الأمم الفاهضة أثناء حركاتها الثورية وقد أصيبت بها
الحركة المصرية الحالية في أول ديسمبر سنة ١٩٢١ وذلك حينما
رمتنا السياسة الانكليزية بمشروع كرزن ومذكرة اللورد النبي
الايضاحية التي شفع بها ذلك المشروع
لقد كان لتلك المذكرة الايضاحية اسوأ وقع في نفوس
الشعب عامة وآلم أثر في قلوبه وأشد صدمة لآماله ومطامحه
وأدمى طعنة لعزته وكبريائه. ذلك ان الشعب المصري بعدما أنه
دعوة المفاوضة من جانب الحكومة الانكليزية في أجل شكل
وأحسن صيغة مال الى حسن الظن بتلك الحكومة وقال في
نفسه « لا يبعد ان هذه الدولة الجبارة قد اهتمت أخيراً الى ان
أقصد السبل وأنجع الوسائل الى حل مشكلتنا وتسوية مسائلنا
هي سياسة الصراحة والوضوح والأخذ بمبدأ العدالة والحق بعد
ما تبين لها فشل سياسة الختل والخديعة » وبناء على ذلك فافضت
مصر انكلترا على لسان وفدها الرسمي الذي كان يرأسه دولة
الرئيس الخطير عدلي يكن باشا. فكيف كانت نتيجة المفاوضات
كيف كانت نتيجة ما ادعاه الانكليز من سياسة الصداقة والوداد

والمحابة والمصافاة والعمل على توطيد دعائم السلام ونشر اعلامه؟
كانت هذه النتيجة هي قطع المفاوضات من جانب وفدنا الرسمى
بما شرفه وشرف الأمة جمعاء . واعلان انكسار تلك المذكورة
الايضاحية المصراحة بما لا يتفق مع ما ادعاه القوم من الميل الى
المسالمة والمصافاة والنية على توطيد دعائم السلام ونشر اعلامه -
من مظاهر الاستعباد الذى ليس دونه استعباد . وآيات الاستبداد
الذى ليس وراءه استبداد . كانت نتيجة ذلك هي تلك المذكورة
التي صورونا فيها بصورة شنيعة منكورة تبريراً لما أعدوه
لنا من اغلال الرق ونير العبودية حتى قالوا انهم يرون من واجبتهم
حماية عرش سلطاننا وحماية بعضنا من بعضنا كأنا الشعب المصرى
قد بلغ من همجيته وانحطاطه انه صار عدو نفسه وهي لعمري
تقيصة يبرأ منها الى الله أشد الأمم همجية وانحطاطاً . كانت
النتيجة انهم لم يكتفوا باعلان ذلك المشروع البغيض حتى كلفونا
ان ترضاه ونقره - بعد ما علموا وعلم العالم اجمع رغباتنا ومطالبنا
واطلعوا على برنامج وفدنا . كانت النتيجة - وذاك أشنع فصولها
وأذكر أركانها - انهم اندرونا وهددونا بتنفيذ مشروعهم على
الكره منا وعلى الرغم من انوفنا بالقسر والقوة .
من أجل ذلك كله نقول ان يوم ٣ ديسمبر الذى أعلنت فيه

هذه المذكرة الممقوتة كان أعصب يوم في تاريخ الحركة المصرية .
ما كان أ كذب آمال الأمة المصرية يوم غرتها من مواعيد
الانكليز في الدعوة الى المفاوضات لمحات السراب وبارقات الخلب !
سحابات البخرة الاباطيل تنقشها بأجل الالوان كف الخديعة
الخاتلة ! ما أجهلها في عين ناظر يشيمها بلحظ الغرور . وما أروحها
لقب ساع يهرع نحوها بسرعة الصب المفتون ! وما أفرغها في
النهاية وما أخلاها من كل فائدة وطائل !

كيف خبت كواكب الامل المشرقة واكفر وجه السماء
وانذرتنا من جانب الافق طوالع النجم . فهل كان الرجاء انقطع
بته وهل ضاع الأمل آخر الابد ؟ كلا ! انما ارجىء الامل وسوف
الرجاء . لم يمح الامل ولم يزل وانه وائم الله بطبيعته غير قابل للمحو
والزوال وهو العنصر الابدى في طبيعة الانسان وهو القاعدة
التي يقوم عليها كيانه وهو ميراث الانسان وذخيرته الوحيدة
حين تسلب منه سائر الذخائر . او لم يسم الفلاسفة والحكماء هذه
الدار الفانية التي يسكنها الانسان « دار الامل » ؟

ما اقسى تقلبات الصروف السياسية بهذه الامة المصرية
المجيدة . وكيف لا يزال مصباح الامل يستدرجها على سناشعائه
البراق في اوءار السياسية العسوف وفي صعابها واوعائها . وكيف

لا يزال يومئذ اليها ان نتتبع شبحه المتلون في تلك المجاهل والمعاسف
 مشرقا عليها تارة بابتسامة العطف والتشجيع وتارة متأججا متوهجا
 بلهيب النذير والتحذير - ولكنه باق امام عينها في جميع الحالات
 وعلى كل التقلبات لا يخبو مصباحه . ولا يخمد لماحه . - حتى في
 اشد حالات اليأس والقنوط . وما هو اليأس وما معناه ؟ وهل
 اليأس سوى نوع من الامل ؟ وهل كان فرط اليأس وغلوؤه
 إلا مقياسا لمبلغ ما فينا من قوة وحياة . مقياسا ايضا لمقدار حتمنا
 في الامل ولرجاء ؟ وهل ترى دخان اليأس مهما اشتد سواده
 الا مصيبا يوما ما من روح الله ومن همة الشعب جذوة صدق
 وجمرة حق تشعله ضراما وهاجا يملأ الارض والسماء بضياءه ؟
 لا خوف على الامة المصرية الكريمة مما اصابها من شديد
 الحزن لاسوأ ما حل بها اثناء جهادها المجيد - اعني املك المذكرة
 الايضاحية التي مست صميم كرامتها وجرحت كبرياءها وعزتها
 وسخرت من مقدس امانيتها ومطالبها . لا خوف على الامة
 المصرية مما اصابها من حزن ومكد في سبيل جهادها . بل لا خوف
 على الامم عامة ولا على الافراد من الحزن الشريف والكمد
 المجيد فان نيران مثل هذا الحزن لهي خير بوقنة لتصفية جوهر
 النفس وتنقية معدن الروح . وهي اقوى اداة لاشعال الهمم

والهاب العزائم حتى تندفع في سبيل جهادها الشريف باضعاف
ما بها من قوة وحدة . فلتغلب الامة باحزانها في سبيل قضيتها
او ليس ذلك الحزن مقياسا لمبلغ ما عندها من شعور واحساس
ومن مقدرة وكفاءة بل من غلبة وظفر وانتصار ؟ الا ان حزن
الامة المجاهدة ما هو الا صورة معكوسة لمقدار ما لها من عزة
وشرف ونبل فلتغلب الامة المصرية الكريمة باحزانها ولتتهيج
باشجانها ولتجعلها مصدر همة وعزم ومضاء .
ولتوقن ان هذا الاستعباد الانكليزي انما هو ابطولة
واكذوبة وكل اكذوبة فالى الزوال مصيرها مهما امتدت بها
العصور وتراخت بها الارمان . بذلك قضت نواميس الطبيعة
وحكمة هذا النظام المقدس فانه لا دوام للباطل . بل ان الحق ذاته
لا يدوم على صورة واحدة ولا بد له ان يغير صورته ويبدل شكله
وصيغته من آن الى آن حيث يخلق خلقا ثانيا ويولد من جديد
اما الاكاذيب - وعلى الاخص اكذوبة استعباد الامم والافراد
التي خلقها الله حرة طليقة - فلقد سجل عليها حكم الاعدام منذ
الازل في صحيفة الافدار - فهي تسير بطيئا او سريعا الى ساعتها
المحدودة - الى حينها المحتوم . وحتفها المحموم . والسر في ذلك ان
هذه الحياة لا يمكن ان تقوم على اساس الباطل - وهذا الانسان

(الذى هو صورة الله فى الارض - مهما شابت قداسة روحه
شوائب الخبائث والدناءآت) لا يمكن ان يقوم على اساس من
الكذب والضلال . ولكن السياسة - تنفيذ لما ربهها الانانية
واغراضها الاستعمارية تجهل ذلك او تتجاهله . وليس بنافعا هذا
الجهل او التجاهل ازاء ناموس الطبيعة العادلة وسنة الله الحكيمة .
واستبدادها العقيم مقضى عليه بالفشل محكوم عليه بالفناء مهما
طال اجله وتراخت مدته

لقد يخيّل الى زمرة الساسة والاستعماريين ان استمرار
سياسة الظلم والجور فى ارض الله بلا قامع ولا مبيد وتمادى دولة
الاستبداد والاستعباد دون ان يصدر وينفذ عليها ما تستحقه
من حكم العدالة الالهية دليل على خلو هذا العالم الارضى من
قانون العدل والانصاف . ولكنهم فى ذلك مخطئون غافلون
فان حكم العدالة الالهية فى هذه الحياة الدنيا قد يؤجل اليوم
واليومين بل القرن والقرنين ولكنه حقيقة مؤكدة لا ريب فيها
ولا مناص منها - حقيقة محتومة كالحياة نفسها وكالموت ذاته .
ولا جرم فانك ان انعمت النظر فى زوبعة الحياة الدنيا - تلك الزوبعة
المضطربة العاصفة الهوجاء البادية لعينك كأنها كلها هرج ومرج
وتشويش واختلاط - وجدت انه فى اعماق اعماقها يستقر وينطق

آله منصف عادل - والفيت ان روح هذه الدنيا انما هي الحق
والعدالة . فهذه الحقيقة الهائلة التي ما برحت منذ كان الانسان -
تبدو لعينه ناصعة باهرة سواء كان مسلماً او كتياباً او بوزياً او
وثنياً - وسواء سكن قصور باريز او غابات امريكا او زمهرير
القطب او سعيير الاستواء - هذه الحقيقة الهائلة اذا جهلها السياسة
فقد جهلوا كل شيء وقد باعد الله بينهم وبين النجاح كما باعد بين
الارض والسماء . وأنى لهم بالنجاح وقد ظلوا يناوئون ويعادون
ناموس الطبيعة وروح الوجود ويكافحون الكون اجمع في معركة
ان يخرجوا منها الا مثقلين بافدح اعباء الهزيمة والخسران .
الا ان في كل شيء خيراً . وقد كان للامة المصرية في تلك
المذكورة الايضاحية خير وان بدا متلفعاً برداء وهاج من لهيب
الأم وضرار الحزن المتسعر . لقد كانت الأمة أصيبت من قبل
ذلك بشر ما يصيب الأمم الناهضة المجاهدة من العلل والأدواء -
أعني بداء الانقسام والتحزب وكان ذلك الداء الخبيث قد فشا في
جسدها ونقض من أسباب ائتلافها وتماسكها وفصم من عرى
اتحادها وتضافرها وهدد كيانهما بالهدم والانحلال وكاد يمسيها في
صميم نفسها ويذهب بما قد ملأ قلبها من روح الوطنية العالمية
والتضحية الشريفة فما هو الا ان لطمتها السياسة الانكليزية تلك

اللطمة القاسية . وطعننها تلك الطعنة الدامية حتى أفقت من
سكرتها . وهبت من رقدتها . ونفضت عن اعطافها غبار الفتور
الذي كان جلالها به ريح الشقاق والنزاع كما ينفض الأسد المصور
غبار الكسل عن لبدته ثم تحركت ونشطت كأنما قد افعم قلوب
ملايينها العديدة روح واحدة لا تقبل الانقسام والتجزئة .
واعلنت بلسان واحد وبصوت واحد يملأ الفضاء الرحب ويهز
هيكل الأرض من اعماق جذورها ودعائها ويصدع اديم السماء
« انها حية يقظة متحفزة ناهضة »

أجابت مصر على المذكرة الايضاحية بذلك الجواب المفهم
الحاسم — اعني بما كانت أعلنته قبل ذلك على لسان جماعة
الكونتنتال حين شعرت بما أضمره لها الانكليز من الشر وسوء
النية — أجابت بذلك القرار الذي كان الموحى به في الحقيقة هو
روح مصر المنبثة في فضاءها . الطائفة في جوها . المرفوفة على
مضاجع أهلها وعلى سوامرهم وانديتهم الحائمة على مهود أطفالها
واكنان عجائزها وشيوخها — على الاجنة في بطون امهاتها وعلى
الأموات في بطون اجداتها — الحدية العظوف على أمانيتها وآمالها
الحذرة القلقة المشفقة على ماضيها ومستقبلها .

بهذا الجواب المفهم الحاسم أجابت مصر انكلترا بلسان

واحد وصوت واحد - علت من نبراته صيحة الانسانية لتألمة .
وتأججت في هزاته جمرة الوطنية المحتدمة . وما أعظم صوت
الأمم والشعوب وما أقواه وما أقهر سلطانه وما أشد وقعه : .
ألم تر الى صرخة الشعب الواجد الغضبان كيف تصم أذن الظالم
وتقرع حبة فؤاده بل كيف تكاد تشل خلجات روحه . وتكاد
تحرق زهرة الحياة في مغارس نفسه ووجدانه

قال توماس كارليل في كتابه « الثورة الفرنسية » « ما اجل
صوت الجماعات وما اخطره ! صوت غرائزهم التي هي اصدق
من خواطرهم وافكارهم . اما ان هذا الصوت لأجل وخطر
ما يصادفه الانسان بين تلك الاصوات والاشباح التي يتكون
منها هذا العالم الزماني . فكل من يجرأ على مناقضة هذا الصوت
ومقاومته فقد خرج بنفسه عن دائرة الزمان وعن حدود
نواميسه وشرائعه »

اعلنت الامة المقاطعة واعلنت وجوب الاضراب عن
تأليف الوزارة تأييداً لمبدأ عدم الاشتراك مع الانكليز في حكم
البلاد وادارة شؤونها . اذ كان في ذلك الاشتراك دليل على
الرضا بما يسومنا الانكليز من خطة الذل والخسف والهوان .
اعلنت ذلك الامة المصرية وتمسكت به أشد تمسك ولم تسمح

النفسها فيه بهوادة ولا لين ولا تساهل وحصنت نفسها بامنع
دروع الاصرار والتصميم والاباء والمعاندة وتمسكت انكثرا من
الجهة الاخرى بخطتها اشد تمسك وأظهرت ان مشروعها الاخير
هو القضاء الفصل والحكم النهائي الذي لا يقبل تغييرا ولا تبديلا
ولا نقضا ولا ابراما. وكذلك انفرجت مسافة الخلاف بين
الطرفين واستحكمت حلقاته وبلغت المشادة والمعاندة اقصاها
واظلم ما بين الامتين وجف بينهما الثرى وعظم الخطب واستفحل
الداء.

وهنا دخلت الامة المصرية في اصعب ادوار حركتها الجهادية
واشد ازماتها وافظع ساعاتها - ذلك الدور الذي سميناه في بدء
كلامنا عقدة العقد وعقبة العقبات والباب الموصد والغل المحكم
حيث خيل للمرء انه ليس ثمة من منفذ ولا مخلص وان متن
الرجاء قد انبتر وظهر السعي قد انحسر. وان ملائكة العون
والمدد قد رنقت اجنحتها وطاروت وقد سجل على الامة الكريمة
حكم الشقاء في صحيفة الابد.

هنا جاء على الامة المصرية اشنع ادوار حركتها الجهادية
واسود الافق وحجبت نور السماء سحائب النحس فاذا نصنع؟

وكيف نواجه هذا الكارث ؟ وكيف نعد العدد ونجهز آلات
الدفاع ونشحن سلاح الهجوم . وأي عدد لدينا وأي آلات وأي
أسلحة ؟ دروع الصبر والجلد وسلاح السكينة وعدة الأمل
والرجاء . ونعم الدروع والآلات والأسلحة (لا أقول ذلك هازئاً
ولا ساخراً معاذ الله وقد أوضحت آنفاً ان استبداد الظالم
اكذوبة وانه كسائر الأكاذيب مقضي عليه بالفشل محكوم عايه
بالاعدام في النهاية وان صوت الأمة المظلومة أقوى صوت في
العالم وان ما ل الحق ان يتغلب على الباطل وان الأمل ميراث
الانسان وذخيرته وان الدنيا اسم دار الأمل) . أجل لا أقول
ذلك هازئاً ولا ساخراً ولكني أقول ان هذه الأسلحة السلبية
ان احرزت النصر والظفر لم يجيء ذلك الا بطيئاً . وليس النصر
البطيء بأحسن أنواع النصر . وليس الفرح بالمتاع الآجل البعيد
الذي قد لا تمتنى نفسك بأن تراه لا أنت ولا أعقابك ولا أعقاب
أعقابك كالفرح بالمتاع الذي يزف اليك عاجلاً تلبس جميل زينته .
وترشف عذب ريقته .

أقول لا مشاحة في ان ذلك الدور كان أشنع أدوار قضيتنا
وتلك الساعة كانت أسود ساعات حركتنا . وحق لنا إذ ذاك ان
نحار ونهت وان نأسي ونحزن . وحق لنا ان ندور بأعيننا بين

أبناء أمتنا المجيدة ففتش في نخبة رجالها وصفوة أبطالها عن
رجل نرمي به هذا الحادث الجسيم . وننقب عن بطل نصند به
هذا الكارث العظيم

ان الطبيعة التي تخلق أدواء المجتمع الانساني وعمله تخلق
أيضاً أدوية هذه العلل والأدواء . والطبيعة التي توجد آفات الحياة
الانسانية توجد أيضاً وسائل ابادة هذه الآفات . وذلك لأن
الطبيعة أساسها العدل وروحها النظام وغايتها الصلاح والنمو
الحسن والرقى . فان هي خلقت الادواء والعلل والآفات فلم
تقصد بذلك الى الفساد والخراب ولا الى الفشل والفوضى (وان
ظهرت تلك العلل والآفات في دورها الاول بمظهر الفساد
والفوضى) ولكنها تقصد الى الصلاح والنظام والرقى في النهاية
وانما هذه العلل والآفات - مع ضررها المؤقت وشرها الزائل -
عمليات ضرورية لا بد للمجتمع من اجتيازها في طريق نموه ورفيه
- هلا نظرت الى أوراق الشجر وأجزاء النبات حين تعصف
بها الرياح الهوج فتسقط وتذبل ثم تعفن وتبلى وتنحل فيخيل
اليك انها فسدت وماتت ولا موت ولا فساد في الطبيعة ولكن
هذا الذي يخيل اليك بلى وفساداً انما هو عملية انتقال من حال
الى أحسن منها فلا تلبث هذه المواد النباتية ان تستعيد حياتها

وتجدد بهجتها وقد تستحيل بعد عدة من هذه العمليات الأليمة
المحزنة في ظاهرها الى صنف أجود وأحسن - سنة التحسن
والتقدم وقانون النشوء والارتقاء الذي هو روح الطبيعة وعملها
وغايتها .

نقول ان الطبيعة التي تخلق أدواء المجتمع تخلق أيضاً أدوية
هذه الادواء . والطبيعة التي توجد آفات الانسانية توجد أيضاً
مهلكات هذه الآفات . واذا اشتد الجذب صاب الغيث واذا
أربد الغيم بدده شعاع الشمس . واذا تكاثرت المصائب على
أشخاص المأساة الابرياء فوق المسرح وتكاثفت الارزاء وأخذ
الموت بالكظم وبلغت الروح التراقي - ظهر على المسرح من
حيث لا يرجي ولا ينتظر بطل الرواية فغير مجرى الحوادث
وحول منهج الكوارث فجلى دجى الخطب وأشرق على الابرياء
بنور الصفو والخير والسعادة .

وكذلك لما ادهمت مأساة السياسة على مسرح الحياة
المصرية وانتهت هذه المأساة بفضل المذكرة الايضاحية الى ازمة
الازمات وعقدة العقد كما أسلفنا وعظم الكرب واستفحل الداء
- ظهر على المسرح لآبادة الشقاء واسداء الخير والصفاء بطل
الرواية المصرية الحالية - عبد الخالق ثروت باشا

ان العناية الأزلية لما بصرت بتناهي البلاء في هذا البلد
الأمين وبلوغ الشقاء والكرب أقصاه نثرت كنفاتها بين يديها
ثم قتشت عيدياتها فوجدت ثروت أمرها عوداً وأصلبها معجماً
فرمت به الحادث الجلل والمحنة النكراء .

أى ثروت ! أيها الرجل القوي المتين ! ماذا امامك من العقد
والمشاكل والازمات والمعضلات ! أمة مظلومة مهضومة واجدة
على الظامة غضبي على الجورة يتأجج صدرها بركاناً ويتقد في
الحاظها لهيب ما انطوت عليه الجوانح من نار الحنق المكتومة
وتقذف السماء بصيحات احتجاجها على الجبارة وبصرحات نقيتها .
أمة تختمر في أفئدتها عوامل الهياج . وتفرخ في نفوسها جرائم
الفتنة ويعب عباب غيظها ويزخر تيار غضبها وتجيئ أعماق
روحها بدوافع الثورة - امامك خضم زاخر ينذر مسامعك من
اعماقه نشيش غليان الطغيان . وازيز فوران الطوفان . - امامك
في افق البلاد المظلم المربد آيات العاصفة وامارات الزوبعة ينذر
مسامعك من لديها دوى قصفها مخوفاً مرهوباً . وامامك من
الجهة الأخرى الدولة القوية الخيمة على ارجاء المعمور المسكة
بأطراف العالم المائلة الأرض بمدافعها والبحر بأساطيلها والجو
بمناطيدها - جبارة متكبرة طاغية مصرة على تنفيذ ارادتها ضد

أوامر العاطفة والانسانية ونواميس الحق والمدالة وعلى الرغم
من الأفضية والاقدار . مصممة أباءة مطرقة كالافعوان والحية
الرقشاء لا تؤثر فيها الرقي والتعاويد - قاسية جامدة صماء كالقدر
أو كالموت !

وفوق هذا وذاك امامك من أمتك الفئة ذات الالهواء
والاغراض الذين لا يريدونك ولا يحبون ان يكون على يدك
انفراج الازمة وحل العضلة وزوال النعمة وحلول النعمة -
الباذلون أقصى الجهد في العمل على تنحيته عن مواطن المجد
ومواقف الفخار .

أي ثروت ! أيها الرجل الجلد المسكين ! ما أخرج مركزك
وأصعب موقفك ! فبحقك ماذا أنت صانع وسط هذه العوامل
المتنازعة والقوى المتدافعة والعناصر المتكسفة المتضاربة ! وأنت
قائم بينها منفرداً وحيداً كالجبل الباذخ تعصف الزوابع الهوجاء
حول هامته السماء فلا تحرك من سكينتها ولا تستخف من
رزانتها وتشور الزلازل حول أساسه فلا ترزعزع من ثباته - وقد
سمت قمته العلياء فوق سحب الالهواء والاغراض وضباب
الخرافات الشخصية والاحن الانانية وواجهت شمس الحقيقة
الساطعة والنزاهة الخالصة .

تقدم ثروت باشا الى أمته فصرح لها انه لن يقبل الوزارة
حتى تجاب له شروط فيها رضى الأمة ووفاء بأقصى ما يصح ان
تطامح اليه في هذا الدور من قضيتها : تلك الشروط هي إلغاء
الحمية وإعلان الاستقلال التام وتأسيس برلمان تكون حكومة
البلاد مسؤولة امامه وحصر مشاكل الخلاف بين الأمتين في
أربع نقاط يتولى تسويتها البرلمان المصرى بعد انشائه مع الحكومة
البريطانية . وإزاء هذه الحقوق المستردة لا تعطى مصر انكلترا
أدنى شيء ولا تقيد لها بشرط ما

تقدم ثروت باشا الى الحكومة الانكليزية بهذه الشروط
العظيمة وشد كل التشدد في طلبها وأكد لها انه لن يتنازل
البتة عن شيء منها وانه لن يتولى الوزارة الا بعد اجابة شروطه
هذه بمخذا فيرها

كيف تقبل هذه الشروط الجسيمة وتجب هذه المطالب
العظيمة وترضخ لهذا الحكم الهائل انكلترا سيدة البحار وأقوى
دول العالم ! وأين ذهبت جيوشها وأساطيلها وسلطانها الباسط
جناحيه على المشرق والمغرب ؟ بل اين ذهب كبرياؤها وجبروتها
وشرها الاستعماري ؟

تصعبت انكلترا في أول الامر كما هو المنتظر وتمنعت . وفي

ذلك المشقة العظمى والصعوبة الكبرى :

وأما مصر فلم تكذب تصديقاً نبأ هذه الشروط والمطالب وحسبته حاملاً من الاحلام اعتقاداً منها أنه يكاد ان يكون من المستحيلات قبول انكثرا مثل هذه الشرط الجسيمة . (لقد كان الوفد المصرى من قبل ذلك لا يطمع فى اكثر من ان تعطيه الحكومة الانكليزية قبل دخوله معها فى المفاوضات مجرد وعد بالغاء الحماية اثناء النفاوض) ولا تنس اولى الاغراض والاهواء والاحن والحزازات الذين مع فرط استعظامهم هذه الشروط واعتبارها كاحلام أخذوا يرجفون بأن الامر ليس بالجد وانما الأعيب سياسية يصعدون بذلك الى ترويج سوء الظن بدولة الوزير الجليل ويشنون فى الامة من روح التشاؤم ما يثبط الهمة ويفل العزائم . بين هذه العوامل المتنازعة والقوى المتدافعة والعناصر المتكافئة المتضاربة انبرى الرجل الكفو الضليع يكذب ويعمل مضاء فى تؤدة منصلتها فى اناة صارما فى رفق جريثا فى حزم - والامة المصرية والامة الانكليزية واوروبا والعالم أجمع ينظر اليه نظرة اعجاب واكبار . ويشرب لاستطلاع نتيجة عمله العظيم واستكشاف غاية شوطه الخطير وشأوه الرائع - كأنهم برمقون عطارداً أو المشتري اثناء سيرته المشرقة الزاهرة . ودورته

المتألقة الباهرة .

وقف العالم ينظر الى ثروت باشا اثناء تلك الفترة الحرجة
العصيبة - تلك الفترة التي باتت تتمخض السياسة اثناءها عن
ميلاد مستقبل امة - لا يعلم ايجىء موفوراً ناضجاً تاماً ام مبتوراً
منقوصاً مشوهاً ام ما هو شر من هذا - يولد ميتاً .

وقف العالم ينظر الى هذا المخاض السياسى الهائل يرقب
نتيجته بقلوب خافقة حتى كاد يخيل الى المرء ان الرياح والاعاصير
ذاتها قد حبست انفاسها والافلاك شأوها وأن الزمن نفسه وقف
مبهوتاً يتأمل .

أراك أيها الوزير الخطير في بحر السياسة البعيد الغور
العسوف الموج العصفوف الاعاصير والانواء تسير سفينة الوطنية
تتنكب بها مكامن الصخور والمهاالك وتنتجى بها مسالك الامن
والسلامة تدير دفتها بيد مباركة ميمونة رائدها التوفيق والنجاح
تكن في اساريها اسرار الحذق والمهارة تؤم بالسفينة النفيسة
ساحل الفوز والنجاة

وأراك في يمداء السياسة الخوفة تقود الشعب الكريم
خارجاً به من نير عبودية الجبارة مجتازاً به تيه الاضاليل السياسية
تؤم بالقافلة افق الاستقلال وفضاء الحرية الرحيب .

وأراك من فوق زوبعة السياسة النائرة وفوضى العناصر
المتنافرة تصفق جناحي نسر ساكن الجأش ثابت الجنان تصرف
اعنة الحوادث وتدبر أزمة الشؤون كأنك الملك الحارس الأمين
كلما ازدادت الحوادث اضطراباً ازداد سكينته وهدوءاً
أرى ساكن الاوصال باسط وجهه

يريك الهوينى والأمور تطير

وأراك حين تفاوض ساسة الانكليز تعلو عليهم في حومة
الخطاب وميدان المحاجة بسليقتك الفائقة وسجيتك الغلابة
وبعقلك الراجح وبشخصيتك الفتانة الخلافة التي هي خلاصة مجموع
ما فيك من غرائز وشيم وطبائع . وكانك حين تناقشهم قد اتخذ
سلطان الاقناع عرشه بين شفتيك وكن هاروت تحت لسانك -
حتى تتركهم من اعجاب واكبار يقولون فيك ما قاله نابليون الاول
حين صادف شاعر الالمان العظيم « جيتا » هاكم رجل مستكمل
الرجولة . وما قاله أحد الساسة الانكليز في المغفور له الشيخ
محمد عبده « لقد حق لمصر ان تفخر بمثل هذا الرجل . فان امة
تخرج مثله خليفة ان تفلح »

في تلك الزوبعة السياسية النائرة وفي ذلك الجو المتلبد بالغيوم
وفي مضطرب تلك العوامل المتدافعة والعناصر المتكافئة مضى

ثروت في سعيه المجيد كالصارم المصقول والكوكب المشبوب -
يعمل ويكد ليل نهار كأنه ينبوع قوة لا ينفد وشعلة حريق تأتي
أن تطفأ ونحمد تملأ فضاء البلاد روتقاً ونوراً . أجل أن مقدرة
هذا الرجل الهمام على العمل والكد لا تحد ولا تحصر ولا يكاد
يصدق بها لذهن . وليس يدري سوى من عاشره عظم ما قد
تستطيعه القوة البشرية من العمل ومقدار ما تستثمره من جليل
الفوائد في يوم واحد . ان ساعة هذا الرجل العظيم كعام غيره
وشهره كدهره .

وكل هذه الاعمال الجسماء ينجزها ثروت باشا في أتم سكونية
وصمت . ألا حيا الله دولة الصمت وخلد ملكه وسلطانه ! ولا
حيا الله الجلبة والضوضاء والصخب !

قال توماس كارليل في كتابه « الماضي والحاضر » « ما أعظم
الرجل الصامت وما أجل مقداره أرايت اذا اجلت بهرك في
هذا العالم اللجب الصخاب وفي كلماته الخالية من المعاني وفي أعماله
الخاوية من الفوائد أفلا يلذ لك أن تتعشق جمال الصمت وجلاله ؟
أفلا يلذ لك أن تتغنى بمحامد الرجال الصامتين ذوي الفضل
والكرم والمروءة العاملين في سكوت الجادين في خشوع وتواضع .
البائين صروح الحضارة والمدنية دون أن تجلجل باسمائهم والقباهم

أبواق المجلات وطبول الجرائد؛ إلا أن أمة تخلق من أمثال هؤلاء
أو يقل منهم نصيبها خليقة أن تختل حالها ويسوء مآلها. ويكون
مثلها كمثل غابة خلت من الجذور والأصول واستحالت كلها ورقاً
وفروعاً. فهي لا تلبث أن تذبل وتموت. لنا الويل والشكل إن كان
كل عتادنا وذخيرتنا هو ما لدينا من الكلام والطائفة والأشياء
التي نعرضها على الملأ ونرفعها لأعين المتفرجين والنظار. ألا فقدس
الله عالم الصمت؛ إنه لاسمى مقاماً من الكواكب وأعمق غوراً
من عالم الموت؛ وإنه وحده هو النبيل والعظيم والجليل. وكل
ماعداه حقير ضئيل تافه؛ فلتلزم أمتنا فضيلة الصمت ولتعتصم بها.
ولتدع غيرها من الأمم المولعة بالجلبة والضوضاء وحب التظاهر
تصيح في كل موقف وتملأ الدنيا صياحاً بكل صغيرة وكبيرة من
شؤونها وتجعل بلادها مسرحاً ترقص عليه وتلعب على مرأى ومسمع
من المتفرجين والنظار. فأمثال هذه الأمم المتظاهرة الصخبية
ستصبح عاجلاً أو آجلاً غابات بلا جذور ولا أصول. مآلها
الذبول والموت. ألا ما أقدس الصمت؛ إنه مستمد من ملكوت
السماء؛ انظر إلى الدوحة العظيمة في الغابة تجدها قد لبثت ألف
عام تنمو في أتم صمت وسكينة فتي تسمع صوتها؛ لا تسمع
ذلك إلا حينما يجيئها الخطاب في نهاية الألف عام بفاسه ليقطعها

حينئذ تسمعك الدوحة صوتها . حينئذ تعلن الدوحة عن نفسها
بتلك الصرخة الشديدة - صرخة الفناء والموت - صوت انصداها
وانقصامها . فهل أسمعك الدوحة صوتها ساعة البذر والغرس
المبارك حين نثرت بذرتها من حجور بعض الرياح الميمونة . هل
أسمعك صوتها ساعة اكتست حلال الورق النضر ووشى الزهر
المفوف (وما كان أمتعها ساعة واملأها بالافراح والمسار) .
كلا لم تسمعك الدوحة صوتها في تلك الاوقات الهنيئة ولم تنبس
بحرف واحد اعلاناً لهذه الحوادث المفرحة . انما أسمعك صوتها
ساعة المصاب والفجيعة - ساعة الموت والفناء »

وهكذا رأينا ثروت وسط الزوبعة السياسية يكد ويعمل
في أتم سكونية وصمت لاثرثرة ولا افتخار ولا دعوى . ولا اضاءة
للوقت الثمين في المجادلات العقيمة المجذبة وخوض النظريات
الخيالية المستحيلة ولا في الشقشقة الهدارة والجلجلة الطنانة .
ولكنه وقف مجهوداته العظيمة على السكد الدائب وحصر همه
الجسيمة في العمل المتواصل . وبارك الله في الاعمال انها أجل وأعظم
من الاقوال . الا انما الاعمال لملوءة بالروح حافلة بالحياة جياشة
بنادتها الغزيرة الزاخرة . الاعمال طاخة بالحياة الصامتة التي هي
برغم صمتها حقيقة مقررة واقعة حاضرة الخير حاصلة الارباح

والفوائد . والاعمال تزكو وتنمو كالشجر المبارك الثمار وهي تعمّر
فراغ الوقت وتملأ فضاء الزمان وتكسوه خضرة ونضرة
ثروت باشا لا يميل بطبعه الى الجدل والثروة ولا الى المباهاة
والمفاخرة ولا الى الاعلان عن كفاءاته ومواهبه . فاذا كان دور
الكلام والاسترسال في ميادين النظريات المستحيلة والمشروعات
الخيالية والمباهاة بأساليب المنطق الاجوف الفارغ المؤدى الى غير
نتيجة وبتفويق سهامه الطائشة التي قصارها أن نزل من فوق
سطوح الحقائق المتينة القاسية دون أن تصيب أكبادها . وتنزل
من فوق أديم الحقائق الخشنة الجافية دون أن تنفذ الى صميمها .
فتسقط تلك السهام متعثرة خائبة عن أجساد الحقائق وتبقى
الحقائق بعد ذلك على حالها لم تذل ولا تمتلك ولم يقبض على
أزمها . تواجهك . كما كانت من قبل . مرة أليمة قاسية . قد
نفدت الجذب والكنائن دون أن تؤثر فيها مثقال ذرة وكأنما
لم نصنع شيئاً . وكأنما انتهينا من حيث ابتدأنا . أقول اذ كان هذا
الدور . دور الكلام والخيالات والمستحيلات . رأيت ثروت باشا
قد اعتزل الميدان لآعن ملال ويأس وانكس تحميتاً للقرصة وتحفزاً
للوثبة ثم ربض في مكمنه وخدر في غيله سمير افكاره وأنيس
وحدة

ولكن اذا جاء دور العمل وواجهتنا الحقيقة المرة الالمية وتبادر
الرجال لتذليل هذه الحقيقة وفك معضلتها والاخذ بناصيتها
والقبض على زمامها واستثمارها لمنفعة البلاد وصالح الاوطان -
ورأيت رجال النظريات المستحيلة والمنطق الاجوف يرسلون
سهامه الطائشة على هيكل تلك الحقيقة فتزل من فوق سطحها
وتنزل عن اديمها الاملس الذي كأنه جلدة الافعى وكذلك تستمر
افعى الحقيقة سائرة في طريقها سليمة مصححة كاهداً ما كانت
وانعم بالا - اذا كان هذا هو قصارى زمرة الخياليين المتشدين
ذوى المنطق الاجوف - ثم جاء دور ثروت باشارأت ذلك الرجل
العملي قد هاجم افعى الحقيقة وساورها وقبض على ناصيتها واخذ
بكظمها وطفق يعالجها أشد علاج ويصارعها اعنف صراع ليرى
أهو أم هي أشد بأساً واصعب مراساً - يجالدها ويكافحها بقوة
جنانه أعنى بقوة جلده ومنابرته فى أمل ورجاء بل فى استيئاس
واستماتة وصبر لا ينفذ وإيمان عميق وذكاء متوقد

كل هذه القوى العقلية والخلقية تبرز من مكانها حينما
يصارع ثروت باشا (أو غيره من عظماء رجال العمل) أفعوان
الحقيقة - وفى هذه المعركة وحدها - وعند هذا الصراع فقط -
يمكننا أن نقيس مقدار همة الرجل ونزن مبلغ كفاءته وقدرته .

العمل وحده عنوان الفضل وآية القدرة ومسبار غور الرجل
ومقياس عمقه . وعلى صحائف الاعمال يلوح في سطور من النور
بيان ما يمكن في صدور الرجال من كنوز الفضل والحكمة
والادب والنهي ومن ذخائر الصبر والجلد والجد والمثابرة والحزم
والعزم والاخلاص والامانة وصحة النظر ونفاذ البصيرة والحدق
والبراءة - اجل كل ما ينطوى عليه الرجل من قوة يلوح متلاً لنا
في أحرف من النار والنور على صحيفة عمله . وليس العمل الجدى
المخلص هو ان يواجه الرجل الطبيعة ونواميسها الابدية فيعالجها
ويعارسها ليسيرها في سبيل مقاصده وأغراضه . وعلى قدر فهمه
لاسرارها ومطابقته لقوانينها يكون مبلغ فوزه ونجاحه . وهي
الطبيعة تصدر على الرجل وعلى كفاءته حكمها حسب ماتراه من
أسلوبه في معالجتها ومسيرتها - اذ تقول في حكمها على الرجل
هذا مبلغ ما وجدت فيه من فضل وكفاءة - هذا القدر لا اكثر
ولا اقل - هذا مبلغ ما فيه من قدرة على فهم أسرارها والائتلاف
معي ومجاراتي والسير على منهاجي ومراعاة شرائعي ونواميسي -
وعلى حسب هذا كان نجاحه أو خيبته وسعادته أو شقوته كما
تري وتشاهد .

مصر في أشد ازमत جهادها وأضيق مآزقه (عقب اعلان

المذكرة الايضاحية) اصبحت بأمس حاجة الى رجل العمل الدائب
والكد الشديد والمجهودات الهائلة . لقد جربت من قبل ذلك
اللجب والضوضاء والصياح والصراخ وجربت الشقاشق الهدارة
والجلاجل الطنانة وجربت طواحين الهواء والالاعاب النارية التي
تملأ الجو طينينا ودويا وألاهيـب وهاجه وشعلا بـرافـة تساور
السماء وتلامس الجوزاء ثم تسقط رماداً وتبـدد هباء - جربت
هذا وذلك فلم يغنها فتيل ولا قطميرا . وان كان افادها تلك
الحقيقة الخطيرة وهي ان الكلام في موضع العمل عبث باطل .
وان النزاع والشقاق في مقام التضامن والاتحاد ضلال مبين وان
الصياح وحده هواء يذهب في الهواء وان السبح في بحار الخيال
يؤدي الى ساحل الخيال الذي اذا ارسيت لديه وجدته ضباباً
ينتشع من تحت قدمك وهباء يفر من بنانك - وليس يؤدي الى
ساحل الحقيقة المادية الصلبة التي تحصل في ملكك وتقع في حوزتك
لما جربت مصر هذه الوسائل الكلامية واستنفدت ما هيأت
لها معامل الخناجر ومصانع الاجهزة التنفسية من بارود الصراخ
والهتاف وقنابل « يسقط ويحيي » فالفت كل هذا لم يغن ولم يثمر
ووقفت حائرة مبهوتة ازاء الحقيقة المرة وازاء لغز السياسة بل لغز

الحياة المعضل المعقد الذي أبى أن ينحل على الرغم مما صبت على رأسه من بارودها الهتافي وقنابلها « الأسقاطية الأحيائية »
تجننت عليها الطبيعة ورق لها فؤادها الكبير وتقدمت لعمومها
وامدادها . وقالت لها استريحى هنيهة . واختارت حل اللغز وفك
المعضلة رجل العمل والدأب والحزم والعزم والحجى والدهاء
عبد الخالق ثروت .

وكذلك الطبيعة السمحة السخية ما كانت لتضن على الشعب
المجاهد بالرجل العظيم عند الحاجة اليه . ولا يزال كلما ارتطمت
الامة المجاهدة فى المأزق الضنك والزحولة الزل اسرعت الطبيعة
الى اسعافها فساقت اليها رجل الساعة وبطل الميدان فلا يلبث ان
يقيل عثرتها ويأخذ بيدها ويهديها سواء السبيل . ذلك دأب الطبيعة
وديدنها الذى لن تعدل عنه الا اذا كانت قد أرادت بهذا العالم
الأرضي الخراب السريع والدمار العاجل .

ولما اختارت حل اللغز وفك المعضل رجل الجد والعمل
ثروت باشا ودفعت به فى جوف الزوبعة كما أوضحننا آنفا وفى وسط
العوامل المتنازعة والقوى المتدافعة والعناصر المتكاخفة المتلاطمة
ارتاح لذلك العقلاء واستبشروا وقالوا « اما والله ما كانت قط
زوبعة فوضى فرمى الله فى جوفها بروح النظام ممثلة فى رجل حازم

الا بدأت فيها حركة مباركة نحو ائتلاف العناصر المتنافرة والتوفيق بين القوى المتضاربة واستبقاء النافع واسقاط الضار من الاسباب والموامل - حتى تري الفوضى سائرة الى النظام والثورة الى الهدوء والضجيج الى السكينة وتبصر مكان الجذب والعقم الانتاج والاثمار - فتوقن بحسن المآل والعاقبة ولا جرم . فما من فوضى تقيم في وسطها روحا عالية نبيلة الا آلت الى النظام واخير والفلاح بفضل ذلك . وهذا وان الطبيعة تحب النظام وتبغض الفوضى ولا تطيقها ولا تحتملها ولا تصبر عليها الا ريثما تهىء لها روحا سامية تعالج بها شرها وتزيل خطرها . وهذا الكوكب الارضي النبيل المقدس الذي نعيش فيه ونتقلب مهما طال صبره على مروجي الهرج والفوضى فهو في النهاية لا يطيقهم ولا يلبث ان يريح نفسه منهم . وهذا من أشد ضرورات العالم اذ كانت سنته الصلاح والرقى وكانت مادة الخير فيه اكثر من مادة الشر وكان الحق فيه متغلبا على الباطل .

وأى خير في الفوضى الا اذا أصبحت تنجبه نحو النظام وأى بركة في الثورات السياسية الا اذا تولى المصلحون تنظيمها برسم الخطط والبرامج العملية .

أى ثروت! ايها الرجل الحازم البصير! لقد قذفت بك الطبيعة

في مضلة السياسة وتيهيها وفي مجاهلها ومهالكها حيث اشتبهت
المسالك واشكأت المناهج وخفيت وجوه الرشاد وخبث مصاييح
الهداية فانظر ما انت صانع ؟ وأي السبل تسلك وأي الوجوه
تنتحي ؟ الا فاعلم ان راكب الصعاب وولاج المآزق مثلك اذا
تشعبت في وجهه السبل ووقف ينظر ايها يسلك الى غرضه
الاسمي فلقد يوجد أمامه بلا شك بين هذه السبل منهج واحد
هو اقصدها وأهداها - منهج يكون سلوكه في ذلك الظرف
وتلك الآونة احق ما يأتيه واصوب ما يصنعه - منهج واحد
اذا أتيح له سلوكه طوعا أو كرها كان الحازم البصير والاريب
الداهية - كان الرجل المكتمل الرجولة الموفق الى ما يرضى
الرجال والالهة المسابير لانظمة الطبيعة ونواميسها الغامضة الخفية
فالتبيعة والكون أجمع يرحب بمثل هذا الرجل ويهتف له
«مرحي - بورك فيك وفي عملك» ! ثم يكون اليمين رائده والنجاح
حليفه فهل انت يا أيها الرجل النبيل والوزير الجليل مستبين
بين ما يواجهك في تيه السياسة ومضاتها وفي مجاهلها ومهالكها
من متشعب الطرق والسبل . ذلك المنهج الفويم الاوحد فسالكه
الى قصدك الانبل وغرضك الاسمي - النجح والفلاح - الى ضالة
الوطن المبتغاة وبغيته المرجاة وأمنيته المشتهاة - الى الحرية

والاستقلال ؟ سنرى ذلك قريباً

سنراك وقد قذفت بك الطبيعة وسط زوبعة السياسة الهوجاء وعواملها المتنازعة وعناصرها المتكاثفة تؤلف بما أوتيت من عزم وحزم بين هذه القوى المتمردة الطاغية . وبين هذه النزعات المتضادة المتعادية - ترد شواردها وتكبح جوامحها - آونة بسوط بأسك وسطوتك ولكنك بأس الحازم المتدبر المتلهف على مصلحة بلاده وسطوة المنصف العادل الحذب على منفعتها - وآونة بكف لينك الغريزي المغروس في طبيعتك . ورقتك الفطرية المركبة في سجيته . - دأبك ذلك إلى أن تعنو لك عاصفة السياسة الهوجاء فترتد الفوضى نظاماً . والزوبعة نسيماً والحرب سلاماً . انك وان كان قد كتب لك بحكم الظروف والأحوال أن تعمل وسط الزوابع السياسية والثورات الوطنية - وسط ما يصح لنا أن نسميه نوعاً ما من الفوضى - فانك بطبعك ونحيزتك رجل نظام لارجل فوضى - وتلك طبيعة العظماء كافة كلهم مجبول على حب النظام - بل كلهم النظام مجسداً . وكذلك الرجل العظيم إنما هو رسول النظام في هذا العالم . (وكذلك ما يجب أن يكون شيمة كل إنسان يحمل الصورة الادمية) أو ليس كل عمل من أعمال الانسان في هذه الحياة هو «ردالفوضى

الى النظام «؟ أو ليس كل ذى حرفة وصناعة موكل في هذه الدنيا أن يجمع المواد الطبيعية المبعثرة في أنحاء الكون المشتتة في أرجاء الوجود المتباينة جوهر المتنافرة صفات وطباعاً فلا يزال يوفق بينها ويؤلف حتى يضم شتاتها ويجمع بددها ويفرغ تفاريقها في قالب محكم بديع عجيب الصنع محدود بالقواعد الهندسية والحسابية؟ كلنا مولودون بفطرتنا اعداء للفوضى عشاقاً للنظام - هذه مزية البشر عموماً وهي في الرجل العظيم اضعاف اضعافها في الرجل العادي .

النظام يقتضي الشدة ويتطلب الصرامة احياناً - وهذا بلا شك نوع من الحذر والاشفاق على المصلحة العامة - وفي هذه الظروف الضرورية يصبح اسم « الشدة والصرامة » غير منطبق تمام الانطباق على المعنى الحقيقي لما يتبعمه الرجل الحازم من خطته الصارمة الشديدة التي يكون أحق بها وأولى وأقرب إلى معناها الحقيقي أن تسمى « رقة معكوسة » و « عطفاً مقلوباً » اذ كان باعثها الحقيقي هو العطف والرقّة . والحنان والشفقة وكما أن الطبيعة تنجز اعمالها وتنتج نتائجها آناً بالنسيم اللطيف وآونة بالاعصار العنيف وتارة بالجدول السلسل وأخرى بالسيل الجارف فكذلك الرجل المصلح الذي هو شعبة من الطبيعة وفلذة من

كبدتها يحدث آثاره النافعة ومآثره الجميلة باللين تارة وبالشدة
الأخرى كل طبيب الحاذق يداوي بالعسل وبالصاب وربما أزال السم
ببالمسم وشفى الداء بالداء .

نقول لما اعضل على الأمة المصرية لغز السياسة المعقد واعتاص
حله ولم تفلح فيه سهام المنطق الاجوف وزخارف الآمال واخاديع
الاماني ولم توفق الى حله طمحات الاوهام وسبحات الخيال
والاستناد على النظريات المستحيلة والاحتجاج بالاقتراضات الوهمية
معززة بقذائف « الهتاف » والقنابل « الاسقاطية الاحيائية »
تقدم إلى معالجة هذا اللغز المعضل العويص رجل الحقيقة والجد
والعمل عبد الخالق ثروت . ووقفت مصر وانكلترا والعالم أجمع
ينظر إليه نظرة العجب والدهشة ليرى ما هو صانع ازاء ذلك
الشكل المعضل .

وقف رجل العمل والذكاء والدهاء امام ذلك اللغز المخوف
وكاننا بذلك اللغز يخاطب الرجل العظيم قائلاً له « أتفقه معنى هذه
الساعة العصبية ؟ أتفهم لغز الحياة في هذه العقبة الكؤود والموقف
الخرج ؟ أن الآلهة تواجهك بسؤال معجز ولغز معضل فهل
عندك جوابه وهل لديك حله ؟ »

قال توماس كارليل في كتابه (الماضي والحاضر) لقد جاء في

أساطير الاولين ان جنية كانت تربض على قارعة الطريق للمارة
تواجه كل عابر باحجيتها الصعبة ولغزها العويص فاذا استطاع حله
مر سالماً آمناً في سربه والا اهلكته وأوردته حتفه . ويزعمون
أن هذه الجنية كان لها وجه حورية حسناء وصدرها الناهد
وأعطافها اللينة . ولكن بدنها الغض الرشيق يذهي بمعجزة لبؤة
ضارية ومخالب سبعة عادية .

« وكذلك الحياة هي كتلك الجنية لا فرق ولا خلاف -
فالحياة تواجهك بجمال حورية وحسنها الفردوسي الذي معناه
النظام البديع والحكمة العالية والخضوع لقانون العقل الأزلي
السرمدى ولكن فيها مع ذلك عنفاً وظغياناً وظلمة وهلاك -
أحق أن تسمى آفات جهنمية . وهذه الحياة أو الطبيعة لا تزال -
كتلك الجنية - تلقي على كل انسان يعبر سبيلها بصوت رقيق
وخيم هذا السؤال الخطير المرعب « أتفهم معنى هذا اليوم الذي
أنت فيه ؟ أتفقه مغزي هذه الساعة ؟ أتدري أي مشكلة تواجهك
وكيف تحلها ؟ وأي سبيل تسلك إلى ذلك ؟

« أجل ان الحياة أو الطبيعة أو الوجود أو القدر - كيفما
سميت هذه الحقيقة الهائلة التي لا استطاع تسميتها - والتي نعيش
في وسطها ونجاهد - هي حورية فردوسية وعروس سماوية وريح

وغنيمة للاريب اللبيب والذكي الالمعي الذي يستطيع أن يتفهم
أسرارها ويحل لغزها ويتبع قوانينها ويصدع بأوامرها . وهي
جنية فتاكه وشيطانة مهلكة لمن لا يفعل كذلك ولا يستطيعه .
فافهم اسرارها وحل لغزها تسلم وتغنم .

أما إذا لم تعن بذلك ولم تأبه له ومضيت في سبيلك دون أن
تحل ذلك اللغز وتجب ذلك السؤال فستحله لك جنية الحياة
وشيطانة الطبيعة - ستحله لك بمخالبها وتجيبيك بيرانثها وأنيابها
الحادة ثم لن تصادف فيها سوي لبؤة ضارية وسبعة عادية وحية
رقشاء . أباءة صماء . لا تسمع دعاك . ولا ترق لشكواك . ولا تلين
لرقاك . »

تقدم رجل الحقيقة والجد والعمل الى العقدة الصعبة والمشكل
المضل بعد ما أعجز أهل الخيالات والاهام وطلاب المعجز
والمستحيل - وقف ثروت باشا على قارعة السبيل وواجهته
شيطانة السياسة بلغزها العويص وطالبته بالحل والجواب -
فهل هو مخطيء أو مصيب - هل هو معرض نفسه وبلاده
لمخالبها وأنيابها أو مشيع منها بنظرة الرضا وابتسامة الارتياح -
الى منهج التوفيق وسبيل النجاح ؟ سنرى ذلك قريبا سنرى رجلا
ليس بأسير خيالات وأوهام ولا متعلقاً بأذيال الخوارق

والمستحيلات ولا تكن رجل الحقيقة والواقع - رجل الممكن
والجائز - رجل الغريزة الصادقة والبديهة الحافلة والبصيرة النافذة
رجلا يسلط شعاع عينه الناقبة على المشكل والمعضل فيبدد عنه
ظلمات الشكوك وغيوم الزيب والشبهات كما تسلط العدسة
البلورية طائفة الأشعة على الأشباح فتجلوها في أسطع مظهر
من الوضوح والبيان - رجلا ينفذ بنور بصيرته إلى اكناه الأمور
وجواهر الأشياء واكباد الحقائق حتى يقهرها ويمتلكها آخذاً
بنواصيرها قابضاً على أعنتها - وذلك بفضل مافاق به غيره من
رجاحة العقل وصدق العزيمة وقوة الروح - ذلك رجل لا ينظر
إلى الدنيا ومشكلاتها بمنظار النظريات والقياسات ولكن بعين
مجردة نافذة البصر ساطعة الشعاع كشافة المحات - رجل
الاخلاص العميق والغيرة الملتزمة والقلب الذكي المتأجج . والروح
الحى المتوهج .

سنرى رجلا مطويًا على غريزة الاهتداء إلى سر الحقيقة
وجوهرها أينما كان - رجلا قد ثبت قدمه على أساس الحقيقة
الوطيد الراسخ - رجلا يستطيع أن يتبين بصادق نظره وناقد
بصره من خلال التعقيد والارتباك أبواب الشيء وجوهره
فيعمد نحو ذلك ويسدد إليه خطواته . لقد روي عن نابليون

الأول انه لما كان أمين قصره يعرض عليه يوماً ما استجده في
القصر من فرش وأثاث وقد جعل هذا الأمين يطري هذه
الأمثلة والأدوات ويثني على صناعاتها ويقول انها قد جمعت إلى
جودة الصنف ونفاسته رخص القيمة وقلة النفقة لبث نابليون
أثناء تلك الأقوال المسهبة والخطاب المستفيضة صامتاً لا ينبس
بجرف واحد . ولكنه بعد نهاية هذا الكلام المطول أمر أمين
القصر أن يجيئه بمقص ثم عمداً إلى هداية ذهبية من هدايا إحدى
الستائر فقصها وطواها في جيبه وانصرف . وبعد مضي أيام فلائل
أبرز الهداية من جيبه في الفرصة المناسبة فعرضها على منجد
القصر الذي كان صنعها فارتاع ذلك الصانع التعس وأرعدت فرائصه :
لقد كانت تلك الهداية مغشوشة - لم تكن ذهباً كما زعم ولكن
صفيحاً ! هذه النادرة على تفاهتها تبين ماهية طبيعة الرجل وعنصر
خلقه - تبين أنه رجل عمل لا كلام وإن غريزة نفسه الصادقة تدفع
به إلى كبد الحقيقة مباشرة ضارباً صفيحاً عما يحيط بها ويحجبها
من الأقاويل والأراجيف ومن الشكوك والشبهات . كذلك
كان نابليون الأول وكذلك كان غيره من رجال الحقيقة والجد
والعمل - وكذلك نرى عبد الخالق ثروت .
هذا الرجل العظيم - ثروت باشا - يعرف بغريزته الصادقة

كنه ما يحيط به من الظروف والأحوال وما هيبة الأسباب
والوسائل التي يستخدمها ويتذرع بها إلى بلوغ غرضه ويعرف
كذلك درجة قوته ومبلغ قدرته وأين تقعان من غايته وبغيته -
يعرف النسبة بين كفاءته وبين ما يكتنفه من الظروف
وما يستعمله من الوسائل . وهذا لا يتأتى بالنظر السطحي ولا
بالمحات المتقطعة ولكن بطوفان من نور البصيرة يغمر الأمر
المبهم من جميع جوانبه وأركانه - بفضل العين الثاقبة والذهن
المتوقد . وكذلك على مقدار فهم الرجل لحقيقة الموقف يكون
حسن كفايته وبلاءه . فهل هو يستطيع أن يجمع الشتات ويؤلف
الشوارد وينفث في الخليط المشوش روح النظام والتنسيق -
هل يستطيع الرجل أن يقول في غياهب الشك وظلمات الشبهة
« فليكن نور » فيكون النور ؟ هل يستطيع أن يخلق من عالم
السديم والفوضى دنيا منظمة منسقة ؟ ستكون قدرته على ذلك
بحسب ما يحتويه قلبه من النور والضياء . وسنرى قريباً مبلغ
نصيب الوزير الجليل من هذه الميزة العظمى - ميزة الملائكة
وهبة الآلهة .

ذلك النور والضياء في فؤاد ذلك الرجل الألمي -
عبد الخالق ثروت باشا - هو مصدر ما يمتاز به من خلال النبيل

والكرم والهمة والمروءة والوطنية الملهبة وخصال الصبر والجلد
والحلم والرفق والتسامح .

ألا فقدس الله نور القلب وضيائه ! - أليس ذلك هو الذي
يجلوك ما يستكن في ضمائر الاشياء من روح النظام والائتلاف -
ليس ذلك هو الذي يوضح لك مغازي الطبيعة ومقاصدها وما قد
تحفيه تحت قشورها الخشنة ومظاهرها الكريهة من المعاني
الموسيقية ؟ (فانه ليس من شيء كائن في هذا الوجود الا يستكن
في أعماق جوفه معنى موسيقي أي روح نظامية تكون قوامه
ومساركه وعماده وملاكه . وبغيرها لا تماسك ولا يكون) . فنور
القلب أو العين الثاقبة في عظماء الرجال عامة وفي ثروت باشا خاصة
هي التي تهديه في زوبعة السياسة النائرة بآفاتهما ومكارههما - الى
مواطن الخير والمنفعة والمصالح فيستخلص من المنكر معروفاً
ومن المر حلواً ومن السم دريافاً . كما سنري قريباً .

لقد تقدمت أيها الوزير النبيل لعملك الجليل وسط اطلال
صرح الاستقلال المتهدم وانقاضه المبعثرة وأمامك الخصم العنيد
يحاول مقاومتك ومناهضتك بهدم ما تشيد وتقويض ما تبني .
وحولك البناؤون من بني وطنك منهم المسعف المسعد الحاضر
المدد والمعونة ومنهم المتباطيء والمتلكيء والواني والمتهاون -

فمصاعبك حمة ومتعابك شاقة - أحجار وجلامد صلبة صماء تتأبى
وتتعرس . ورجال تتأفف وتتضجر . وأمور متناقضة وشؤون
متضاربة وظروف عاتية متمردة . فلتقهرن هذه جمعاء ولتتغلبن
عليها إن قدرت - وإنك على أمثالها لقادر .

إن المصاعب والآفات والمتاعب والمثرات قريبة ظاهرة
مجابهة تتلفك لدي كل خطوة - وإن عون الطبيعة ومددها
وإسعافها (وإن كان في النهاية مؤكداً مضموناً) لمستتر مخبئ -
فاستثره من مكانه ونقب على خفياه بالصبر الجميل وبالجلد والعزم
والإخلاص - بقوة رجولتك ومضاء همتك . تغلب على كل عقبة
وصعوبة وحاول بكل ما أوتيت من حول وطول أن تشيد من
هذه الانقراض المبعثرة المشوشة صرح الاستقلال التام لبلادك
راسخ القواعد موطن الأركان منيع الجوانب شامخ الذرى .
لبث الوزير الجليل عبد الخالق ثروت باشا ثلاثة أشهر

طويلة يدافع عن حمي بلاده ويذود عن حياضها ويكافح عن
حقوقها ويناضل إزاء الد الخصوص واعتاها وأشدّها استبداداً
وجبروتاً وبطال بتحقيق مطالب الوطن العزيز وأمانيه الكبيرة
- ثلاثة أشهر جاهد فيها جهاد مشمر معزم مستبسل في سبيل
الحق مقدماً اصدق مثال على روح الوطنية العالية والتضحية

الشريفة . فكيف كانت نتيجة مساعيه وثمره مجهوداته .
في نهاية هذه الأشهر الثلاثة أذعنت لشروطه وأجابت
مطالبه اقوى دول العالم فاعلنت في ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ الغاء الحماية
عن القطر المصري واعلنت استقلاله التام - وان يكون للبلاد
دستور وحكومة مسؤلة

جزاك الله أيها الرجل العظيم عن البلاد وأهلها أكرم الجزاء
وقدرها على القيام بواجب الشكر نحوك

الفصل الثاني

التصريح لمصر

بالغاء الحماية واعلان الاستقلال التام

وكذلك في غرة شهر مارس سنة ١٩٢٢ خطت مصر أفسح خطوة وأيمنها نحو غايتها المقصودة وأمنيتها المنشودة فصعدت عن نفسها أغلال الاستبداد الاجنبي وتخلصت من ربة الحكم البريطاني ووضعت قدمها على قارعة طريق النجاة والسلامة وبرزت من ظلمة سجن العبودية الى فضاء الاستقلال الطلق الرحيب والى جوه المشرق المستنير وتذسست أول نسيمات الحرية - تلك النسيمات الغضة المنعشة التي هي غذاء الانفس ومادة الارواح وحياة الحياة اذ كانت هي الشرط الاول لنهضة الامم من وهدة التقهقر والانحطاط والحجر الاساسي لبناء صرح المجد والعلاء وكانت مفتاح باب النعمة والثراء . والرغد والرخاء . وسلم الرقي الى أسمى درجات المدنية والحضارة والحياة السامية النبيلة . أعلنت انكنازا في « التصريح لمصر » الغاء الحماية والاعتراف

بالاستقلال التام وأن يكون لمصر برلمان يمثل الامة تمثيلاً صحيحاً
وحكومة مسؤولة أمام الامة ممثلة في برلمانها وأن تتولى مصر
بنفسها دون أدنى تدخل من الدولة الانكليزية أمر تأسيس
البرلمان وسائر مهمات الحكم والادارة في بلادها . وأن يحرص
الخلاف بين الامتين في أربع نقط وهي :

(١) حماية المواصلات البريطانية داخل حدود القطر
المصري (٢) حماية الاقليات والاجانب (٣) الدفاع عن مصر
ضد كل اعتداء أجنبي (٤) مسألة السودان . فهذه المسائل
الاربعة ينظر في تسويتها وحلها بواسطة مفاوضات مستقبلية
تدور بين الحكومة الانكليزية وبين البرلمان المصري الذي يكون
هو وحده صاحب الحق في تحديد موعد هذه المفاوضات
والشروع فيها حسب ميله ومشيئته الحرة المطلقة . وفي مقابل هذه
الفوائد الجمة والغنائم العظيمة التي استخلصها عبد الخالق ثروت
باشا لمصلحة بلاده من يد الخصم الالدي المعاند لم يبذل دولة الرئيس
الاجل لذلك الخصم أدنى ثمن في صورة شرط أو تعهد أو قيد
- بل احتاز لاوطن هذه الثمرات المباركة غنماً بلا غرم وطعمة
صائغة هنيئة وعربوناً لما سوف تستوفيه مصر على يد برلمانها في

المفاوضات المقبلة من موفور الحقوق ومستكمل المطالب
كل ذلك نأتمه مصر بمعونة الله العلي الأ كبرجل شأنه وبهمة
ملكها المعظم وفضل مساعيه الجليلة ومجهوراته العظيمة محتذيا
في ذلك حذو آياته الاقيال الاما جد واجداده الصيد الصناديد
جاريا على سننهم الاغرا الاوضح ومنها جهم الانبل الاشرف متبذرا
غاية من المجد والثناء تقع من دونها سباحات الآمال وطامحات
الاماني وتنحسر عن شأوها المديدأحت مطايا الحمد واوحى سوابق
الثناء والشكر . ادام الله سلطانه . ودعم بالعز بنيانه ووطد بالعدل
أسسه واركانه . وايد بالفتح المبين صولجانه . وانسح في بحبوحة
النعيم ارجاءه . واخفق في رياح النصر لواءه . وجعل عهده الميمون
مراد خصب عميم . ومرتع عز مقيم . وفاتحة خير للبلاد لا تجف
على الزمان اخلافه . ولا يجمد على الحقب والاجيال هطاله
ووكافه . انه سميع النداء . مجيب الدعاء .

نالت مصر كل هذه الفوائد والغنائم بفضل الله عز وجل
وبفضل ملكها المعظم ادام الله عزه وخلد ملكه وبفضل الوزير
الاجل عبد الخالق ثروت باشا الذي رد إلى البلاد بفضل حكمته
وحزمه ومثابرته وجهاده اوفر قسط من حقوقها المسلوبة . (وأنه
على استرداد الباقي لمعتزم دووب) . والذي محام كان أصاب

كرامة الاوطان من وصمة « المذكرة الايضاحية » واسى ما كانت
أحدثته في أديم تلك الكرامة من ندوب وجراح - دون أن
يقيد البلاد باعطاء أدنى مقابل من شرط أو تهديد .

وبفضل مجهودات الشعب المصرى ذاته الذى ما قصر فى
المطالبة بكامل حقوقه ولا فرط ولا ونى ولا تبلد والذى أظهر
فى الساعة العصيبة والمحنة النكراء (عقب اعلان المذكرة
الايضاحية) من ضم الصفوف وتوحيد الكلمة ماشداً أزر الوزير
الجليل ثروت باشا وايده وكان من ورائه حصناً حصيناً فى
مناهضة الخصم وكهفاً منيعاً وعروة وثقى .

وكذلك فى أول مارس ١٩٢٢ هب على مصر من تفجحات
رضوان الله نسيم الاستقلال وحيا مسامعها من موسيقى النظام
الابدئى نغمات الحرية المطربة الشجية فحيا الله فى الأيام ذلك اليوم
الأغر المحجل وقدس الله فى الساعات تلك الساعة السعيدة الزهراء
ساعة هبط علينا البشير يحمل إلينا صحيفة السعادة الخالدة ممسكة
بأذنى من شذى العطر . مصقولة الطراز بأبهى من سنا الفجر .
وأى ساعة أجل وأعظم واحق بالتحميد والتمجيد من ساعة
تنطلق فيها الروح الانسانية بعد طول اسر واحتباس من قيود
الرق واغلال الخسف والعسف فتنهض وتنبعث - ولو غشيها

اثناء ذلك شيء من الدهشة والارتباك والحيرة - وتنشط من
عقلها حافة بالذي خلقها وسواها لتكوين حرة وتبين طليقة:
الحرية وما ادراك ما الحرية؟ هي جوهر الروح وعنصر النفس
وملاكا الذي لا تقوم بغيره وقوامها الذي لا تصح ولا تسلم إلا به.
وهي البغية والطلبة التي لا تزال تنزع اليها الروح من أعماق اعماقها
وتشرئب وتطمح وتصيح مفصحة أو معجزة مبينة أو مجمعة
تطالب بها السائب المغتصب مناوئة منابذة ولو هدها بما في
الأرض والسماء من قوة. وهي التي في سبيلها وحدها يبذل بنو
الانسان بحكمة أو بلا حكمة كل كد وعناء ومجهود وجهاد: ويفشون
كل ملحمة ومعتك ويقاسون كل ألم وكربة وبلاء. اجل ما اجل
قلك الساعة وما اعظمها - ساعة تنسم الامة انفاس الحرية المنعشة:
ساعة يبدو للقافلة المسكودة الظمأى خضرة الروضة العشبية وسط
القفرة الجرداء ويقر اعينها رفيف ايكها النضر في وقدة الهاجرة
ولفحة الرمضاء.

لما قبلت انك لترا شروط ثروت باشا واجابت مطالبه انفكت
الأزمة الوزارية ورأى ذلك الوزير الجليل انه لا بأس عليه في
تلك الظروف الحسنة من قبول الوزارة - وحينذاك رأت جلالة
الملك أن تسند إليه الرياسة فلبى دعوة مليكه المعظم تلبية مسرع

إلى طاعته صادع بأمره محتملا في سبيل خدمة البلاد اعباء تلك
المهمة الشاقة ثم اختار دولة الرئيس للوزارات المختلفة رجلا هم
صفوة ابناء الأمة ونخبته واعتادها في الازمات والشدائد وذخرها
في الملمات والعظائم - من كل فاضل كفوء وحازم بصير مديد
الشأ ورحب الذراع بعيد المهمة وحسبك أن يكون بينهم رجل
كصاحب المعالي اسماعيل صدقي باشا - ذلك الفذ النابغة الذكي
الالهي الذي كأنما تتوقد بين جبينه كواكب الفلك. ومصابيح
الحلك. ذلك المشهود له بدقة الذهن وصفاء الفريضة لا يطيش
له في حومة النضال سهم. ولا يخبو له في ظلمة الشكوك نجم.
وقد طالما عجمته الحوادث. وعركته الكوارث. فالفته صلد
الصفاء. جلد الحصاة. لا تحل حبوته. ولا تقل عزيمته. وكم دفعت
به خطوب السياسة في المآزق والمضايق فما راعنا الا خروجه
منها ظافرا وادع القلب وضاء الجبين. وكفاه نبلا وشرفا انه
كان موضع اختيار الرئيس الاجل وانه مازال موطن ثقته
واعتماده.

وحسبك أيضا أن يكون من بين من اصطفى الرئيس
أيضا صاحب المعالي مصطفى ماهر باشا - وهو ذلك الرجل الجلد
القدير على العمل الناهض بأعبائه مهما كدت وفدت. وكم له

من موقف في ميادين الاعمال الجسام اظهر فيه الحكمة مقرونة
بالصرامة والتؤدة مشفوعة بالعزم والمضاء. وقد أحسن الرئيس
كل الاحسان في اختيار مثل هذا الشهم الهام لوزارة المعارف
لأنها أحوج الوزارات الى عميد ينفجها بروح من عنده ويبعث
في كيانها تياراً ملتهباً من « بطارية » ذهنه المتقد - وجذوة حامية
من مرجل حميته المحترمة. وما ذا عسانا بعد أن نقول في رجل
رآه الرئيس اهلاً لما ناط به من ذلك العمل الجليل والمنصب العظيم
كذلك تألفت الوزارة باختيار ثروت باشا من رجال اكفاء
سبقت لهم في خدمة البلاد ايام بيضاء. وما أثر غراء. تجلى فيها
اخلاصهم وصدق وطنيتهم في حذق وبراعة. وقد تبوأ اولئك
الوزراء مناصبهم في وزاراتهم المختلفة حيث أخذوا بالمبدأ السياسي
الجديد - مبدأ الانفراد بالعمل والاستئثار بالسلطة فقبضوا
على أزمة الحكم وتسلموا مقاليدهم وحققوا معاني ذلك المبدأ
الجديد وأغراضه تحقيقاً تاماً لا يقبل شكاً ولا ريباً - فاصبح
الموظف الانكليزي مهما علت درجته مروؤساً للوزير مرغماً أن
يخضع لارادته ويصدع بأمره وليس رئيساً مستبداً مطلق
السلطة متحكماً في جميع من حوله يأمر وينهي لا ناقض لحكمه
ولا راد لكلمته وربما استبد على الوزير نفسه واغتصب سلطته

وأخضعه لمشيئته ورغبته - كما شوهده كثيراً في العهد السالف .
 قها نحن أولاء أصبحنا نرى بعين قريرة جذلي كبار رجالات
 الانكليز يتقلص ظل سلطانهم عن منصات الحكم داخل بلادنا
 ويطوى بساط نفوذهم عن دوائر حكومتنا وينامس شبح صولاتهم
 المرهوبة ويزول عن أبصارنا - ويحل محل هذا كله سلطة وزرائنا -
 أهل جلدتنا وأبناء آبائنا وأخواننا في الله والوطنية وشركائنا في
 السراء والضراء - الواردين معنا حياض المناعم والمكاره والشاربين
 بالكاس التي بها نشرب أن علقماً وان شهيداً - ورفاقاً في قافلة
 الجهاد وزملائنا في سفينة الاقدار - السائرين معنا الى الهلاك
 أو النجاة . الى الموت أو الحياة . المقرونة اسمائهم الى اسمائنا في
 سجل القضاء الازلي . المخبوء لهم من القسم والحظوظ مثل ما خبيء
 لنا في خزانة الغيب ومستودع المجهول . الجارى لنا ولهم بالسعود
 والنحوس نجم واحد في فلك واحد . فليس من المعقول ولا من
 الجائز قياساً أو فرضاً ولا ثماً يسوغ في الضمائر أو يمر على الخواطر
 أن اخواننا الوزراء - من تجيش عروقهم بدمائنا وتنبض قلوبهم
 على دقات قلوبنا - ينزلون الا على ارادتنا - أو يتوخون سوى
 أغراضنا ومقاصدنا ولا سيما في هذا العهد المبارك وفي هذا الدور
 المتقدم من قضيتنا وبعد ما أعلن الانكليز رسمياً انفاء الحماية

والاعتراف بسيادة مصر في الخارج وفي الداخل فكان في ذلك
أوضح برهان على ما عدلت اليه وعولت عليه الحكومة
الانكليزية من صحة العزم وصدق النية على عدم التعرض لإدارة
مصر الداخلية والحيولة بينها وبين التمتع بحقوقها الكاملة في
حكومة أهلية.

أجل ان الوزارة الحالية لا تألوا جهداً ولا تدخر وسعاً في
استرضاء الأمة والنزول عن حكمها وان قامت العقبات والعثرات
مؤقتاً دون قيامها بأبلاغ الأمة كل رغباتها وجميع مشتهياتها ولكن
الوقت كفيلاً أن يبرهن للشعب على أن ما يؤجل الآن من
أمانيه وبغياته بحكم الظروف القهرية الناشئة عن حالة الانتقال
والتطور السياسي لن تلبث الوزارة أن تعمل على قضائه وتحقيقه
في الحين المناسب متى تراخت الازمة وانفسح المجال وتيسرت
الظروف المسعدة المؤاتية - وفي سبيل تيسير هذه الظروف
وارضاء تلك الازمة واستعجال ذاك الحين المناسب تبذل الوزارة
الآن أقصى الجهد وتخطو اوسع الخطى

فها هي قد تسلمت كما أسلفنا مقاليد العمل وقبضت على أئنة
السلطة. ففتحت المستشار المالي عن حضور جلسات مجلس
الوزراء كما هو معروف وتخلصت من معظم وكلاء الوزارات

ومستشاريها الانكليز واستبدلت بهم وكلاء وطنيين . وهانحن
أولاء لا يكاد يمر بنا برهة من الزمن الا رأينا بعض كبار
الموظفين الانكليز يعتزل منصبه في الحكومة المصرية فيعين
مكانه مصري من ابناء البلاد . وهانحن نرى الوزراء المصريين قد
ملكوا نواصي الشؤون والاحوال . وامسكوا بدفة المسائل
والاعمال في وزاراتهم المختلفة فأحاطوا علماً بكل دقيقة وخطيرة
ولم يغادروا صغيرة ولا كبيرة . . ومن ذا الذي لم يطلع في الجرائد
السيارة على قرار صاحب المعالي اسماعيل صدقي باشا بهذا الشأن
وفي ذلك الصدد . ذلك القرار الحاسم الجازم . الذي أماط كل
شك وجلى كل شك وشبهة عن هذا الامر الخطير فلم يدع مجالاً
للنقد ولا موضعاً للاعتراض .

هذه كلها من فوائد العهد الجديد ومن ثمرات الفوز السياسي
المبين الذي احرزته البلاد بمعونة الله عز وجل وبفضل جدها
ومجهورها وهمتها وتضحيتها وعلى الاخص بما اظهرت من الاتحاد
والتضامن (عقب اعلان المذكرة الايضاحية) والقيام في وجه
الخصم الالامعاند متساندة متعاضدة كأنها روح واحدة في جسد
واحد . وبفضل مجهودات وزيرها الاجل ومهارته وحكمته
السياسية وكفاءته النادرة فهو الذي استطاع أن يتخذ من صدق

موقف الامة وقوة تضامنها أحسن وسيلة وأضمن ذريعة الى
اقناع الخصم واستمالته والتأثير في أعصابه حتى أمكنه أن يستخلص
للبلاد من قبضته ما استخلصه من تلك الفوائد الجمّة والغنائم
العظيمة.

ولكن كيف كان موقف الامة ازاء هذا التغير السياسي
العظيم وبماذا استقبلوا هذا الهمد الجديد . وما ذا كانت آراؤهم
فيما قد تأتى للبلاد من تلك الفوائد والغنائم ؟

انقسمت الأمة بهذه المناسبة وفي هذا الموقف من حيث
الظنون والآراء شيعاً بدداً . وطرائق قدداً . . فمنهم المستبشر
المتفائل الفرح الجذلان بما نالته البلاد من ذلك الغنم العظيم وان
وقع دون أقصى غاية البغية والمراد وتقاصر عن أبعد مرامي
المقصود والمرغوب ولم يسم إلى ما تطمح إليه الأمة من الاستقلال
التام بأكمل معانيه . وفي إسمي مراقيه . وأنى مجاليه . فهذا الفريق
من أهل البلاد يعتقد أن هذه المرحلة الأخيرة فوز صريح وربح
حاصل وأنها بلا أدنى جدال خطوة إلى الأمام . وخطوة واسعة
قد قربتنا من الغاية المقصودة شوطاً بعيداً . وشأواً مديداً .
وحسنت موقفنا وحصنت مركزنا ورفعتنا من وهدة ضعف
وخضيض مهانة كنافيه تحت مدفعية الخصم نصلي نيران سطوته

ولهيب صولته لانستطيع له مطاولة ولا مصاولة - فرفعتنا هذه
الخطوة إلى ربوة عزة ومنعة وهضبة حصانة وقوة أصبحنا بها
أولي قدرة على مناهضة ذلك الخصم ومناجزته وأقدر على مواصلة
سعيينا إلى أمنيته المنشودة أغنى الاستقلال التام المطلق من كل
قيد المجرد من كل شائبة - أولم يصبح هذا الغنم الذي استفدناه
أخيراً أقوى سبب وأمتن وسيلة نستطيع أن نتذرع بها إلى أحرار
الفوز الأتم والنجاح الأكمل أغنى تحديد الضمانات التي تطلبها
بريطانيا العظمى ونقصها وتلطيفها بما لا يتعارض مع استقلالنا
ولا يضره إلى أن يحين الوقت للعدول عنها وإطراحها فتخلص
مصر اخلاص التام من كل قيد من هذا القبيل وخلافه .

هذا فريق التفاؤل والتيمن الذي هو في الحقيقة أقرب من
غيره إلى الصواب والمعقول . لأن جميع ما يحيط بالمسألة من
شواهد الظروف وقرائن الأحوال تصدق رأيهم وتؤيد حججهم
وثبت فريق آخر يناقض الفريق الأول في رأيه ومذهبه . فهو
لا يثق ببريطانيا على الاطلاق بل يفضل ترك الحاله معلقة - حتى
يقضي الله أمراً كان مفعولاً - على قبول ما هو معروض الآن
على مصر - محتجاً لمذهبه هذا بأن الانكليز ما برحوا منذ بدء
احتلالهم هذا القطر يبنون أهله بأباطيل المواعيد وأضاليل الأمانى

فاذا استسلمنا الى وعودهم هذه المرة أيضاً فقد تضعف العزائم
وتتخدر الأعصاب ويتأخر سير القضية الى غرضها الاسمي
ومرادها الاقصى وفي هذا البلاء والشركة.

ونحن نعرض على هذا الفريق ومذهبه بأن انكلترة اليوم
ليست بانكلترة الأمس. لقد علمتها الحوادث والخطوب أن
أمم الشرق وشعوبه الواقعة تحت سيطرتها ليست بالرمة البالية
المقبورة في مدافن الدثور والعفاء ولاهي بالخشب المسندة الملقاة
في زوايا الاهمال والنسيان رهائن العجز والتبذل والجمود.
لقد كانت انكلترة تحسب أن الامة المصرية وسائر أمم الشرق
لم تشارك الشعوب الغربية المهضومة فيما أحدثته الحرب الكبرى
في صميم كيائها من تلك الثورة الفكرية والغليان السياسي الذي
استحث حركتها العادية وسيرها المألوف في سبيل الرقي الطبيعي
التدريجي نحو الغاية المحتوم عليها بلوغها - (ولو يبطيء وتريث
وبعد تعطيلات العقبات والعراقيل) - بحكم السنن الكونية
والنواميس الطبيعية. فانكلترة بالرغم من اعترافها للشعوب الغربية
الصغرى بما أحدثته فيها الحرب الكبرى من الثورة الفكرية
السياسية وبالرغم من ادعائها لحكم هذه الثورة - أعني لحكم السنن
الكونية والنواميس الطبيعية - تغافلت عن مصر في بادئ الامر

وتعامت ولم تحسب لها حساباً في باب النهوض والتحفز فلم تلق
لمصر بدلو يوم القت الشعوب الغربية بدلائها في مناهل المؤتمرات
ولا أجالت لمصر قدحاً ولا سهماً يوم أجالت الشعوب الغربية
سهامها وقد احياها في قرعة السياسة على موائد المقامرة الدولية .
لم تطرح انكلترا مسألة مصر - ولا سمحت لمصر أن تطرحها بنفسها -
في ميزان التسوية يوم طرحت مسائل الامم الغربية في ذلك
القسطاس الحكم .

فماذا كانت النتيجة والعاقبة ؟ نتيجة الغفلة والتفريط وعاقبة
من لا يحسب للأمر حسابه ولا يتدبر عواقبه - كانت النتيجة
- مفاجأة الغافل المغتر بما لا يتوقع من الخطب الجسيم والحادث
الجلل الذي ما برح يختمر ويتكون - أيام غفلته وغروره - في
طي الخفاء حتى ظهر له حين انقشاع عمايته وانجلاء غمرته -
بارزاً جهيراً شنيعاً بشعاً جهماً متنكراً يحملق اليه بعين الحقيقة
المستعرة جهرأ وشرراً .

كانت النتيجة استيقاظ بريطانيا من رقدتها الطويلة بلطمة
قاسية من كف الحقيقة المرة الاليمة حين استوفت هذه الحقيقة
نموها واستكملت نضجها ودرجت من منشئها ومرباها الى
ميدان العالم ومعتك الحياة لتؤثر أثرها وتؤدي وظيفتها .

كانت النتيجة ان مصر المهضومة المستضعفة التي لم تحسب
بريطانيا حسابها ولم تأخذ منها حذرها ثارت ثورتها المعروفة في
مارس ١٩١٩ وهبت في وجه بريطانيا هبة الأسد المسلسل
صدع قيوده وأغلاله ووثب يطالب المغتصب بحقوقه المهضومة
المسلوبة.

عند ذلك أفاقت بريطانيا لأول مرة من غفلتها بالنسبة
للمسألة المصرية وصحت من سكرتها . واقبلت على القضية
المصرية تتأملها بعين الحذر والاهتمام المشوب بشئ من الخشية
والرهبة . ولا جرم فلقد راعها من عجيب تطور الأمة المصرية
وعظيم نهضتها وطفرتها ماراع « أهل الكهف » اذهبوا من
رقادهم فهاهم ماهاهم من تغير حال الدنيا وتبدل الشؤون
والمشاهد . وكان بعد ذلك ما كان من محاولة بريطانيا المرة بعد
المرة تسوية القضية المصرية بوسائل شتى - احداها « لجنة ملنر »
التي فشلت في مهمتها بفضل اجماع المصريين قاطبة وتوحيد كلمتهم
على مقاطعتها أشد مقاطعة وأقصاها حتى أوصدوا في وجهها كل
باب للمناقشة والمفاوضة بل قطعوا منها كل أمل في ذلك . وكل
هذا تأييداً للوفد المصرى الذى كان إذ ذاك وكيل الأمة المفوض
ومندوبها الذى لم يرتض سواه مندوباً ووكيلاً .

وهنا يجدر بنا أن ننوه بما كان من سلوك ثروت باشا في تلك الآونة الدقيقة وكيف كان موقفه ازاء لجنة ملتر وبماذا أشار عليها : قابل ثروت باشا في ذلك الحين اللجنة المذكورة منفرداً (كما قابلها عدلى باشا منفرداً) لا مقابلة راغب في مفاوضتها - حاشا لوطنيته الشماء أن تفعل ذلك - ولكن مقابلة من أحب أن يبلغها جواب الشعب الصريح واعتقاده الصحيح معبراً عن جنانه . ناطقاً بلسانه . فانبأها بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن الشعب المصرى ان المصريين قاطبة قد أصرروا على أن لا يكون لهم مع اللجنة شأن ما وان لا يدخلوا معها في مناقشة أو مباحثة - ذلك لأن لهم وفداً يمثلهم أصدق تمثيل وأصح . فهم لا يرضون غيره محاميا عن القضية ولا يتقون بمفاوض سواه كائننا من كان . هذه المأثرة الجليلة من مآثر ثروت باشا الدالة على ما ينطوى عليه فؤاد الرجل الكبير من صدق الوطنية وروح التضحية أقل مايؤثر من عظيم مآثره . وجسيم مفاخره . وأدنى ما يذكر من مساعيهِ الجليلة في سبيل خير البلاد وصالحها . ولكننا رأينا أن نودرها هنا تذكرة لمن نسى وتعريفاً لمن لم يعرف . فليعلم الناس ان وطنية ثروت باشا ليست وليدة اليوم ولا بنت الامس بل هي عريقه فيه متأصلة منذ ادلى به عالم الخفاء الى عالم

الوجود . - منذ

سأله الله للخطوب من الغي ب كسل المهند المغمود
وكذلك كل رجل عظيم لا تكون فيه الوطنية مجرد عادة
يعتادها أو خصلة يتحلى بها أو أداة يتذرع بها إلى شيء من
مقاصده وأغراضه - بل تكون فيه غريزة غالبة وطبيعة
مسيطرة على جميع مشاعره ومداركه ونزعاته . وعواطفه
وشهواته - تكون مزاج دمه وأساس كيانه والجوهر الذي صيغت
منه نفسه والعنصر الذي صورت منه روحه

قلنا ان بريطانيا لما أفاقت من سكرتها بالنسبة المسألة
المصرية ولما قشعت يد القدر عن بصرها ما كان ران عليه من
غشاوة الغفلة والغرور وعن قلبها ما كان قد غشيه من حجب
القسوة والجبروت فأصاحت إلى صوت مصر المتصاعد إلى
عرش الله واصغت إلى نداء مصر المألئ ما بين الأرض والسماء
وقد أدركت ان مصر لا تقل عن نظائرها من الشعوب
الأوربية شعوراً بعزتها وكرامتها . وعرفاناً بقدرها وقيمتها .
وإدلالاً بسالف مجدها وعظمتها . وانها لا تنحط في درج المدنية
والحضارة عن مقام تلك الأمم ولا تهبط في سلم الرقي الأدبي

والاجتماعى عن منزلة تلك الشعوب - لما ادركت بريطانيا كل هذا وجبتهها الحقيقة صلبة خشنة كالصخر الصماء - أرادت استرضاء الامة المصرية وحاولت بلوغ ذلك بتسوية قضيتها المرة بعد المرة بوسائل شتى . منها « لجنة مانر » التى ذكرنا ما كان من فشلها بفضل اجماع المصريين على مقاطعتها بأقصى الشدة وبتنفيدهم هذه النية بحد وجد وعزيمة وصرامة كانت ولا تزال موضع اعجاب العالم بأسره وكان من تلك الوسائل أيضاً دعوة بريطانيا الامة المصرية الى مفاوضتها أولاً على لسان الوفد المصرى (بصفة غير رسمية) وثانياً على لسان الوفد الرسمى (بصفة رسمية طبعاً)

ليس غرضنا ههنا ان نأتى على نارنج تينك المفاوضتين ولا أن ندخل فى تفاصيلهما - بل لم نذكرهما هنا بقصد تناولهما بالبحث والنقد وانما الجأنا الى التنويه بهما محاولتنا اقناع الفريق المتشائم المتطير المبالغ فى اساءة الظن ببريطانيا ان انكلترا اليوم - التى تدعو بنفسها مصر وتمتد يدها اليها للدخول معها فى المفاوضة لاسترضائها وتسوية قضيتها هي خلاف انكلترا الامس العانية المتعطسة التى كانت لا تسمع النداء . ولا تسميخ لدعاء

فلهذا الفريق المتشائم المتطير الشديد الارتياب في صحة مواعيد
بريطانيا وفي حسن نيتها لمصر على أن لا يزال مدى الدهر يعتقد
فيها مطال الوعود وختل العهود والسخرية من مطالبنا الوطنية .
وأمانينا القومية . نقول ان بريطانيا اليوم بانسبة لقضيتنا غيرها
بالامس وانها تقف منا الساعة موقفاً لم تقفه من قبل . فلقد
أيقظناها من رقادها ونبهناها الى تلك الحقيقة الكبرى وهي أن
مصر أيضاً أمة كغيرها من الامم الغربية وانها تعرف مثلها معاني
الحرية والاستقلال وتصبو الى أخذ مكانها بين دول العالم المجيدة
وممالكه العظيمة وتتوق الى الصعود في مراقي المدنية السامية
لاعتلاء ذروة العز وتسم غارب المجد والسؤدد . وانها كسائر
الامم الغربية الناهضة لها قلب يجيش بأذكي جرات الحمية . وأحمى
مراجل الوطنية . ولها جانب صعب أبي ينفر بها عن مواطن
الخسف والضميم . وانف حمى يأبى لها التزول على العسف والرغم .
أجل لقد فتحنا عين بريطانيا بعد طول غموض الى ان مصر
كمشكلاتها من أمم الغرب لا تصبر على اغتصاب حقوقها واستلاب
تراث أسلافها وانها تقدر قيمة الحرية حق قدرها وتعرف انها
الجوهرة الثمينة . والدرة اليتيمة . التي من أجلها تخوض غمرات
الخطوب . وتغامس حومات المحن والكروب . فاما تهلك وتفتنى

فى خضم الجهاد واما تظفر بتلك الدرة اليتيمة فتردها الى موضعها
من اكليل مجد البلاد وتعيدها الى نصابها من تاج حسبها المجيد .
وعزها التلبد . لقد علمنا بريطانيا أنه ليس للغرب أن يفخر على
الشرق زاعماً أنه أوفر نصيباً منه فى مزايا النهوض والتقدم وانه
أذكى منه قلباً وأنبى روحاً وأصفى جوهرأ وأكرم عنصراً —
لقد علمنا بريطانيا أنه لاشرق ثمت ولا غرب اذا هبت الامة من
سباتها تطالب بحقوقها المهضوم وتحاول استرداد الحرية والاستقلال —
لاشرق ولا غرب اذا زخر عباب الحياة فى فؤاد مثل هذه الامة
وثار موجه وجاش تياره فى أعماق روحها المضطربة ثم دفعته رياح
الوطنية العانية الى الموت أو الحياة . أجل . فى مثل هذه الساعة
الخطيرة تمحى من بين صفات الانسان الطبيعية تلك الصفة
الاصطلاحية الصناعية أعنى « شرقيا » و « غربيا » وتسقط عن
هيكل الانسان المقدس تلك « الماركة » المعلقة عليه تعليقا - غير
المتأصلة فى جوهر الروح النقى الاصلى المستمد هو وسائر أرواح
البشر من مادة الروح الكلى وينبوعه الابدى .

لقد فتحنا عين بريطانيا الى هذه الحقيقة الكبرى وهي
ان الامة المصرية لم تكن فيما مضى من الزمن ميتة ولا جامدة
ولا خامدة ولا نائمة - بل حية تذكو فى ضميرها جمره الحياة

والشعور وان حجبت شعاعها حجب الفتور والتبدل منا وحجب
الغفلة والغرور منهم . لقد علمنا بريطانيا هذه الحكمة البليغة وهي
انه لا شيء في الحياة ميت أو هامد أو راكد . لقد ذكرنا بما
كان أوحى اليهم حكيمهم العظيم توماس كارليل في القرن السالف
حيث قال في كتابه « الثورة الفرنسية »

« لا شيء في الكون ميت . وما نحاله ونسميه ميتاً إنما هو
في الحقيقة في حالة استحالة وتغير تعمل قواه الكامنة وتفتعل
على نظام معكوس . فالورقة الذابلة رهينة البلى والعفن لا تزال
تكن فيها القوة . والا فكيف كان يتأتى لها أن تتعفن ؟ ألا
إنما الكون بحذافيه ليس سوى مجموعة غير محدودة من القوى
المختلطة المتزجة - تعد بالآلاف والملايين - من الجاذبية الجمادية
الى الفكر والشعور والارادة - حرية الذهن المطلقة تكتنفها
وتحقق بها ضرورات الطبيعة المحتمة : وفي خليط هذه القوى
الهائل العظيم لا شيء يهمد أو ينام لحظة . بل كلها لا تزال أبد
الآبدن يهتف بفعالة . فاما ذلك الشيء الجامد الهامد المنعزل عن
دوامه هذه الحركة الابدية فذلك ما لن تجدوه ولن تراه في أي أنحاء هذا
الوجود البتة - مهما فتشت ونقبت في سلسلة الكائنات من الجبل
الصوان المستمر في حركة البلى البطيء منذ بدء الخليقة - الى

السحابة السارية ، الى الانسان الحي ، الى أقل فعلة من أفعاله وأدنى كلمة من أقواله - أجل ان الكلمة اذا خرجت من فم القائل مضت كالسهم النافذ لا ماحى لا ترها . وأشد منها وأقوى الفعلة الواقعة . أو لم يتغن لنا الشاعر « بندار » قدما بحكمته الماثورة « ان الآلهة أنفسها لتعجز أن تمحو أثر الفعلة المفعولة » لقد صدق « بندار » فان هذه متى فعلت بقيت على الابد الابد مفعولة أى دائمة المفعول والاثر - بقيت مسترسلة في فضاء الزمن للانها أتى - وسواء لبثت ظاهرة لنا بادية . أو مستترة خافية . فستبقى فعالة تزكو أبداً وتنمو عنصراً جديداً لا ينفى ولا ينعدم في غضون مزيج الكائنات للانها أتى . بل ماذا تحسب هذا المزيج للانها أتى ذاته الذي نسميه « الكون » - أتراه سوى فعلة أو مجموعة من الافعال أو القوى ؟ أتراه سوى مجموعة حية (يعجز الحساب عن جمعها وحصرها في جداوله وان بدت اعينك مكتوبة على صفحة الزمن) - مجموعة حية لهذه الثلاثة الآتية : كل ما فعل ، وكل ما يفعل وكل ما سوف يفعل . فاعلم - علمت الخير - ان ذلك الكون الذي تراه انما هو فعلة - هو النتيجة والمظهر لقوة مبذولة . هو البحر العديم السواحل الذي من يناييه تنفجر القوة - والذي في عباب حومته تجيش وتموج القوة زخارة منسقة منتظمة فسيحة

كالانهاية عميقة كالأبدية - جميلة مخوفة حسناء روعاء غير مدركة
ولا مفهومة . - فهذا اللج الزاخر الذي لم يبرح يحبش ويرغى
ويزبد من وراء الافلاك ومن قبل بداية الزمن ولم يزل يموج من
حولك - بل أنت نفسك جزء منه في هذه النقطة من الفضاء
وفي هذه الدقيقة من الزمن - هذا هو ما يسميه الانسان «الكون»
و « الوجود »

«وكذلك الحياه البشرية وكل ما فيها لا يزال في حركة دائمة
وفي فعل وتفاعل متطوراً من حال الى حال ومن شكل الى شكل
بتأثير نوااميس نافذة محتومة - نحو غاية محدودة ونتيجة لازمة
ونحن بنى البشر - ألا ترى كيف نظل منغمسين مغمورين في
أعماق سريرة الزمن وفي ظلمات لغزد العويص - ولا جرم فنحن
أبناء الزمن وسلالته - ومن الزمن حيكت انسجتنا ودبغ اديتنا
وصيغت صورنا وأشكالنا . - وعلينا وعلى كل ما نملك أو نبصر
أو نفعل قد كتب الزمن شعاره وحكمه : لا قرار في موضع
ولا دوام على حال - سرالى غايتك . وامض قدماً الى قسمتك .»
أجل . لقد القت مصر على بريطانيا وقعياً وعملياً في الثلاثة
الاعوام الاخيرة ما كان القاه عليها كلاً ياً ونظرياً حكيماً الا عظم
توماس كارليل فى الجيل السالف . لقد أعدنا عليها ذلك الدرس .

العظيم بالأعمال الصارمة ذات الاثر والمفعول والنتائج الخطيرة
لقد أيقظناها الى الحقيقة المرة بثلاث صدمات شديدة كبحت
جماحها وكفكت غربها وألانت عريكتها حتى هياتها نهائياً الى
التأثر بسياسة ثروت باشا في مناوراته الاخيرة والى الاقتناع
بناصع حججه ودامغ براهينه والى الانقياد نوعاً ما في زمام مهارته
السياسية وبراعته المنطقية . أما هذه الصدمات الثلاث التي مهدت
طريق النجاح لثروت باشا فهي كما يعرف الجميع (١) قومة مصر
في وجه بريطانيا في مارس ١٩١٩ (٢) مقاطعة لجنة ملنر (٣) قطع
الوفد الرسمي الذي كان يرأسه دولة الوزير العظيم عدلي يكن باشا
للمفاوضات المصرية - الانكليزية ، وما أعقب ذلك من التثام
الصدع وائتلاف الشمل بين الاحزاب المصرية بعد طول تنابذ
وتنازع ثم انضمام الصفوف وقيام الامة قومة سامية باساليب
الدفاع السلبية . ولا ينس أحد أن صاحب الفضل الاعظم في
هذه الوثبة الثالثة والصدمة الاخيرة - (أشد الثلاث وقعاً وأبلغها
أثراً ومفعولاً) وأعظم مسبب لها - بل أساسها ومصدرها هو
ذلك الرجل الخطير والبطل الكبير صاحب الدولة عدلي
يكن باشا

وما ذا عسانا نقول في مدح ذلك البطل المجيد عدلي يكن

وأيّن تقع رائحات الحمد وغاديانه . وسابحات الثناء وسارياته . من
رفيع مقامه في ذروة المجد الشامخ . وذؤابة الحسب الباسق
الباذخ ! ما ذا عسانا نقول في رجل حملته الامة امانتها فأحسن
الحمل والاداء . وزجت به في حومة النضال عن حقوقها فاجاد
الذود وصدق البلاء . أولم يدفع عدلى بحر وجهه الكريم ما أرادت
بريطانيا أن ترمي به وجه الامة المصرية من آيات الخسف والهبوان
ممثلة في ذلك المشروع الذى رفضه هذا الهمام فكفى بذلك أمته
غضاضة مناقشة المشروع والنظر فيه ؟ أولم تبعث به مصر في تلك
المفاوضة نائباً عنها وممثلاً فكان خير عنوان على ما لها من نبيل
وكرم . وأنفة وشم . وشرف رفيع . وعز منيع ؟ أولم تكن طلعتة
الوضاعة البلجاء . وغرته الوضاحة الزهراء . صفحة صدق تتألق
بنور الامانة والاخلاص ويسطع في جنباتها رونق اليقين والايان
ويترقق ماء الحياة والعفة والنزاهة ؟ أولم يقرأ الانكليز انفسهم
في أسارى جبينه الأغر سطور الحزم . والعزم . والحلم والرق
والحكمة والحدق . والمضاء . والدهاء

ألم ينتشل عدلى باشا الشعب المصرى الكريم من وهدة
الضعف والفتور التى كان القاه فيها دعاة التخاذل والتواكل وبغاة
التفرقة والانقسام ؟ ألم يستنقذ عدلى باشا أمته المجيدة من حضيض

التواني والاسترخاء الذي كان اهيطة فيه تجار الفشل والهزيمة
ومروجو اشاعات السوء عن الوفد الرسمى الذي اثبتت ما اثره
وحسناته أنه كا كرم وانبل من انتدبت امة للمطالبة بحقوقها
والدفاع عن قضيتها . والذي سجل له التاريخ أشرف سور الفضل
واسنى آيات الوفاء فى امجد فصوله وانصع صحائفه؛ ألم يبيض عدلى
باشا وجه أمته بما احرز لها من النصر الباهر بموقف الشمم والاباء
والعزة والكبرياء . الذى وقفه ازاء خصمها الالد وقرنها العنيد ؛
ألم يفهم الانكلاز أن الذى يرفض مشروعاتهم بمنتهى الانفة والنخوة
والاباء هو الامة المصرية بأسرها ممثلة من شخصه الكرىم فى مرآتها
الحاكية . مجموع نزعاتها ورغباتها وامانيها وعواطفها - وفى لسان
حالمها الناطق باخفى ما يحنه ضميرها وادق ما يمكن فى خبايا
سريرتها؛ ألم يكن فى افهامه الانكلاز هذه الحقيقة وتقريرها فى
اذهانهم مارفع من مقام الامة المصرية فى عيونهم بعد ما اسقط
منه ظهورها فى انكر مظاهر التفرقة والانقسام - ألم يكن
فى مجيد عمله هذا ما اعاد الى قلوب الانكلاز تلك الهيبة والخشية
التي كانت اوجدتها ثمت الامة المصرية بفضل ما اظهرت فى بدء
حركتها من روح التضامن والاتحاد والتضافر؛ أوم يشرف عدلى
بوقفه العظيم وما اثرته الكبرى اتمته العزيزة ويعلى قدرها ويرفع

رأسها بين سائر شعوب العالم . ألم يقر عينها ويشرح صدرها ؟
ألم يبعث فيها نشوة العزة وحميا الزهو ويرنح اعطافها بهزة التيه
والخيلاء ؟ ألم يزودها في تلك الساعة العصيبة والازمة الكربة
والحنة النكراء . - في اظلم ادوار القضية واوعر مراحلها حين
خبت كواكب الامل ودجت غياهب التشاؤم - في تلك الآونة
الصعبة التي بدأنا بذكرها هذا الكتاب وسينها عقدة العقد
وعقبة العقبات - نقول في تلك الكربة الكربة والشدة الحازبة -
ألم يزود عدلى باشا . - من اسباب التأييد والتشجيع مما نفقه فيها
من روح الحمية والنخوة والعزة والاباء - باجمل السلوى وأحسن
العزاء عما رمتها به الافدار من كوارث الظلم والاستبداد ؟ -
وباقوى الوسائل لاستنهاض همتها واستثارة عزمها . لاستئناف
السعى في سبيل الجهاد ومواصلة السير الى غاية المأمول
والمراد !

وكذلك في سبيل الحق والحرية نفر عدلى يكن تلك
النفرة السماء وصاح تلك الصيحة التي صدم بهولها مسامع بريطانيا
صدمة ايقظتها ثالث مرة من غفلتها وفتحت عينها الى تلك الحقيقة
الكبرى وهي ان مصر - بالرغم مما اصابها مؤقثا من تخاذل ابنائها
وتناذهم - لا تزال مصر على نيل حقوقها المسلوبة مصممة جادة

معتزلة غير وانية ولا فائرة - وانها كغيرها من الشعوب الغربية
مندفعة بحكم السنن الكونية والنظم الطبيعية في سبيل النهوض
والتقدم لاخذ المسكان المقدر لها ازليا في مراقي الحياة ؟

كذلك في سبيل الحق والحرية صاح عدلى يكن صيحته
التي استرعى بها مسامع أمته وأيقظها من غمرة التشاحن والتطاحن
الى تلك الحقيقة الكبرى : ومعنى ان كل نزاع بين أبناء الامة
هو غرم عليها مغرم للاخصم الذي يراه خير فرصة لاضعافها
ونهبك قواها بتوسيع الخرق بينها وهدم كيانه وحدتها وتمزيق
صفوفها ورد سهامها الموجهة الى شخصه في نحرها هي . وتحويل
مجهوداتها المبذولة ضده في مصلحتها ضد نفسها بالضرر الجسيم
عليها . أجل لقد نبه عدلى بصيحته الشديدة أمتة العزيزة الى كل
هذا وأكثر . فجمع بذلك كلماتها وألف شملها ورأب صدعها وشد
أزرها . وراش نهضتها جناحا من همته الخيثة بعد ماهاض النزاع
الحزبي جناحها . وخفزها بريح عزمته الشديدة بعد ما أركد
الشقاق الداخلي رياحها . وأنسها بقوة روحه العظيمة في وحشة
تلك الترهات السياسية اختالة بسراب الغرور والخديعة . وعزاها
عن خيبة آمالها في وفاء بريطانيا وحسن نيتها .

كل هذا صنعه لامتة عدلى يكن ذلك البطل القوي الذي

لن يجد التاريخ بداً من أن يسجل له هذا الفضل على بلاده - ولا
من وضعه في مصاف الأبطال منقذي شعوبهم ومحرري أوطانهم
- أمثال شمشون إلا أنهم تغلبوا على دليمة « الختل والخديعة » فلم
تستطع قهرهم واذلالهم .

كل هذا صنعه عدلى لامته . ولا عجب فانه عظيم وبقوة
الرجل العظيم وحوله تدعم أرض الله وتوطد أركانها . وبهمة الرجل
العظيم ونجدته يثل عرش الظلم ويشاد صرح العدالة وينجاب
غييب الباطل ويسطع نور الحق . وبمكارم خيمه ومحامد شيمه
ترق حاشية الزمان ويخضر عوده ويورق . ويخضل روضه بندى
الخير ويترقق . ويشرق صحوه بسنا الصفاء ويتألق . حياك الله
عدلى يكن ! لقد طاب في كنفك العيش واحلولى . وافتر عنك
مبسم الدهر وتاللا . وقد حسنت بك الدنيا وملحت . وتأرجت
بعبير ذكرك ونفحت . وقد شربنا بك ماء الحياة كوئرا . ونشقنا
نسيمها عنبرا . وانتجعنا غيثها شجاجة . وتوسدنا جناها أنيق الروض
مبهاجا . فجزاك الله أحسن الجزاء عن أربعة عشر مليوناً من عباده
رفعت بالمرز هامهم . وثبت في مدحضة المعترك العنيف أقدامهم .
وطهرت صحيفة أعراضهم من كل شائبة ووصمة . وتقيت أديم
أحسابهم من كل ريبة وتهمة . وبعد فان ماأثرتك هذه الجلى التي

حاولنا عبنا توفيتها حقها من الحمد والشكر ليست لعمرك أخرى
ما ترك . ولن تكون بحال ما خاتمة مساعيك ومفاخرك . يا بني
لك ذلك فرط حبك لبلاك وعطفك وحنانك على أبنائها
الذين هم أبنائك البررة وصدق وطنيتك العميقة . وحميتك العريقة .
وشدة اخلاصك لوطنك وتفانيك في خدمته والتذاذك بتضحية
الاعز والانس في سبيله . وارتياحك الى ركوب الصعاب .
واقترحام العقاب . واعتساف الاوعار . ومغامسة الاهوال
والاخطار . من أجل الدفاع عنه وصيانة حوزته . وحماية بيضته .
نقول لم تنته بعد مساعيك في صالح البلاد ولم تترك المسرح لغير
رجعة معاذ الله أن يكون ذلك ومعاذ همتك البعيدة . وشيمنتك
المجيدة . وحاشا لعزتك السماء . وحميتك الذكية الروعاء . أن ترى
على سكونك هذا إلا خفاق الجوانح على وطنك راجف الاحشاء .
فما كانت روحك الكبيرة السامية . ونفسك الجياشة المتوقدة
لتسكن في هذه الآونة الا تأهباً للحركة وتحفزاً للوثوب .
وانكماشاً للسكرة الى الميدان متى أهابت بك النوب والخطوب .
بل أراك في عزلتك الراهنة لا تزال ينبوع أمل وقوة لمواطنيك
تنفث فيهم روح اليقين والثقة والرجاء . كانك زورق النجاة لا يبرح
باعثاً يرد الطمانينة في ركب السفينة معهما طغى الموج من حولهم

واصطخبت الانواء .

هذه كلمة حق . ونفثة صدق . ارفعها اليك يا صاحب الدولة
في عزلتك السياسية أعبر بها عما يضره لك ويعلنه من آيات الحب
والولاء أهل وطنك أجمعين الذين لم يبق فيهم - بعد موقفك
المشهور ومقام دفاعك المأثور . في قضيتهم المقدسة - غامط لحقك
العظيم . منكر لفضلك العميم . ألا جاحد عريق في الجحود .
يحمل مكان قلبه أصم جامود . سقيم الطبع مريض الذوق ينكر
من علة ضوء الصباح . ومن آفة حلاوة العذب القراح . وما
أحسب أن مثل هذا المخلوق يوجد بين مجموع الشعب حماء الله
من أمثاله . وصان أديمه النقى من وصمة خلاله . وما أراني بهد
يا صاحب الدولة قادراً على الوفاء لك بواجب الشكر . وليس يفي
لك بهذا إلا صلوات المليك في السور .

نرجع الي ما كنا فيه من أمر انقسام الامة في الرأي والمذهب
الي قسمين أراء تصریح انك انك انك العظيم الشأن بالغاء الحماية والاعتراف
لمصر باستقلالها التام وأن تكون ذات سيادة في الداخل وفي
الخارج وذات برلمان ووزارة مسئولة أمام البرلمان . وحصص
الخلاف بين المماكتين في النقط الأربع المعروفة واعطاء الحق
لمصر في بدءها مفاوضات مستقبلية تدخل فيها مع انك انك مزودة

بسلح الاستقلال مطلقة من قيد الحماية لكي تسوي مع بريطانيا
في تلك المفاوضات المقبلة قضية بلادها التسوية التامة - وكل هذه
المغانم والارباح والمزايا نالتها مصر دون أن تدفع فيها ثمنًا من تقيد
أو تعهد أيًا كان .

نقول أزاء هذا الحادث الجليل انقسمت الامة من حيث
الرأى والمذهب الى فريقين - فريق التيمن والتفاؤل وفريق التطير
والتشاؤم وقد ذكرنا أن هذا الاخير قد بنى تشاؤمه على مايزعمه
من سوء عقيدته في بريطانيا وجرأتها على خفر الذم ونقض
المهود واخلاف المهود . وقد حاولنا في الصفحات السابقة أن
نثبت لهذا الفريق أن انكلترا اليوم هي غير انكلترا الأمس
وأن تعدد الثورات والاضطرابات أثناء السنوات الاخيرة في
ولاياتها ومستعمراتها قد اثبت لها بأنصع البراهين والأدلة . ان
الامم والشعوب ليست أشباحا ولا تماثيل تقتصر فيها كيفما
شاعت وشاء لها روح الاستبداد والمطامع الاستعمارية ولكنها
نفوس وأرواح كاخواتها ساكنات البلدان الغربية والممالك
الاوربية - مستمدة مثلها من روح الله وينبوع القوة الأزلية -
وانها بذور الله قد غرسها في أرضه منطوية على جوهر الحياة
وعناصر النمو والتفرع والسمو في جو الله الى حيث تنسم في

الفضاء الرحب أنفاس الله اعنى نسمات الحرية والاستقلال وانها
- كسائر البذور والاعراس - لا بد أن تزكو وتكبر وتبلغ
غاية نضجها وتسمو الى درجة الارتفاع المقدرة لها اذلياً بسنة
الطبيعة السارية وحكمها النافذ وبحكم ما انطوت عليه من عوامل
الانبات والنمو والارتفاع وعلى حسب نصيبها من تلك العوامل -
اجل لا بد لها باعتبارها بذوراً أغرست في أرض الله أن تنمو وتسموا
أو تذبل وتعفن لنستأصل أو تنشر من اجداثها وتعود الى حياة
ثانية وسيرة جديدة - على حسب ما يمكن فيها من عناصر القوة
أو الضعف ومن عوامل الرقي أو الانحطاط - هذا أو ذاك لا بد
أن تفعله تلك البذور والاعراس (أو تلك الامم والشعوب)
بحكم النواميس الزمنية والقوانين الكونية سواء أرادت بريطانيا
أو لم ترد . وسواء سرها ذلك أو ساءها - هذه ارادة الطبيعة
الى تأبى الا تنفيذ ارادتها احبت بريطانيا أو كرهت ورضيت
بريطانيا أو رفضت ، كأنما بريطانيا - باساطيلها ومدافعها وورشها
ومعاملها وولاياتها ومستعمراتها - شىء تافه حقير في نظر الطبيعة
أو كأنها ليست موجودة ولم توجد ولم تكن

حاولنا في الصفحات السابقة أن نثبت لفريق التطير والتشاؤم

المعدوم الثقة في بريطانيا المملوء رعباً ووجلاً من ألعابها

وخذعها - ان بريطانيا قد آمنت بحقيقة تطور الامم الشرقية
وصدق نيتها على المضاء في سبيل الجهاد لاحراز حقوقها المسلوبة
مهما كلفها ذلك - حاولنا أن نثبت لهذا الفريق ان الحرب الكبرى
قد خلقت في العالم جواً اجتماعياً جديداً مملوءاً بعوامل جديدة
كان من شأنها أن أبرزت في سطور من النور والنار تلك
المبادئ التي حسبها العالم جديدة وانها لقديمة قدم الدهر والطبيعة
ذاتها والتي كان قد حجب سطورها كثيراً أو قليلاً ما كان قد
ركبها من غبار الفتور والتواني وحب الدعة والراحة والتراخي
- أعنى تلك المبادئ التي راجت وسادت بعد الهدنة كالقول بتحرير
الشعوب وتفويض الامم في حكم ذاتها وتقرير مصيرها
حاولنا أن نثبت لهذا الفريق ان الحرب الكبرى خلقت
هذا الجو الجديد المملوء بهذه المبادئ الجديدة القديمة - وأن
هذا الجو وهذه المبادئ قد نبهت من همم الامم والشعوب
المظلومة وشجذت من عزيماتها واستحثت ما يكمن فيها من حركة
التطور الطبيعي والنمو الغريزي . فكان ما كان مما شاهدته العالم
وأربك بريطانيا وأزعج خاطرها من تلك الثورات والاضطرابات
في ولاياتها ومستعمراتها وتوابعها المختلفة

حاولنا أن نثبت لهذا الفريق انا - كـ بعض تلك الشعوب
التي هبت في وجه بريطانيا تطالبها برد حقوقها المسلوبة - قد صد منا
بريطانيا ثلاث صدمات عنيفة : « حركة عام ١٩١٩ » و « مقاطعة
لجنة ملنر » و « قطع الوفد الرسمي المفاوضات » ايقظنا بها
بريطانيا من غفلتها أو تغافلها وزعزعنا بها أساس طمأنيتها
وهدوئها وارجفنا بها قلبها وبدلناها بالامن حذراً وبالاستهانة
استعظاماً وبالوقار خفة وبالاتمئنان وجلاً

وبذلك استطعنا أن نثبت لهذا الفريق ان انكلترة اليوم ليست
انكلترة الامس . وانه باعتبارها أمة تفهم وتعقل وتعرف الخير
من الشر والتمر من الجمر وتشارك سائر خلق الله حتى الاطفال
والحيوانات في الغريزة المشتركة فيها كل الاخلاق والتي عليها مدار
الحياة ونظام الكون والتي لولاها ما حملت قدم جسم ولا احتوى
جسم روحاً - أعني غريزة النفور من الأذى والهروب منه الى
الخير - نقول انه باعتبار بريطانيا هكذا وبالنظر اليها في هذه
الصورة الطبيعية الحقيقية بالعين المجردة عن الاهواء المتتبعة
مهابط الحق ومواقع آثاره أين كان وكيفما كان - لا يسعنا الا أن
نراها قد غيرت من سياستها وبدلت من خطتها - وانها قد
وقفت اليوم لنا موقفاً خلاف موقفها بالامس (لا يمكن

أن يكون أسوأ من الموقف السالف بل أحسن بلا نزاع
وأفضل) - ولما كنا نحن المصريين الذين استطعنا بقوتنا وحكمتنا
أن نغير موقف بريطانيا معنا ونحوه عن حالة إلى أحسن منها -
ولو قليلاً - فليس يستحيل علينا ولا يتعذر ولا يبعد بفضل
اتحادنا وتضافرنا على الجهاد المستمر الدائب أن نزرحها شيئاً
فشيئاً إلى مواقف أخرى أحسن لنا فأحسن - حتى نقفها أخيراً
عند حدها وتقييمها في مشعب الحق ومتطع السداد والصواب
ومفصل الانصاف والعدالة. وحيث نبلغ المراد وننال الغاية
على أننا لو سامنا جدلاً بوجوب اساءة النية ببريطانيا فأي
ضرر علينا في قبول « اعلان الغاء الحماية والاعتراف بالاستقلال
التمام » - في قبول منحة الله لنا - بل منحة كدنا واجتهادنا وثمره
ما بذرناه في مزرعة الجهاد من بذور هي عرق جباهنا ودفع
دمائنا وافلاذ اكبادنا - أي ضرر علينا في قبول هذه الهبة
الالهية والانتفاع بها جهد طاقتنا وبقدر ما فيها من خير وبركة -
أي ضرر علينا في اتخاذها عماداً لنا ودرعاً وسلاحاً نضيفه إلى
ما لدينا من الاسلحة ليكون ذلك أقوى لنا على مناهضة الخصم
ومغالبته

أليس الأجدد بنا والأضمن لخيرنا وفلاحنا أن ننظر إلى
هذا الاستقلال في أول ادواره كبا كورة أعمالنا المجيدة وبادرة
مجهوداتنا الشديدة . وانه مولود نهضتنا العظيمة الذي ما برح
يتكون في أحشائها أزمان الحمل العسيرة - وانه نتاج وطنيتنا
المقدسة التي جعلت تتمخض عنه تمخض البحر عن دره ومرجانه
والكنز عن تهره وعقيانه . حتى اذا التقى به الحظ في حجبورنا
ذخراً نفيساً وثمره مباركة كان من اوجب الواجب علينا أن
نبتهل لله شكراً ونرحب به ونهمل تحية لطلعته واستبشاراً
بفرته قائلين مع الشاعر

يمر الله طلعة المولود وحباً أهله بطول السعود
ما لنا لا نطرب ونفرح بهذا المولود الجديد . ما لنا لا نحمد
الله عليه ونحوطه بالنفوس والنفائس . ثم نعمل على تربيته وانماؤه .
وترقيته واعلاؤه . حتى يبلغ أشده . ويستكمل قوته وأيده
هذا الاستقلال الوليد انما هو جذوة مقدسة اقتدحتها يد
الشعب بزناد الكد والجهاد . واستشارتهم معاول الكفاح والجلاد
من صخرة الجبروت والاستبداد . فما لنا لا نحوط هذه الجذوة
المقدسة وما لنا لا نشبهها ونذكىها بأنفاس هممنا الصادقة
ورياح عزماتنا الثاقبة حتى يتلهب سناها ويسطع شعاعها فيخرج

البلاد واهلها من ظلمة الرق الى ضياء الحرية
ان استقلالنا في هذا الدور الاول ليس سوى هلال الحرية
في اولى منازلها . فمالنا لانتظر به النمو والزيادة ومالنا لانرغب
له الكمال والتمام . ومالنا لانتقول مع الشاعر
مثل الهلال بدا فلم يبرح به
صوغ الليالى فيه حتى اقرا

ومع الآخر

ان الهلال اذا رأيت نموه

ايقنت ان سيكون بدرًا كاملا

وهبونا لم ندرك الغاية . افلم نضع اقدامنا على فاتحة السبيل
المؤدية بالمناصرة والمصابرة الى الغاية ؟ ألم نملك اليوم فوهة المسلك
الواضح المستضيء بعد طول تخبط في الاوعار والدياجي ؟ ألم يعثر
الفريق بين طفوه في غمرة الكرب ورسوبه على لوح النجاة -
ولو ضعيفا - وعلى عود السلامة - ولو ضئيلا ؟ ألم تخرج السفينة
من منطقة الخوف والخطر وان لم يزل بينها وبين الساحل
عباب وغمار يحتاج خوضها واقتحامها الى احتمال المشاق والمتاعب ؟
يقول الفريق المتشائم ان بريطانيا تضمر لنا في سريرتها
خفيا . وتكن لنا دفاتن وخبايا . فهب ذلك من الجائز فلماذا

لا ننتفع بالثمرة الواقعة ثم نحذر المصرة المتوقعة؟ وهل يجوز في عقل ان ترفض الوردية من يد مهديها مخافة ان يهديك الشوكة يوم ما؟ او ترد الكاس الروية الى كف مديرها وساقها خشية ان يدير عليك فيما بعد حنطالا وعلقا؟ اليس قياسا على هذا يحق لنا ان نرفض سواكب الغيث من السماء لما يتحمل من ارسالها للصواعق علينا يوما ما؟ وان نغض ابصارنا في وجه الافق رافضين اشعة الشمس الضاحكة لما يتوقع يوما ما من عبوسه لنا بظلمة الضباب والغيمة؟ فماذا تكون حال ابناء البشر اذا ساد في الأرض هذا المذهب وتغلبت هذه الشريعة؟ وأي حياة يحيمون وكيف تدار دواليب الاعمال . وكيف يتقدم ركب الانسانية في سبيل الرقي الى امد الكمال ؟

هبونا لم ندرك الغاية فأى الحالتين اشرف واعمجد؟ وأي الموقفين اقوى وامنع وأي المركزين ادنى من امل واكفل بنجاح - دخولنا المفاوضات الآتية احرارا مستقلين أم دخولنا اياها تحت نير الحكم الاجنبى وفي قيود الحماية؟ - أي الامرين افضل؟ ذهابنا للتفاوض مطلعين من هذه الاغلال مزودين بسلاح الاستقلال (ولو مثلوا مفلولا) أم ذهابنا عزلا من السلاح كشفاً من الدروع مكتوفين باصفاد الحماية؟ ثم ماذا نرمن بعد وماذا نخسرنا؟

وماذا اضعنا بقبولنا ما نزلت عنه انكنا ترا وما صرحت به من هذا
الألماء وهذا الاعتراف ؟ هل بذلنا في سبيل ذلك شيئاً من
حقوقنا أو تخلينا عن شيء من مطالبنا ؟ هل اعطينا بريطانيا في
مقابل هذا العربون الجسيم ثمناً ؟ هل سمحنا لها ان تأخذ علمينا اذنى
تعهد أو تقييد ؟ كلنا يعرف الجواب على ذلك - كلا !

وبعد فهل نسيتم أو غاب عنكم ان ما تحقرونه اليوم بل تنقمون
عليه من ذلك التصريح المتضمن الغاء الحماية والاعتراف بالاستقلال
قد كان يوماً ما أقصى ما تطمح اليه انظاركم يوم كان الوفد المصرى
لا يتمنى على بريطانيا - عند بدء دخوله المفاوضات معها - امنية
اجل واعظم من مجرد اعطائها اياه وعدا بان يكون الغاء الحماية
ضمن ما تعترف به لمصر اثناء المفاوضات . فى ذلك اليوم (وليس
العهد ببعيد) لم يكن الوفد المصرى ولا أي مصري كائنا من كان
يحلم أن فى استطاعة الافدار ان تستخلص من بريطانيا العظمى
غنيمة « الغاء الحماية والاعتراف بالاستقلال » مبدئياً وقبل
التفاوض كعربون بلا ثمن وكأداة تمهيد وتوطئة للمفاوضات
المقبلة .

انسيتم يوم كنا نشرب باعناقنا التى قطعها الظمأ ونتناول
بابصارنا التى ارمدها السهاد اذ نحن فى مضال الحيرة وقفار اليأس

— الى ذلك المنهل العذب — منهل الحرية — الذى كان ممنوعاً منا
باسوار الحماية المسلحة واسلاكها الشائكة — وقد اذبل العطش
اسلات السنتنا — يوم كنا نتوق ونتلهف على رشفة من زلال ذاك
المنهل الشبم — أم نسيتم ونحن فى دياجير القنوط كيف كنا نتشوف
الى شعاع من ذلك السراج المنير — سراج الحرية الذى كان يطمس
سناء ضباب الحماية وادجانها المترامية الكثيفة — فها نحن اولاء نسير
فى وضوح السراج المنير . وننقع الغليل بماء الحرية المنير . فمامعنى
هذا التسخيط والتدمير . وماذا تريدون بهذا التأفف والتضجر ؟
وما هذا القال والقليل ؟ والصراخ والعويل ؟ والتغريب بآبناء البلاد
والتضليل ؟

نخبرونا — بعيشكم — ماذا كنتم فاعلين لو أن هذا التصريح العظيم
« بالغاء الحماية والاعتراف بالاستقلال » جاءكم فى ظروف أخرى
وعلى أيدي آخرين (يوم كنتم لا تحدثون به أنفسكم ولا فى
الاحلام — يوم كنتم تعدون ما هو دونه بكثير منة عظمي ونعمة
جلى — يوم كانت أقصى أمانيتكم أن يكون هذا الالغاء وعداً
موعوداً لا ثمرة حاصلة) — ماذا كنتم فاعلين اذ ذاك ؟ أهناك
أدنى شك فى أنكم كنتم تملأون الارض والسماء تكبيراً وتهليلاً
ونشيداً وترتيلاً . وتحرقون البخور فى المجامر اقامة لشعائر

التقديس الذين ساقوا اليكم المغنم العظيم . وتأدية لمناسك العبادة
للآلهة الذين غمروكم بالفيض العميم . أما كنتم تقيمون الصلوات
في المحراب . لا أولئك الارباب . أما كنتم تهزون أعواد المنابر .
اعلاناً لمفاخر أولئك الاكابر . اما كنتم تنحرون النحائر .
وتدقون البشائر . وتوقدون الشموع . وتزينون الربوع . أما
كنتم تقطعون الحناجر وتمزقون الرثات بالهتاف حتي تصبحون
خرساً . لا تطيقون الكلام الا همساً ونبساً . أما كنتم تمثلون
في عرصات القاهرة رواية البعث والنشور اذ تحشرون قبائل
وشعوباً في صعيد واحد متزاحمين متدافعين متكديسين اكداًساً
مشتبكة متلاحمة - جبلا هائلاً من الانسانية الهائجة المائجة وصرحا
ممرداً من الجماجم ليس فيه أدنى ثلمة ولا فرجة

فلو حصبتكم بالسما سحابة

لظل عليكم حصبها يتدحرج

ثم تخلعون كل عذار وتندفعون في كل تيار مطلق طوفان
الغرائز الحيوانية من محابس التؤدة والرزانة . مرسلي سيول
النزعات الشهوانية من قيود الورع والرصانة . سامحين لعنصر
التراب والجمأ المسنون فيكم أن يتغلب على عنصر الروح الآلهي
والنور السماوي — كأنكم كتلة جسيمة من الفوضى يظل من

يبصر فرط اضطرابها وتشوشها واختلاطها لا يكاد يصدق أن
في استطاعة القدرة التي خلقت نظام العالم العجيب من عالم السديم
المشوش أن ترد هذا البركان المتطاير اللحم والشظايا وهذه الزوبعة
المستطيرة الشرر والصواعق وهذا الزلزال البادى فى أشنع صور
التخريب الذهني والتدمير الروحاني - الى سيرته الاولى من الحياة
المهذبة المنظمة وصورته المعهودة من مظاهر الانسانية المهذبة .
وبالاختصار اما كنتم تجدون عهد ذلك اليوم المعروف
٥ ابريل ١٩٢١ الذي يسجل على ترمومتر الحياة الاجتماعية أعلى
درجة لحيوانية الانسان وأخفض درجة لروحانيته ويقدم
أصدق مثل تاريخي على تأصل طباع آباء البشر ساكني الكهوف
وقانصي الوحش في نفوس ابنائهم مهما قدم العهد وتطول
الأمم .

اجل لقد كنتم تفعلون ذلك وفوق ذلك لو أن غنيمة هذا
التصريح بالغاء الحماية والاعتراف بالاستقلال التام جاتكم في ظروف
أخرى وعلى أيدي آخرين . فما بالكم اليوم لا تصنعون عشره مشار
ما كنتم صانعيه اذ ذاك ؟ بل ما بالكم لا تكتفون بمجرد اظهار
الارتياح والانسراح . بل بمجرد السكنينة والثبات . بل بلزوم
سنة الصبر الجميل حتى تروا عواقب هذه البوادر ونتائج هذه

البشائر . فان لم يكن هذا ولا ذاك فاما مكم مجال المعارضة الشريفة
في صفاء جواهر الهدوء والحلم اللذين تقتضيهما سنن الجدال وقوانين
المناقشة - راثنين بنفوسكم عن مواقف التغرير بالشعب والتضليل
وعن خبث مواطن الارجاف والتهويل وعن سفال مساف التشنيع
بالوزارة الدستورية الساعية الى خير الامة الممثلة لآمانها الباذلة
اقصى الجهد في تنفيذ رغابتها - وعن خسة مها بطال انتقاص منها والنيل
من كرامتها وتوجيه كاذب التهم نحوها وترويج سوء الظن بها مما
يفسد اذهان الشعب الذي تدعون انكم قادته وابطاله الذائدون
عن حياضه ويسمم عقيدته ويضل رأيه ويطمس على نور بصيرته .
مابالكم تحاولون باخذ جذوات الأمل في النفوس وابدالها ظلمة
الياس تثبيط الحزم وفل العزائم واقعاد الامة عن مواصلة السعي
في سبيل الجهاد أو تحويل ذلك السعي في شر السبل واشدها
وبالا - اعنى سبيل المشاحنات الحزبية والمطاحنات الفرقية
وتقاطع الارحام والصلات . وتدابر الخلفان والثقات - ذلك
السبيل الذي طالما اغريتم الناس بسلوكه فلم تجدوه يؤدي
بقضية البلاد الا الى شر غايات الفشل واحرج مضايق
الكرب وأوخم مراتع الخيبة كما قد شاهدتم أن نذير الخطر
كلما كان يصيح بالشعب محذراً الاسترسال في ذلك

السبيل سبيل التناوب الممقوت والامعان في شعابه
داعياً الى الرجعة لسبيل التضامن والاتحاد فيطيعه الشعب
جامعاً كلمته حاشداً صفوفه - ادبر الشر والطلاح . واقبل الخير
والفلاح . وابرمت روح الاتحاد من أسباب القضية ما كانت
آفة التفرقة قد نكثت ونقضت . ووثقت عزة التضافر من
أركانها ما كانت ذلة التخاذل قد هدمت وقوضت . فأشرق نجمها
بعد افول . وأورق عودها بعد ذبول . تقول لقد جربتم هذا
وذاك ولقيتم من الخطتين النعمة والمصاب . وذقم من الكاسين
الشهد والصاب . فهل انتفعتم بتجارب الزمن . وحنكتكم
تقلبات الدهر بين نعم ومحن . وهل فقهتم الصروف . وفطنتم
تلونات الظروف . وهل سبكتكم نيران الكوارث في بوتقة
التمحيص والتهذيب . وقومتمكم أيدي الحوادث بثقاف الاصلاح
والتأديب . أم وجدتم هذه القوى والعوامل بمنعزل عن ندائها
وبمنقطع عن صوت دعائها . فكانت انما تحاول في هدايتكم
تحريك الجبال . وتسكين الزلازل . . وضبط هوجاء الرياح . .
واسكات العارض السحاح . وكأن موقع وحيها وتعاليمها من قلوبكم
موقع الرق على صفحة الماء . والنقش في أديم الهواء . وكذلك لم
تجد هذه المؤدبات الالهية . والمهذبات الطبيعية . من بينكم الا

كل نافر شرود

جامع في العنان لا يسمع الزج ر ولا يرعوى الى الرواض
فلاى قوة في الكون يرضخ من أبى الرضوخ لاستاذ
التجربة ولاى ارشاد ينصت من لم يصغ الى وحي العواقب .
وأى درس يحفظ من أهمل درس الاسباب والنتائج . ولاى
صوت يأذن من أغلق سمعه دون صوت الطبيعة . وبأى مصباح
يسترشد من أنغمض طرفه عن سراج الحق . وبأى شئ فى هذا
الوجود يصدق ويؤمن من خادع نفسه وغالط ذهنه فى الواقع
المحسوس والحقائق الملموسة ؟

وأى انكار للحاصل والواقع أشد من انكاركم لتلك الحقيقة
الكبرى التى أصبح يبصرها الضير ويسمع وقع آثاها الاصم
ويكاد يتحرك لها رفات الاموات فى قبورها - تلك الحقيقة التى
بتنا نتقلب فى مضاجع راحتها وبين اعطاف نعمائها ونجنى باكورة
ثمارها يانعة جنية : من تحكم فى امورنا وتصرف فى ادارة شؤوننا
وقبض على ازمة السلطة فى حكومة بلادنا وتأسيس برلمان
كأرقى برلمانات العالم دستورية واحسنها نظاما ووزارة مسؤولة
أمام ذلك البرلمان قد قام رئيسها الجليل ثروت باشا يبرهن للناس
على حسن نيتهما ويقدم لهم أمثلة صادقة من مبدأ مسؤوليتها بما

قد جعل يلقيه علي الملاء مرة بعد أخرى من خطبه الرائعة المملوءة
بروح الديموقراطية مما لم تهده البلاد قبل اليوم من أي وزارة
قامت بين ربوعها أو رئيس تقلد زمام الحكم فيها . ثم بتنفيذ
نصوص هذه الخطب بالاعمال الجليلة والنتائج العملية .

أي انكار للواقع المأموس أشد من انكاركم الغاء الحماية بعد
ما أعلنت ذلك بريطانيا وصادق عليه برلمانها وكساه الصورة
الشرعية والضيغة الرسمية وبعد ما أمنت عليه دول العالم وهملت
له وصاحت وتواردت به التهاني تطير بأجنحة البريد وتهفو على
ساريات البرق . بل كادت تشترك في اعلانه الطبيعة ذاتها
فتهامس بنجواه الرياح . ويفضي يبشراد المساء للصباح . فتقولون
بعد كل هذا انه ما حدث حادث ولا تغيرت حال . وانه

تخرص وأحاديث ملفقة ليست بنبع اذعدت ولا غرب
تقولون ان هي الا اسماء سميتموها . ورنين الفاظ زينتموها
كلام في كلام . وأصغاث أحلام . ورماد يذر في الاجفان . وتخدير
أعصاب وأبدان . فبحقكم هل كنتم قائلين ذلك لو سيق اليكم
هذا الرج العظيم على أيدي آخرين أم أنتم لا تعترفون بالفضل
ومقداره الا اذا انحدر اليكم من طريق مخصوص محبب اليكم
ولا تتحدثون بالنعمة الا اذا جاءكم في غلاف معين مبصومة

بمارة معينة لفابريقة معينة لا تعرفون غيرها ولا تعرفون بسواها
ولا تؤمنون الا بها ولا تأخذون الا مصنوعاتا - ثم المقاطعة
التامة والويل والعفاء على البضاعة بعينها اذا صدرت عن فابريقة
أخرى تحمل مارة أخرى - فأنتم انما تعنون بالواسطة لا بالنتيجة
وكل ما يهكم هو الزى لا الكائن الحى المشتمل به واوعاء لا المتاع
المنطوى تحته ومن كان هذا شأنه متعلقاً بالأعراض دون الجواهر.
منصرفاً عن مادة الحقائق الى هباء المظاهر . كان يعيش فى عالم من
الخيالات والاحلام . ويتقلب فى جو من الاكاذيب والاهام .
وان تشأ فقل عنه ولا حرج انه لا يحى ولا يعيش ولا يكون ولم يكن .
ليت شعرى ماذا نقول للذين يستقبلون نعمة الله بالسيخط
والنقمة ويتلقون فضله العظيم بالاستياء والاسف . ليت شعرى
ماذا نقول للذين يلقون وجوه اليمن الضاحكة بوجوه مربعة
عابسة . وينفرون من عرائس النعم المزفوفة عليهم باعطاف
شامسة . أفلا نقول ان الطبائع البشرية قد انعكست فيهم فدواعى
السرور تشجوههم . وبشائر الصفو تشجيهم . وانبساط الامل
يورثهم انقباض الياس . وأسباب الطمانينة تثير فيهم هواجس
الوسواس . فأى فائدة ترجى من أمثال هؤلاء لصالح العالم
عامة ولمنفعة أوطانهم خاصة أى فائدة ترجى منكم يامن هذا

دأبهم وديدنهم سوى انكم تعملون على امانة الامل وتقض
العزائم ونكث الهمم . تكذبون الصفو . وتعكرون الصحو .
وتجعدون السلس . وتحشنون الاملس . وتوعرون السهل .
وتعقدون المنحل . وتشرون على رونق الاملاني المشرقة غبار الضجر
والتبرم . وتعقدون دون كواكب الرجاء غيوم التطير والتشاؤم .
لا تنفكون تقيمون مناخة جديّة . على مصائب وهمية . ثم تجعلون
تشاؤمكم هذا دليلاً قاطعاً على صدق وطنيتكم . وتسمون انكاركم
للوّاقع المحسوس واقامتكم العقبات في سبيل تقدم البلاد الى غايتها
المنشودة عنواناً على فرط اخلاصكم وبشدة تفانيكم في خدمة القضية .
نخبروني بربكم أهو الاخلاص والتفاني الباعث الحقيقي الذي
يدفعكم الى اتيان ما تأتون من المعارضة في الواضح المستنير . والمكابرة
في انكار ما يراه الاكمه والبصير . وهل حقاً تعتقدون في صميم
افئدتكم انكم أنتم وحدكم المخلصون وان فريق التيمز والاستبشار
هم المنافقون ؟ وهل حقاً في صدوركم وحدها يتأجج اهيب الوطنية
وعلى قلوبكم دون غيرها يتنزل وحي الوطنية وهل الوطنية لم تضرب
في غير ضمايركم قبابها . ولم تتخذ في سوى جوانحك منسكها
ومحرابها . ولم تقم خلافتكم مداره يدافعون عن قضيتها . ولم تجند
غيركم عسكرياً يذودون عن حوزتها . وهل هي لم تتمتعش سواكم

ولم يهتم قلبها الا بكم . وهل كل من عداكم خونة غدرة . وخفة كفرة
وهل انساكم حب الوطنية اغراضكم الذاتية وما آربكم
الشخصية واذهاكم عن طلب الجاه والمنصب والرياسة والهالك
عن الولوع بمظاهر الابهة والفخامة والزعامة وهل صرفكم
الشغف بالوطنية عن الشغف بهتاف الناس لكم في كل شبر من
الأرض والمناداة بأحيائكم وتخليد ذواتكم السامية العلية .
في هذه الدنيا الفانية الدنية وباسقاط اضدادكم وبعوتهم وتكفينهم
ودفعهم

واذا كان ذلك كذلك فهل من حق الوطنية عليكم ان
تخذلوها في ادق ساعاتها واشد ازوماتها بمحاولتكم صدع الشمل
وهدم البناء وتمزيق الوحدة وتفريق الكلمة بطامس معالم الحق
الاباح . وترويج الباطل الاجاج . واقاماد الهمم والعزائم من مواصلة
السعي الى الغاية المقصودة وصرف الامة عن الاخذ بالمعروة
الوثقى وانتهاج الخطئة المثلى والانتفاع بما ساقه اليها الحظ من
الارباح والغانم واستثمار ما تنازل عنه الخصم لمصلحتها من الفوائد
والمزايا وعن مضاعفة حولها وقرتها باستخدام ذلك السلاح القوى
الذى استفادته أخيراً بفضل مساعي الوزير الكبير ثروت باشا

— سلاح الاستقلال الشرعى التام — الذى أصبحنا اليوم نجتنى باكورة
ثمارة؟ امن حق الوطنية عليكم ان تصنعوا هذه الهبات وما هي
الاسهام تصمون بها كبد القضية المقدسة ومدى تمزقون بها اديهما
ومعاول تهدمون بها كيانهما . أم هل نسيتم — وليس العهد ببعيد
— يوم خذلتموها وهي ملقاة فى قسطاس المفاوضات الرسمية اذ كانت
تبتهل اليكم أن تلتفوا حوايا وتشدوا أزرها ليكون من جماعتكم
محتشدة ومن كتلتكم مندجة خير قوة ترجع بكفتها فى الميزان
فتشيل كفة الخصوم وتنال هي الظفر والنصر بهمكم وعلى أيديكم .
فهل أعنتموها ونصرتموها وأجبت دعاءها وليتم نداءها ؟
أفبعد هذا كله تدعون انكم أنتم وحدكم الوطنيون ومن
سواكم غدرة منافقون . وان الوطنية قد خصت بكم وحسبت
عليكم ووقفت حيث أنتم فالها عنكم متقدم ولا متأخر ؟
هذا صنف جديد من الوطنية ونوع غريب لالعهد للناس به
قبل ظهوره منكم قد سبقتم اليه العالم المتمدن وامتزتم به على أهل
البدو والحضر فلکم وحدكم نخر ابتداعه . وامتياز اختراعه . ولكم
أن تتخذوا له « ماركة مسجلة » تحتكرون بهامزية لا تتفاد بارباحه
واستثمار فوائده وتمنعونه بها من أن يكون لغيركم من مخلوقات الله
حلا مباحا يستمتعون به كما يشاؤون ولبئس ما يستمتعون وبئس

فما يستثمرون . فاحتكروه وخدموا واستأثروا به وامنعوا منه
 خلق الله فلن تستطيعوا أن تحسنوا إلى الناس أكثر من
 احسانكم عليهم بمنع مثل هذه « الوطنية السامة » من السريان
 في كياناتهم الصحيح المعاني . ولا ارى كفارة لجريمة اختراع مثل
 هذا الصنف من الوطنية أفضل من قيام مخترعه بتسجيله واحتكار
 امتياز نفسه دون غيره وما يستدعيه ذلك الاحتكار من صيانة
 خلق الله الآمنين وعباده الصالحين من شروره وآفاته .
 الوطنية المحضة الصريحة المخلصة الصادقة لا توحى بأمثال
 هذه الفعال ولا تغرى بانتهاج تلك المسالك . انها أنبل مقصداً
 واكرم نزعة من أن تأمر بغرس بذور الاخقاد والضغائن وتأريث
 نار الشر والمداوة بين ابناء الوطن الواحد وتفريق الكلمة
 وتبديد الصفوف وفرط العقد وفصم العرى . هي قد تأمر
 بالمعارضة ولكن بالمعارضة الشريفة النزيفة الواقعة في حدود الرفق
 واللين والأدب والحكمة والعقل والمنطق المبنية على أفضل
 أساس من حسن النية وشرف المبدأ ونصرة العدل والتنقيب
 عن مواطن الصدق ومكامن الحق ولزوم حجة الحجة الناهضة .
 والتمسك بأسباب البراهين الدامغة . والتجرد عن شوائب
 الاغراض والتزهد عن عوامل الاهواء والتخلي بمناقب السكرم

والعفة والحياء ودمائة الطبع ورقة الجانب ولين العريكة وسجاجة
الخلق - أعنى كل ما ينحصر في مدلول تلك اللفظة المفردة
الانكليزية التي اصطلح على تعريبها بلفظة « الرجل المذهب » .
فالمعارضة - تلك القوة الهائلة التي تعد بحق من أقوى عوامل تنظيم
الهيئات الاجتماعية والسياسية وأفضل الوسائل المؤدية الى حسن
التوازن في كيان الامم والشعوب - يجب أن يكون القائمون بها
من أفاضل القوم أعنى المهذبين الذين حاولنا وصف محامدهم ومناقبهم
لا أن تكون سلاحاً في أيدي الطائشين الخرق المتهورين .
ولا المتفاخرين بما آتاهم الله من قوة السواعد وجهارة الاصوات
وصواعق الصيحات المنتشدين من خمرة الزهو والتهيه والادلال
بشدة البأس وقوة الفتك ونخوة الفروسية والحاسة الذين يهزون
اقلامهم كما يهز بعض الرجال النبائيت والشوم - أو بالاختصار -
لا يصح أن يسلم سلاح المعارضة الشريف الى «فتوات» السياسة
لا يصح أن تستخدم المعارضة في تضليل السذج البسطاء
من الجماهير والتغريب بهم بترويح الاباطيل والاكاذيب ونشر
اشاعات السوء والاراجيف وتسميم الاذهان باكاذيب التهم
والظنون مما لا يساعد مثقال ذرة على خدمة القضية ولا يتقدم
يها شبراً واحداً نحو النجاح بل يعمل بالعكس على تعريضنا للخطر

الجسيم . لا يصح أن يتولى المعارضة من لا يهمهم منها الا اتخاذها
 ذريعة لخدمة الاغراض والاهواء وهم يعرفون الحقائق ولكنهم
 يتعامون عنها تعامي البصير في الليلة القمراء . ولا أن يتولاها
 القصار النظر الذين لا يبصرون الحقيقة لما يحول دونها من سحب
 الاكاذيب والاضاليل . ولا أن يتولاها القوم البطاشون بأسنة
 الاقلام . وحراب المطاعن وهجر الكلام . الذين لا يلزم ولا يقر عينهم
 الا أن يروا ميدان المعارضة حومة وغى وساحة قتال يضر جونها
 بدماء المناظرين والناقشين تسيل على طبات اقلامهم وأسلات
 يراعاهم من جراح الكرامات الدامية ومن كلوم الاعراض
 المثلومة . فهذا وحده الذى يسرهم ويشفيهم وبدونه لا يرضون ولا
 يقنعون . اما طريق المنطق والقياس والمعقول فليس مما يألفونه أو
 يميلون كثير إلى سلوكه . وليس للحجة عندهم راجح وزن أو كبير قيمة .
 وبذل ما هو اساسي ضرورى للمناقشة الحرة والمعارضة النزيهة من
 صفاء جو الهدوء والحلم والرزانة الضرورى لوضوح نور الصدق
 وسطوع نجم الحقيقة تراهم يكبدون الجو بما لا يزالون يثيرون فيه من
 غبار الشغب والشر ويعقدون في ارجائه من دخان الاساءات
 والاعتداءات باليم المقال ومضاضه . . وهذه الخلال لعمر الحق
 ليست مما يحجب المناقشة الى اربابها وذوى البراعة فيها والافتنان

في الساليبها ولا مما يجعل ميدان المناظرة ذلك الندى المأنوس الذي
يشتاقه ويرع اليه او لو الفطن والالباب بل هذه الخلال السيئة
اجدر ان تبغض المناظرة والمناقشة الى من يرجون حل مشكلاتها
وانارة شبهاتها من ذوى الفضل والحجى - اذ يرونها الى الصراع
والملاكمة اقرب منها الى الحاجة . وبالجلاذ والطعان اشكل منها
بالمباحنة . ويرون مجالها احق أن يسمى مأسدة ومسبعة تجول فيه
الضاريات بالبرائن وتصول بالانياب والمخالب . فليس يجرأ على
ولوج بابها . ودخول غابها . الا من تحصن في الجنن الواقية .
وتسربل الدروع الضافية . وليس يخفى ما يكون لابعاد اهل الفضل
والنهي عن مجال المناقشة من الخطر الجسيم على سلامة الحقائق
والمبادئ بمنع اشعة القرائح الوقادة من النفاذ اليها والاشراق
عليها وابرازها للعيان في ضياء الحجج المنيرة والبراهين الساطعة .
وذلك من ثمر ما يتلى به أمة ناهضة تقتحم او عر سبيل الى غايتها
المأمولة من الحرية والاستقلال في ظروف عصيبة وازمات شديدة
وجو مغيم مظلم تظل فيه احوج ما تكون الى الاستنارة بشهب
الافكار ومصاييح الفطن من عقول الصفوة المختارة من نخبة
ابنائها المخلصين النوابع .

نحن لا نقصد بهذا الكلام الى الطعن في وطنية مصرى

كائننا من كان. لأننا ننظر الى الوطنية نظرة اوسع واعمق مما اعتاد أن
يلحظها بها أولئك الذين يعدونها ضربا من الحرف وصنفا من الصناعات
والمهن يحترفونها فيقال فلان وطني كما يقال فلان مهندس أو
طبيب أو أولئك الذين يعدونها حلية وزينة يتملح بها المتبرج المتأنق
فيقال فلان قد برع في الوطنية وحذقها كما يقال قد تفوق فلان
في البلياردو أو الرقص أو الناي. ولكننا نرى الوطنية شيئا أعرق
من كل ذلك في كيان الانسان وتركيبه وأشد امتزاجا بنفسه وارسخ
جذورا في طبيئته وارسب اصولا بل لا نعدو الحقيقة اذا قلنا انها
هي بالفعل مادة حياته وعنصر كيانه. فهي ليست حرفة الا اذا كان
التنفس ذاته حرفة وليست حلية الا اذا كان الشعور والوجدان ذاته
حلية. ولا هي مما يفتخر به ويباهي ويتباهى به صاحبها وادلا لا
الا اذا صح ان يفتخر انسان على آخر ويتباهى به ويتباهى به غير ما سبب
سوى انه حي يرزق وموجود تحت الشمس يستطيع أن يتحرك
ويهضم. والواقع أن الانسان وطني بالطبع مثلما هو مدني بالطبع
واناني بالطبع وخرافي بالطبع الى غير ذلك من الغرائز والفطر
المكون من مجموعها ذلك المخلوق المدهش المسمى انسانا. بل
أننى لا أذهب الى ابعاد من ذلك فاقول أن الوطنية اعنى فرط
تشبث الانسان وتعلقه بالارض التي منها نشأ ونجم ليست

مقصودة على النوع البشرى بل مشتركة مشاعة بينه وبين كافة
ضروب الحيوان من النملة الى الفيل ومن الاسفنجية الى النسر -
كل لا يقر ولا يطعم الا في وطنه ويثته . بل ان النبات ذاته
وطني اذا نقلته الى غير وطنه وغرسه في غير مألفه ذوى فذبل
فمات .

اكثر من ذلك ان الوطنية لكونها غريزة وجيلة هي
كسائر الغرائز تفعل فعلها وتجري شوطها مستقلة عن العقل
لا نقول ان استقلالها عن العقل فرض لازم وشيء دائم فانها قد
تتفق معه احيانا وتسترشد بوجيه ولكن ذلك شيء عرضي وهو
من محاسن الصدق وحينذاك تكون وطنيه راشدة مبصرة .
وايكن ذلك ليس من وظيفتها ولا من طبيعتها بصفتها غريزة
كسائر الغرائز التي لا بد ان تنهج منها جها وتحدث حدثها بقانون نافذ
ازلي غير خاضع لسلطان العقل وايكن لسلطانه هو . فلا عجب
ان ترى الوطنية مندفعة في مجراها في غير صحبة العقل . بل لقد
تسلطت الوطنية مسلكتها في غير صحبة الشعور فيأتي الرجل الفعلة
الوطنية من حيث لا يشعر انه صنع شيئاً البتة . ولكن من حسن
عناية الله وتوفيقه ان يلهيهم الوطنية الانضمام الى العقل والانضواء
تحت لوائه لأن العقل وحده هو المبصر الثاقب النظر وسط

ظلمات الكون والدليل المهتدي بين مضاله ومجاهله وكل شي عسار
في صحبة العقل فقد ضمنت له السلامة وقدر له النجاح . وكل
مالم يكن كذلك فقد تعرض للمقالف واستهدف للمهلك .
على أن العقل حينما يصحب الغريزة المسماة الوطنية
لأمشاحة في انه يكسر من حدتها ويفل من سورتها لما يتحتم
عليه من مراقبتها وتديرها بالكبح من جماها وصددها في الاحايين
الكثيرة وقدها وقمع طغيانها وتوقيفها عند حد الامان وفي دائرة
السلامة . فتصبح بلا شك - من حيث مبلغ قوتها وشدتها -
أضعف بكثير من الوطنية المستقلة عن العقل الراكبة رأسها
الهائمة على وجهها . وهنا يتهمها الناس بالفتور والتراخي بل ربما
غالوا فاتهموها بالمروق والخيانة . ومن ثم كانت الوطنية المستبدة
العمياء في نظر الجماهير أغلى قيمة وأعظم قدراً وأوجب للاجلال
والتقديس من الوطنية المتبصرة السارية في ضياء العقل ومن ثم
نشأت نظرية القائلين بأن الوطنية أعظم ما تكون واقوي واشد
اخلاصاً وحرارة في الجماهير والمجاميع - وانها تناقص قوة وحمية
ولهيباً كلما ازداد نصيب صاحبها من العلم والفلسفة حتى اصبح
الكثير من نوابغ العلماء والفلاسفة وفي مقدمتهم « جيتا » أعظم
خول الالمان يهتمون في وطنيتهم . والحقيقة خلاف ذلك فان

الوطنية في كلا الفريقين جوهر لا يقبل التجزئة والتقسيم ولا
النقص والزيادة وإنما يختلف مظهرًا في الفئتين تبعًا لشدة اندفاعه
وطغيانه بلا رقيب ولا مدبر في الواحدة أو انطلافه في زمام
العقل وعنان الحكمة ومسراه في ضياء الرأي والبصيرة في الثانية.
وبعد كل هذا الكلام أرجوا أن أكون اقنعت من عساه
يكون قد اساء فهم مرامي فظن أني طعنت في وطنية فرد ما من
افراد شعبنا الكريم — بأنني ما قصدت البتة إلى أدنى شيء من
ذلك . بل الذي أقوله هو عكس ذلك كما حاولت اثباته بالبراهين
الآتية من أن الوطنية تظهر في فئة المعارضين على أشد ما بدت
فيه الوطنية منذ خلق العالم من اسطع الصور واعنف المظاهر .
فإن كان فيها علة فأنها هي الإفراط والطغيان لا الفتور والضعف
وإن كان بها آفة فهاتيك هي العنف والبطش لا اللين والهوادة .
فإن كنت أخذ عايتها شيئًا فذلك هو الزيادة لا النقصان .
وهنا أقول أن الذين يذهبون إلى فصل الوطنية عن مظاهر
التعقل من الأناة والتؤدة والرفق والهوادة بحجة أن هذه العوامل
من شأنها أن تضعف من قوة الوطنية وتكسر من حدتها فتعوق
كثيرًا أو قليلًا من فرط اندفاعها وشدة انصبابها إلى ما ترمى
إليه من شريف غايتها — قد فطنوا إلى شيء وغابت عنهم أشياء .

لأنهم نظروا الى الامر من وجهة واحدة ولم يستوعبوا سائر
جہاته . وكذلك النظر الجزئي الى عظام المسائل جدير ان يضل
صاحبه ويعمى عليه الشيء الكثير من الصواب .

لقد فات هذا الفريق ان الغرائز والعواطف مهما شرفت
ونبلت ومهما كرم غرضها وحسن مقصدها فانها اذا لم تجعل تحت
رقابة العقل (الذى هو وحده منبع النظام وأساس سلامة
الكون) تصبح عرضة للوقوع تحت تأثير آفة الآفات ومصيبة
المصائب وادوى ادواء المجتمع والداء اعداء الانسانية — اعنى داء
« الانانية » وليس هذا محل الخوض فى هذه المسألة الكبرى
وما اظن المجال ينفسح أو يسمح با متقصاء البحث والدخول فى
فى الجزئيات والتفاصيل وضرب الامثال — على ان القارىء اذالقى
هذا الكتاب برهة وراض الذهن على فحص هذه النظرية جهد
طاقته لم يخل عليه بالجمل العديد من الشواهد والأمثلة المؤيدة
لهذه القاعدة العامة — خذ مثلاً بسيطاً : عاطفة الحب التى هي انزه
العواطف فى أصلها وطبيعتها وأشدّها تضحية وابعدها من الانانية
بل اقبلها للانانية اذا تسربت اليها آفة الانانية فقدت تلك المزايا
الكريمة والمناقب الحميدة — فقدت روح التضحية والنزاهة وروح
التفانى فى شخص المحبوب فاصبح صاحبها اكثر اهتماماً بنفسه

منه بمحبوبه واشد عشقاً لذاته السخيفة السمجة منه لذات معشوقة
واشغف واهيم بملاحات جماله ومحاسن دلاله منه بمفاتن الحبيب
فكل عنايته واكثراته لنفسه وكل عواطفه وشهواته تدور حول
محور نفسه . ومن ثم تصبح نفسه « السخيفة السمجة المقوتة »
هى الصنم الذى ينصبه ويخر له ساجداً ويريد معشوقته المسكينة
على أن تسجد له أيضاً . ثم بدلاً مما يكون فى حالة عاطفة
الحب النزيه الطاهر من تلك الفضيلة الاخلاقية الاجتماعية
الكبرى أغنى روح التضحية السامية القاضية بنسيان العاشق
ذاته الضئيلة واتجاه كل ملكاته وقواه وجهوده نحو خدمة النوع
البشرى ممثلاً فى شخص حبيبه وتقديس المجتمع الانسانى مصوراً
فى هيكل معشوقه — ترى جميع قواه وملكاته قد انعكست
نحو ذاته المقوتة فيظل يحسب أن نفسه هى الجوهر الوحيد فى
الوجود وان سائر الكائنات اعراض خسيصة وان كل ما فى
الكون من خلائق لم توجد ولم تكن الا لتسره وتلذه وتسعى
فى خدمته وتسبح بحمده . لا يحسبن القارئ أن فى كلامى هذا
شيئاً من المبالغة فلقد رأيت بعينى رأسى كثيراً من هذا الصنف
من العشاق ولا أرانى مغالياً اذا قلت أن مثل هذا العاشق لا يعير
محبوبته من الاهتمام عشر معشار ما يبذله فى سبيل انتقاء «دبوس»

أو « بمباغ » أو « حمالة » أو في سبيل المقارنة والمفاضلة عند
اختياره لون ثيابه بين « الكحلى » و « الكريم » و « الكاكي »
ورأيت أن مثل هذا العاشق ينتهى به الامر الى خسران محبوبه
وخسران الصاحب والصديق والخلان . وكلما ازداد جمالا فى عين
نفسه ازداد قبحا فى عيون الغير وكبر مقتا عند الخالق والخالق .
نقول لقد فات ذلك الفريق أن العواطف والغرائز مهما
شرفت ونبلت فانها عرضة للاصابة بداء الانانية مالم تحصن
برادع العقل والرأى . ولما كانت الوطنية كما بينا آنفا عاطفة
وغريزة فهى بهذا الاعتبار والحكم عرضة لداء الانانية - لا يقيها
من شره سوى العقل الذى هو الدواء القاتل للانانية ولغيرها من
العواطف الخبيثة والشهوات الشريرة . لأن العقل هو القوة
المديرة المسيطرة على الكون . هو اس النظام ووسيلة الصلاح
وعامل الرقي وهو الدواء المستأصل لجرائم الفساد والشر والفوضى .
وهو سلاح الحق الذى لا يزال ينتصر به فى كل مظهر من مظاهر
الحياة وفى كل ذرة من ذرات الوجود على جيوش الباطل . ولما
كان الباطل والغي والشر والفساد والفوضى لا يزال تتخذ من
العواطف والشهوات أثوابا تلبسها وتظهر فيها أدوات تستعملها
فى اغراضها ومطايا تركبها الى غاياتها المرذولة فلسنا نخطئ اذا قلنا

ان وظيفة العقل في هذا الوجود هي محاربة الشهوات والعواطف.
لذلك نقول ان الوطنية باعتبارها غريزة وعاطفة اذا نحييت
عن مسقط اشعة العقل قام حولها من ظلمات الاهواء شر بيئة
تتكون فيها جرائم الانانية المنكرة وتظهر بمظاهر شتى من
التعصب والتشيع والتحزب وما يستدعيه ذلك من التباغض
والتشاحن والتحاقد والتضاغن وحب الانتقام والثأر ولذة التشفى
والشمة .

هذه الحال بالدقة هي التى تسود اليوم في فريق المعارضين
المتشائمين - وطنية قوية شديدة لاشك فيها ولكنها وطنية
مرتدية ثياب التعصب والتشيع مدفوعة بعوامل التحاقد والتضاغن
ساطية بسيف الانتقام والثأر - أعنى وطنية مسلحة بكامل عدة
الانانية وأسلحتها - أو بعبارة أئين وأقرب الى الحقيقة - أنانية
مسلحة بسلاح الوطنية .

الآن أحسب القارئ قد أدرك مغزى كلمتى (المتناقضة في
ظاهرها المتناسقة في حقيقتها) حيث أقول للمعارضين ان الوطنية
فيكم بالغة أقصى حدها عتب قولى لهم ان أعمالكم لا تتفق مع
الوطنية .

الوطنية كغيرها من الغرائز والعواطف لا تنهج المنهج

القويم المؤدى الى الغاية المفصودة الا اذا تسيطر عليها العقل لأنه
يعصمها بذلك من أن تنقاد في عنان الانانية أو تجرى وراء
الاغراض الشخصية . لأن العقل لا يولع الا بالصدق ولا يهيم
الا وراء الحقيقة - فهو يهيم أثر الحق متعاشاً اليه متلهفاً عليه
كالعين منهومة بالحسن تتبعه

والانف يطلب أقصى منتهى الطيب
صبا به مستهما - أقول كذلك يهيم صاحب العقل في طلب
الحق معرضاً نفسه لشفار السن المعارضين تنهش عرضه وتقرى
أديمه ولكنه يمضى رغم ذلك كالسهم المرسل والسييل الجارف
أو كما انقض كوكب أو كما طا

رت من البرق شقة في غمام

والناس يعجبون له كيف لم تستثر هذه العوامل المهيجة
عواطفه التي تخال كأنها الصخور الصم . أو الهضاب الشم . بل
يكاد يخيل اليهم ان مثل هذا الانسان ربما كان بلا عواطف
والواقع انه مادام يهيم في أثر الحق فهو عديم العواطف الا عاطفة
الهيام بشخص الحقيقة فأما عواطف الاستياء والغیظ والتألم من
المطاعن والمقاذف ومضيض الهجاء والقذع وعواطف الاحقاد
والاضغان والتعصب والتشيع فهذا ما ليس له محل في صدر ذلك

الرجل الذى افعم قلبه حب الحقيقة افعاما لم يدع مجالا لآى عاطفة أخرى . فاذا كانت العواطف والشهوات الانانية هي مقياس انسانية الرجل ومسبار بشريته فانه يصح لنا أن نخرج مثل هذا الرجل من عداد البشر ونجرده من الانسانية فنسميه أى شىء الا انسانا . والواقع انه أشبه ببعض الآلات والمكينات (كآلة الاحصاء مثلا التى تمر خلال جملة عمليات حسابية بغاية الضبط والدقة وبلا ادنى شعور أو تأثر بما يحيط بها من المؤثرات الجوية والعوامل الكونية - الى نتيجة مضبوطة لا تقبل تغييرا ولا تبديلا) منه بانباء البشر .

نقول أن الوطنية في مثل هذا الرجل لا يخشى عليها من بواذر الاهواء والشهوات وآفات التحيز والتعصب اعنى من مظاهر الانانية . فوطنية هذا الانسان خليفة ان تعد وطنية محضة صريحة نزيهة نقية - منطقية على عناصر الخير وعوامل النجاح مضمونا ايا ادراك البغية وبلوغ الغاية .

فهل وطنية اخواننا المعارضين هي من صنف تلك الوطنية المحايدة المجردة من المادة البشرية والعناصر الانسانية اعنى من العواطف والشهوات - هل وطنية المعارضين هي من قبيل

تلك الآلة الحسابية المركبة على مكنية العقل المجرد ودينامو
الفكر المحض - هل وطنية المعارضين هي تلك الآلة العقلية
المتحركة الفعالة في صفاء الفكر والبحث وأثير الرأي الخالص - في
جو صاف نقي الأديم من كل شائبة للشخصيات والميول الذاتية -
هل وطنية المعارضين كذلك أم هي أشبه الأشياء « بالفانوس
السحري » يجلو على ناظره وسط الظلام معرضاً مستمراً من
الصور والاشباح يحاول مديره أن يدهشك بصورة هذا البطل
وشكل هذا الهمام - أم هي (أعني وطنية المعارضين) أشبه شيء
بداخل المعبد أو الكنيسة كل جدرانها مزدان بالنصاوير
والتهاويل والدي والتماثيل - وأنت بين هذه الانصباب والاصنام
لا يسمح لك أن تبدى رأياً أو تجهر بفكرة وما كان لك أن تحاول
قط ذلك ولا أن تظن أن لك فكراً أو عقلاً بل كل ما يجب عليك
اعتقاده أنك لم تقم ولم توجد بين هذا الجمع المحتشد من القديسين
والشهداء والملائكة والعذارى الاتسبح وتحمد وتبتهل وتتضرع
وتخر ساجداً لهاتيك الآلهة على عروشها

لو كانت وطنية المعارضين هي من صنف وطنية العقل الهادئة
المحايدة المحضة المجردة من نزعات العواطف ونزعات الشهوات

الذاتية والميل الى الشخصيات والتشيع للاشخاص لما كانت - كما
شاهدنا مراراً وتكراراً - عرضة في كل آن ولحظة لان تغتاز
وتغضب بتأثير الالهواء والغايات وتثور وتهيج بعوامل الحب
والبغض والحقد والضعينة مما صير اهتمامها بالهئات الشخصية أشد
منه بالمسائل السياسية واكثرها للذاتيات الخصوصية أعظم منه
لأهميات المسائل العمومية. واقد اثبت العلم والفلسفة انه اذا ضعف
سلطان العقل على العواطف أصبح تأثير الانسان بالمسائل الشخصية
مما يمس شعوره الذاتي وما يتصل مباشرة بشهوته وأغراضه أشد
الف مرة من تأثيره بالمسائل القومية والشؤون السياسية ومن
ثم ترى الرجل الذي لا بأس في وطنيته واخلاصه لبلاده ربما
اغضى عن الكلمة يكون فيها مساس عظيم بحقوق وطنه
ولكنه لا يغضى على اللفظة يكون فيها أدنى مساس بشعوره
الذاتي واحساسه الشخصي. وترى عين هذا الرجل ربما سمع
الطعن في مذهب حزبه وشيعته فيحتمله هادئاً وادعاً مبتسماً فاذا
ما وجه الى شخصه أقل مسبة ثار ثائره فارغى وأزبد. ثم أبرق
وارغد. وانطلق لسانه بالسب واللعن يصب على رأس شاتم
صواعق غضبه وحنقه. وربما سبقت يده الى ذلك المعتدى
باللظة أو اللكمة بل بالخنجر أو المسدس

اشتد اختلاف الناس في أى الاشياء اندر وأعز وجوداً في هذا الكون العظيم . وأنا أقول وأؤكد ان أعز الاشياء واندرها في هذا الوجود هو العقل القوى المتغلب على سلطة العواطف . واعتقادي و يقينى ان مقابل كل الف فرد ممن تتغلب فيهم العاطفة على العقل في هذا العالم يوجد فرد واحد يغلب العقل على العاطفة ويحكم الملكة المنطقية في نزعات الشعور ونزواته . وليس هذا مجال الاطالة والافاضة في ذلك المبحث العميق الذى عقدت له الفصول المسهبية في كتب الفلسفة وعلم النفس ولكننا نورد النظرية عارية عن الشروح والحواشى احتجاجاً لقوانا ليس الا . نقول لا عجب فيما نراه من ندرة العقل القوى ازاء تفشي العواطف في العالم واستفاضة الاحساسات والشهوات في كل ذرة منه فتلك حكمة الخالق وسنة الطبيعة والقاعدة المشيد عليها نظام هذه الحياة الارضية التى لا أظنها في جوهرها وعنصرها غابة في الرقي والسمو ولا آية في التهذيب والنقاء والطهر والتقى أنا أميل الى موافقة «شوبنهاور» في وصفها بأنها شر ما يمكن أن يكون من أصناف الحياة منى الى مطابقة « ليننز » في نعتها بأنها أحسن ما يمكن وجوده من العوالم والدنا - وسواء كان الحق في جانب « شوبنهاور » او في جانب « لينزيك » فلا مقال

الاول ولا تصریح الثاني بمغير مثقال ذرة من نظام الدنيا ولا بمبدل
من شيمة هذه الحياة الارضية وخلقها - ولا بناف هذه الحقيقة
المرّة الالیه وهی ان العقل ما زال ولن یزال بحکم ناموس الحياة
وترکیبها وفطرتها اندر الاشیاء فیها کما ان العواطف والشهوات
ما زالت ولن تزال اکثر الاشیاء کمية وأشدّها تفشیاً وانتشاراً
وان هذا الناموس الازلّی (ولیس لنا معشر البشر العجزة الضعاف
أن نعارض فیهِ ونطاعن - وما ذا تجدی المطاعنة والمعارضة - بل
کل ما علینا هو أن نتقبّله علی علاته ونستثمره جهد طاقتنا) هو
مصدر ما تنطوی علیه الدنیا من الظلم والطغیان والشروع
والمصائب والشقاء والبؤس - بالدلیل الواضح البین وهو ان
العواطف والشهوات هی بطبیعتها سفلیة جهنمیة ومنها یتكون
الجزء الدنس القذر الخبیث من هیکل الحياة (وهو الجزء الاعظم)
- کما ان العقل هو بطبیعته سماوی الهی ومنه یتكون الجزء الطاهر
النقی من هیکل الحياة (وهو الجزء الاصغر) . وهو توزیع قد
رأته القدرة الالهیة مناسباً لنظام هذه الحياة الارضیة الّتی لم
یرد الله سبحانه وتعالی أن تكون فردوساً أو ملکوتاً أعلى أو مقام
قدیسین وابرار - بل أرادها أن تكون (کما أنبأنا الکتب
السماویة) دار توبة وندامة وتکفیر عن جنایة ابوینا الخاطئين

في دار الخلد - أو بالاختصار ارادها الله أن تكون سجننا أو - بعبارة
أخف وألطف - اصلاحية أو مستشفى . فاما الجنة - دار المكافأة
والجزاء ومقام الابرار والشهداء والقديسين - فما ظن أن الخالق
سيدني نظامها على قاعدة هذا التوزيع المحزن - ندرة العقل وغلبة
العواطف المتسلطة بجيوش الاحقاد والضغائن - بدليل قوله
سبحانه وتعالى في وصف أهل الجنة : اخوانا على سرر متقابلين
ونزعنا ما في صدورهم من غل »

نقول كذلك مذهب القدرة الالهية في خلقه هذا الوجود -
بينما تراها كأبخل البخل في هبة العقل كأنها تجود به من خرت
ابرة اذا بها كأسخى الاسخياء في هبة الشهوات والعواطف تسح
بها سحاً وتهطل هطلا . فهي كلما جادت على هذا الكوكب
الارضى بمثقال ذرة من العقل جادت مقابل ذلك بمليون قنطار
من العواطف - عطية مشتركة بين الانسان وسائر ضروب
الوحش والبهيم والحيوان من أعلى درجات سلم الحياة الى
ادناها . على حين أن العقل القوى المسيطر على العواطف لاتهيه
الطبيعة الا لاسمى طبقات الانسان - اعنى الانسان المفكر .
هذا المخلوق البديع السامي نادر جداً بالنسبة الى ما يملأ فضاء
الله ويتشاحن فيه ويتطاحن ويتنافر ويتناحر ويتصايح ويتعاوى

من مختلف ضروب الوحش والحيوان وفي مقدمتها (أو في مؤخرتها وهو الاصدق) ذلك الوحش الساعي على قدمين المسمى انسانا - اعني الانسان الاعتيادي الخاضع لسلطان الشهوات والمواطف الذي منه تتكون المجاميع والجمهير والعامة والسواد الاعظم من بني البشر

وليس يخفى على ذي لب أن المسائل السياسية والاجتماعية حتى اينها وبسطها هي - وأن خيل للبسطاء السذج أنها سهلة الفهم والادراك قريبة المأخذ والاستيعاب لا يحتاج بحثها وفحصها لكبير عقل أو ثاقب فطنة - لبي في الحقيقة والواقع صعوبة عويصة وعرة المسالك لا يستطيع أن يحيط بها ويستجلي غوامضها الا ولو الفطن والالباب . وانما هو الغرور والتبجح والدعوى التي توهم السذج البسطاء من الجمهير والعامة انهم قادرون على فحص وتمحيص هذه المسائل الصعبة وانهم هم ايضا لهم الحق في مشاركة أولى الالباب في تناول تلك المسائل وابداء الرأي عنها - والبت فيها . واذا كان هذا هو موقف الانسان العادي من المسائل السياسية والاجتماعية وهذا هو مبلغ ضعف عقله وقصور ذهنه عن فهم ماهيتها وادراك دقائقها وغوامضها في حالته الطبيعية أي في حالة هدوء عواطفه وعدم احتياج احساساته وشهواته - فما بالك بمقدار

عجز ذلك الذهن وقصوره اذا زدته ضعفا باستثارتك عواطف
الرجل وشهوته وتسليطها على ذلك الذهن الضعيف من
اصله .

ومن ثم ترى أن العامة والصبيان والنساء في كل أمة يكونون
لغلب العواطف فيهم على العقل وامتلائهم بالشهوات النارية أشبه
شيء بمخازن البارود ومعامل الذخيرة . وهذه المزية العظيمة لا تخفى
بالطبع على عشاق المعارضة في كل أمة فهم كالصياد يعرف مسارح
الظباء ومساح المها وكالمنتجع يمتدى الى مساقط الغيث ومنابت
الكلاء . أقول أن زعماء المعارضة يعرفون مواضع تلك العناصر
الملتبهة والمواد المفرقة من قلوب العامة والصبيان والنساء فما
هو الا أن يرسلون عليها شرارات مما تجيش به صدورهم حتى
تشتعل فتتأجج .

فالى زعماء المعارضين اللاعبين بألباب الصبية والنساء العامة
نقول : اتقوا الله في عقول اضعفها الطبيعة لا تزيدوها ضعفا
واتقوا الله في احلام خففها الطبيعة لا تزيدوها خفة وطيشا
وراقبوا الله في عواطف واحساسات قابلة للاثهاب بفطرتها
لا تضرموها على اربابها وعلى البلاد نارا حامية . واخشوا الله أن
يراكم تسلون من قلوب أولئك البسطاء سيوف عواطفهم وشهواتهم

فتجهزوا بها على ذرة العقل الضئيلة التي تفضلت عليهم به الطبيعة
مما بقي لديها من مادة العقل بعد ان كالت منها كيلا للفضلاء
النوابغ . اتقوا الله ان يراكم تطلقون سيول تلك العوطف الجارفة
تسلطون طوفانها على تلك الشرارة الكليمة التي مننت بها الطبيعة
على ادمغة اولئك البسطاء بعد ما اشعلت مصابيح الفطنة الوقادة
في سماء اذهان الاذكياء الالباء . رفقا باولئك الضعاف لا تعينوا
عليهم الطبيعة الفاسية الظالمة بافسادكم ما جادت به عليهم
من النزر الطفيف من مادة الفهم يوم قسمة العقول والبصائر .
وهنا يجدر بنا القول بأن ما يقوم اليوم بين ظهرانينا من
تغلب العواطف الشائرة في مجال تبادل الاراء الهادئة وسيطرة
الشهوات الفائرة في مقام أعمال الفكرة الثاقبة والعقل المجرد
عن شوائب الاهواء - انما هو مظهر من مظاهر آباءنا الاول في
العصور الغابرة ونزعة رجعية الى عصبية ذوى الشارات والعداوات
من أجدادنا أهل البيد والفلوات

ان أهم ميزات الطبقات العليا على السفلى وخاصة على العامة
هي ان الفئة الاولى لحدة ذهنها وقوة الملكة المنطقية فيها تستطيع
التفكير والكلام في المعنويات كالنظريات والكماليات والقواعد
والقوانين بينما الفئة الثانية لضعف ذهنها وقصور الملكة المنطقية

فيها ازاء قوة الحواس والاحساسات لاتفهم المعنويات ولا تقوى
على ولوج أبوابها وخوض غمارها فهي لاتلتذ ولا تعنى الا بما
قد كاد يقصر عليه إدراكها من المرئيات والمحسوسات كالاشباح
والذوات والاشخاص ولذلك اذا غشيت مجامع العامة ومجالس
الصبيان والنساء الفيت حديثهم قد كاد يقتصر على الاشياء
المحسوسة كوصف المراقص والملاهي وأما كن الفرجة كالمعارض
وحدات الحيوانات والمطاعم وحوانيت الفواكه والحلوى الى
الفصول المسهبة الشرح والتفصيل في مسائل اللبس والتفصيل
وأصناف الاقشة والمنسوجات وآلات الزخرف والزينة الى
ما يماثل ذلك ويجرى مجراه من المباحث الاقتصادية في تاريخ
المطبخ والكيلاز والتاريخ الطبيعى لشتى أصناف الطيور والدواجن
الى المحاضرات الفلسفية في فنون « الغيات » المختلفة الحمام
والخيل وورق البريد والعملة القديمة والسجاجيد والجعارين
وما لا يحصى ولا يعد من أمثال ذلك واشباهه - ولكن
هناك شيئاً آخر هو اعلق بأذهان هذه الطبقات واروح على
قلوبهم وذلك هو التعرض للاشخاص أنفسهم (لا فى متعلقاتهم
من مأكل وملبس) والخوض فى شخصياتهم وتناول سيرهم
قدحاً أو مدحاً .

أما الكلام في المعنويات وارسال الذهن الصافي البلورى
يسبح في عالم الافكار والروحانيات ويغمس أجنحته في ضياء
الحقائق ويقلب المعاني محضة بمحنة عارية عن ثياب الاشخاص
والمادة والزمان والمكان فذلك مالا تستطيعه ولا تعرفه هذه
الطبقات من العامة والنساء والصبيان وانما هو شأن العلية الفضلاء
اولى الفطن والالباب

ولا يخفى ان هذه الخصلة أعنى تعلق النفس وجولان الذهن
في عالم الحس وضعفهما عن خوض عالم المعاني والنظريات هو من
مظاهر الامم والشعوب غير المتمدينة التي تكاد تنحصر أعمالها
ومساعيها في التكافح والتقاتل وشن الغارات بعضهم على بعض
لا تزال هذه القبيلة تغزو وأختها وهذه الفصيلة تكتسح جارتها .
ثم ترى أفراد كل قبيلة لاهم لهم اذا ضمتهم محافلهم وانديتهم الا
وصف مواقف أبطالهم في ساحة الوغى ونعت ما أنوه من آيات
النجدة والبطولة ثم تمجيد الزعيم الا كبر وتقديس ذاته . فأحاديثهم
وأفكارهم مقصورة على الاشخاص ومظاهر المادة لا تتعداها الى
عالم المعنويات والمبادئ والقوانين العامة .

ولا تنس مالا بدأ أن يصحب هذه الحالة (اقتصار الافكار
والحديث على عالم الحس) من تعرض العواطف والاحساسات

بسبب سرعة الانفعال والثورة والهياج لما هو مفروض في تلك
الحالة من ضعف سلطان العقل وضوئولته امام جيش العواطف .
ونحن لانزال في غدواتنا وروحاناتنا نبصر أثر هذه الخصلة
العتيقة أعنى الولوع بالاشخاص لمجرد أسباب مادية لاعقلية ولا
روحانية وتقديس اولئك الاشخاص لمجرد تأثيرهم على عواطف
مفتونينهم من العامة لا على ملكاتهم العقلية والروحانية - بادياً
في كل شهر من أراضى بلادنا وفي كل آن ولحظة من خضوع العامة
لرجل قوى البطاش فيهم مرهوب السطوة يسمونه «فتوة» فمن شاء أن
يرى أصدق صورة تمثل تاريخ العصور الوسطى - عهد الاقطاعيات
او عهد الفروسية في أوروبا المظامة ووقائع «قلب الاسد»
و «اورلندو» و «اماديس دي جول» فايطلع على ما يجري من
مظاهر العواطف العمياء والانانية الخبيثة في طبقات العامة مما
يدعوهم الى تمجيد زعمائهم من «الصبوات» و «الفتوات»
وان تشأ مثالا آخر على هذه المظاهر المقونة فتفقد ليلاً
محافل العامة في قهواتهم حيث تتلى عليهم قصة عنتره وأبي زيد
وانظر في وجوه القوم وحركاتهم مظاهر تلك النزعة الرجعية -
نزعة تقديس الزعيم لمجرد قوته العضلية ومزاياه العدوانية
وفرط تأثيره على عواطف شيعته وانصاره . بل أنظر اليهم

كيف ينقسمون شيعاً واحزاً بأحسب ميولهم الغريزية للأشخاص
الخرافية المسرودة عليهم أقاصيصها - كل فريق يتعصب لزعيم
دون الآخرين . وكيف في سبيل انتصار كل لزيمه الخرافي
وتشيعه له يتهيج ويثور وبما وثب على مناظريه من انصار الزعماء
الآخرين واستطال عليهم بالسب وأحياناً بالضرب . فكذا يبلغ
من حدة العواطف البشرية وغلواء سورتها حتى في حين تأثرها
بالموامل الخيالية الوهمية المستمدة من عالم القصص والخرافة -
فما بالك بفرط سطوة هذه العواطف وطغيانها اذ تسلطت عليها
عوامل فلية واقعية من عالم الحس والحقيقة

هذا هو الحاصل بيننا اليوم وذلك هو شأن المعارضين
ومن شايعهم وتابعهم - والا فكيف كان يمكن ويتأتى ان ينكروا
المحسوس والملموس ويماروا في الحق الصراح ويلوموا غير ملموم .
ويذموا غير مذموم . ويرتعوا سائمة الهجاء في غير مرتع .
ويشرعوا صادية القدح في غير مشرع . وكيف - لولا هذه
الحال التي شرحتها - كان يهون عليهم ما يحاولون اتيانه من تفريق
ذات البين وتبديد الصفوف وتمزيق الوحدة وفك الاواصر .
حقاً ان المعارضة اذا خلت من عوامل العواطف الشخصية
والشهوات الحزبية وصحت من سكرة الأثرة والاثانية عز عليها

أن تأتي كل مامن شأنه عرقلة المساعي وأضعاف المجهودات وايداء القضية . ولكن ماذا تصنع المعارضة وماذا تفعل الوطنية اذا أصابتها الانانية ؟ اليست الانانية جديدة ان تصم أذن العقل وتخرس صوت الضمير وتغشي ناظر الرأي والبصيرة . وتطرح في زوايا الاهمال كل مسألة وقضية الامسألة شكائتها الوهمية وظلامتها الخيالية

وفي هذه الحالة تنمو وتصبو الى فكرة الانتقام . وقدا قيل ان الانتقام حلوليذ عند الانسان الاعتيادي الحاد العواطف وكم رأينا وسمعنا عن التضحيات العظيمة تبذل في سبيل الانتقام ومن أجل تذوق حلاوته واستمراء لذاته . ولا جرم فالانتقام هو كما وصفه الروائي الاشهر « السير والتر سكوت » « اشهى لقمة طبخت في نار جهنم »

ولا عجب اذا رأينا المعارضة رغبة في الانتقام تشن الغارة أثر الغارة وتصول بجيوش المظاهرات وتقيم مسرحاً عظيماً للشغب واللبج والصياح تلعب عليه أو تتفرج جماهير العامة والنساء والصبيان مدفوعة بما جبلت عليه تلك الطبقات من حب الهياج والصخب والضوضاء وبما فطرت عليه من الشغف بمشاهدة ملاعب الصراع والملاكمة مما يثير الشعور ويولد تلك اللذة الحاصلة

من التهاب العواطف واشتعال الشهوات - فضلاء عن اللذة المترلدة
في المظاهرات من احتكاك الانسان بالآلاف المؤلفة من الاجسام
البشرية ومن تفرج الانسان على مثل ذلك العدد من الوجوه
الآدمية المختلفة السحن والملامح .

كذلك تحاول المعارضة الانانية قلب الحق ثق ومسحها وتشويهها
وانكار الواقع الملموس والمشاهد وطمس ماثر الذين ساقوا البلادهم
الخير والغنيمة وجحدوا لما طوقوا به جيد الوطن من بيض
الأيادي - تحاول بذلك شفاء غلة جهنمية . وانتقاماً لاساءات
وهمية . وقد تفاح وقتاً ما في ترويج مذهبها بخلقها جواً من الهياج
الوجداني والانفعال النفساني تلهب فيه العواطف وتحتدم الشهوات
- تبذر في ارجائه بذور اراجيفها ونذرو في انحاء لقاح اباطيلها
واضاليلها . ولكن هذه الحال لن تدوم وماهي الا مؤقتة - شأن
غيرها من الاكاذيب التي مما يمتد اجلها فآلها حتما الى الزوال
والفناء .

وكذلك تلك الارجيف والاباطيل وتلك الظنون السيئة
بالحكومة الحاضرة والتهم الكاذبة مما لانفتت المعارضة تصوغه
وتخترعه - مما صادفت من الرواج في هذا الدور الاول من العهد
الجديد بسبب مايسود في اذهان بعض الطبقات من غرامل الخيرة

والارتباك المثيرة للريب والشكوك من تأثير صدمة هذا
الاتقلاب السياسى الخطير - فهي لا بد أن تأخذ في التناقص والهبوط
والكساد ثم يؤول أمرها الى الاضمحلال والزوال على مر الايام
مى تتابع على ابصار تلك الطبقات من مزيد الشواهد والآيات
وتوالى على بصائرهما من جديد الحجب والبيئات ما يحو من
اذهانهم ذلك الخلط والارتباك والحيرة - ويرزلا بصارهم الموقف
الجديد ومعالمه وحدوده وخصائصه ومزاياه فى اجلى مظهر من
الحق الصراح .

والكن حركة القضية نحو النجاح وسير البلاد الى الغاية
المنشودة من الرقي والفلاح دائبة مستمرة لا تنتظر ذلك اليوم
الذى يسطع فيه نور الحقيقة على ابصار المضللين من مفتونى
المعارضة . لقد نهضت الطبيعة بنفسها فقبضت على زمام القضية
بيدها القوية تدفعها فى سبيل التقدم - فمن ذا الذى يقوم فى وجه
الطبيعة يردّها عن قصدها وغايتها ؟ وأي قوة بشرية تستطيع
للطبيعة دفعا أو مقاومة أو ليس اذا هبت على شىء ماريح المدد
والمعونة من جانب عرش الله اصبحت أقوال المعارضين فى هذه
الريح الشديدة هباء . وذهبت اراجيف المعاكسين فى نفحاتها جفاء
هذا بحر السياسة العجاج قد لان جانبه . وسكنت غواربه .

وسلس قياده . واطمان مهاده . وقد سربت فيه الفلك وانسابت
تمخر الى الامام عبا به . وتشق الى مرادها جلبا به . ترجيها ريج
السلام ويهدبها كوكب اليمن والتوفيق . فلترع المعارضة ولتبرق .
فما شئ من ذلك الصخب والضجيج بضائر الفلك في مجراها .
أو صارفها عن قصدها ومبتغاها .

لقد ولجت البلاد باب الحرية سواء اعترفت بذلك المعارضة
أم لم تعترف . وقد ملكت البلاد فوهة سبيل الاستقلال سواء
شاعت المعارضة أن تصدق ذلك أم لم تشأ . وقد انبرت البلاد
تجتاز تلك السبيل آمنت بذلك المعارضة أم لم تؤمن

لقد اعترف بالغاء الحماية وباستقلال البلاد في الداخل والخارج
وأمنت على ذلك دول العالم وتواردت به التهانئ من ملوك الارض
وقد زال العهد القديم واندثر وطواه الدهر فيما لا يزال يطويه كل
لحظة من هالكات هذا العالم وفانياته . فلن يرجع هذا العهد حتى
يرجع أمس الدابر

وحتى يزوب القارطان كلاهما

وينشر في الموتى كليب بن وائل
وقد اطلق مدفع الاستقلال - نافوس جنازة العهد القديم
المنذر وبوق البشارة بميلاد العهد الجديد المبارك . وكأن دويه

المستفيض يحمل صوت البشير ممعناً في ظلمات الغيب الى ذرية
المصريين من أهل المستقبل البعيد في عالم الذرات متغلغلا الى
الى أعماق الأبد !

الفصل الثالث

الحالة الحاضرة

واجب الامة في موقفها الحالى

من كان يسره التشبث بأهداب الامانى البعيدة والهيام
وراء اشباح الخيالات فالعاقل من اغتبط بالشئ الواقع وان قصر
عن مدى أمله ووقع دون غاية مبتغاه . وحسبه أن يكون ذلك
الواقع منطوياً على عنصر الخير وجرثومة الفلاح
ألا ما أعظم الواقع المدرك الحاصل فى حوزة الامة وما أجل
خطره وقيمته ! أليس هو الدرة المستخلصة من أعماق بحر الخيال
والجوهر المستصفى من غمار لج النظريات والاحتمالات . أليس
هو ذلك الشئ المائل أمامك حقيقة ثابتة مؤكدة لا ريب فيها
ولا شك ولا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ؟ أليس
هو الاساس الوطيد الذى تبنى عليه الامة نظام الحياة والعمل -
والسلم المتين الذى عليه تسمو فى معارج الرقي والرفعة الى حيث
يبلغ بها ما تبذله من المجهودات والمساعى ؟ لذلك كان من الحزم
والحكمة أن تتشبث الامة بما يسوقه اليها الحظ من الخير الواقع

أشد تشبث وتذتفع به جهدها وتستثمره وتتخذها وسيلة وسبباً
إلى غيره من الثمرات والفوائد بفضل الجهد والعزم والمثابرة .
نحن لا ندعى أننا قد نلنا أقصى أماننا القومية أو بلغنا غاية
مطالبنا الوطنية . ولكننا نقول ونصرح أننا أدركنا شيئاً كثيراً
إدركنا الأساس المتين الذي نستطيع أن نشيد عليه صرح
الاستقلال التام بفضل الجهد والمواظبة وملكنا فوهة السبيل
الذي إذا تضافرنا على اجتياز أوعاره واقتحام عقباته أدانا بلا
شك إلى أقصى غايتنا المنشودة .

لذلك ترانا نعجب كل العجب وتمتلىء قلوبنا دهشة من
الذين لا ينفكون إزاء هذه المغانم العظيمة والفوائد الجمة يصيحون
أن حالتنا السياسية باقية على ما كانت عليه من قبل لم يطرأ
عليها أدنى تغير . فهل يقول مثل هذا الاغافل عن الحقائق الناصعة
والشواهد الملموسة او متغافل ؟

هل يشك مخلوق كائن من كان ان بريطانيا بتصریحها
الخطير (الذي اعترفت فيه بالغاء الحماية وباستقلال البلاد) قد
محت من سجلات السياسة والتاريخ تلك الصحيفة السوداء التي
كانت سجلت بها على مصر الحماية المشؤومة . فاصبحت مصر بفضل
ذلك بلاداً مستقلة ذات سيادة في نظر القانون الدولي وفي اعتبار الدول

جمعاء وأصبح من المفروض على الدول قانوناً أن تعامل مصر على هذه الصفة كما تعامل سائر البلدان المتمتعة بالاستقلال التام . ولمصر الآن كامل الحق في طلب الانضمام الى عصبة الأمم متى شاءت وفي صيرورتها ضمن أعضاء هذه العصبة . وأصبح غير محظور على الدول أن تعاملنا معاملة النظير للنظير وأن تراعى معنا كل ما هو مقرر بين بعض الدول والبعض الآخر من الحقوق والحرمانات والواجبات فليس في استطاعة الدول الآن أن تنكر وجودنا مثاماً فعلت حينما أوصدت في وجهنا أبواب مؤتمر فرساي واعتبرتنا أمة عديمة الشخصية قاصرة لم تخرج بعد من طوق الحماية والوصاية بل لا تملك حق الكلام والتعبير عن ذات صدرها .

كل هذه المزايا العظيمة كانت الحماية تحول بيننا وبين التمتع بها . فقد زال هذا الحائل بزوال الحماية وأصبحنا في حل من التمتع بها واجتناء عظيم ثمراتها .

هذه خطوة كبرى خطوناها في سبيل الاستقلال التام . وبلغنا بها الشيء الكثير الذي لا يستطيع تكراره الا غافل عن الحقيقة الناصعة أو متغافل . أما بقية أمانينا وتكملة مطالبنا والشيء الذي يندعص استقلالنا فهذا منطوق في المسائل التي احتفظت

بها بريطانيا معلق على تسويتها تسوية نهائية في المفاوضات المقبلة التي سيكون لبرلماننا الحق في تحديد موعد افتتاحها وانتخاب المفاوضين فيها والاشراف عليهم .

هذه المسائل التي احتفظت بها بريطانيا لم يقل قائل ولا خطر على بال انسان انها قضاء محتوم لا دافع له او ضربة لازب باقية على الابد او أن بريطانيا قد احتفظت بها بصفة نهائية لا تقبل تحويلا ولا تغييرا . وانما هي شيء عارض لمدة مؤقتة اقتضته ظروف ذلك التطور السياسي العظيم كما ورد ذلك صراحة في تصريحها الخطير .

فاستقلالنا في حاله الراهنة وحتى تم التسوية النهائية بشأن هذه التحفظات في المفاوضات المقبلة التي سيدشرف عليها البرلمان انما هو استقلال حكمي اكبر منه استقلالاً فعلياً وان كان قد انتج بعد نتائج فعلية عظيمة الشأن كالتى ألمعنا اليها آنفاً من ارتفاع الرقابة الانكليزية عن أعمال الحكومة في كافة أركان الحكم والادارة وكالذى يسرى الآن في البلاد من مبدأ مسؤولية الوزارة أمام الشعب ممثلاً في برلماننا المشروع في انشائه .

لذلك لاندعى أننا قد نلنا أقصى أمانينا وانا قد بلغنا الغاية ولم يدع ذلك رجالنا العاملون المخلصون ولا ادعاه بطل النهضة

الحالية وفارس حليتها دولة الرئيس العظيم ثروت باشا فقد أورد دولته في غضون رده على تهنئة الحكومة البريطانية بمناسبة اعلان استقلال مصر هذه العبارة الآتية التي جمعت بين ادب الكاتب التحرير ودهاء السياسي القدير والتي يتألق في ديباجتها المصقولة مع طلاوة رقعة الخطاب ولينه شعاع الوطنية الحارة ووهج الغيرة الملتهبة على مصلحة البلاد ومستقبل الاوطان فذكر دولته المكينز كرزون صاحب النواصر الآنف الذكر (مع حسن رده على التهنة بارق منها عبارة والطف اشارة) بذلك الأمر الجليل وهو أن مصر لم تقنع بالحالة الراهنة وانها أشد ما كانت يقظة وانتباها ومطالبة بباقي حقوقها - فذلك حيث يقول دولة الرئيس في ذلك الرد

« وأنا لنعرب لفخامتكم عن تقديرنا لجميل ما اظهرته حكومة صاحب الجلالة البريطانية واظهره البرلمان البريطاني من الميول الحسنة ونعتمد على هذه الميول في الحصول على تسوية تامة للمسألة المصرية تقع على أحسن وجه وادعاه للمحافظة على صلات الود والثقة بين البلدين ولتنمية هذه الصلات »

نحن لا نقول لامتنا الكريمة قد ادركنا الغاية ولنلنا المدى وبلغنا أقصى منتهى المني والآمال فاحبسوا اعنة السعي واريحوا

مطايا الجهاد . وارخواقسى النضال وانمعدوا سيوف الجلال .
واقترشوا مهاد الراحة وتوسدوا وثار الدعة وتمرغوا فى حجور
الصفو وتقلبوا بين اعطاف النعيم . ولو قلنا لهم ذلك لكنا لهم
خادعين وبهم مغررين ولحق لهم اذذاك أن يتهمونا بما به يسموننا
الآن زورا وبهتاننا من التعمية والتضليل . ولكننا من وجهة اخرى
لا نقول مع جماعة المعارضين اننا على حالنا الأولى لم نتقدم قيد
قتر ولم نتأخر ولا نجارى المغالين منهم فى زعمهم ما هو أكثر من ذلك
اذ يقولون ما نلنا خيراً بل شراً ولم نتقدم خطوة نحو البغية بل
تأخرنا خطوات وان الوزارة - معاذ الله - لاتناصر الأمة بل
هي الى خذلانها اميل وان القادة الامجاد (الذين سخرهم الله لخدمة
الشعب واظهار حجته وتأيد قضيته) لا ينهضون بالوطن الى
ذروة المجد والعلاء بل يهبطون به - لا قدر الله - الى الوهدة .
نحن لا نقول ذلك لانا لا نعتقده ولأنه غير الحق ولأن شفاهنا
لاتطاولنا على قوله وتنقطع من دون النطق به السننتنا ولو فعلت
لكذبها الدلائل الساطعة والشواهد الناصعة التى قد ابانت للملأ
بوضوح الادلة واثبتت للعالم بأظهر الآيات البينات أن حكومة
اليوم هي غير حكومة الامس وان دولة رئيس الوزارة واصحاب
المعالى زملاءه لم يتربعوا فى كراسى الحكم الا على شروط استمدوها

من الرأي العام واردة الامة . وانه لو لم تعترف انكثرا بانغاء الحماية
وباستقلال مصر لما قبلوا الوزارة ولما اتسنى لجلالة الملك أن يكل
اليهم العناية بأمر النظام الاساسي فهم من هذه الوجهة ومن وجهة
مشاركة الامة في كفاحها وجهادها لا يمكن فصلهم عن مجموع الامة
واعتبارهم حكما بالمعنى العتيق المنقرض يتحكمون في الشعب تحكم
العاسف المستبد الذي لا يحترم ارادة الامة ولا يعترف بسلطانها
المقدسة - كما كانت الحال في العهد السالف

ذلك عهد قد انقرض وباد . وقد اصبحتنا اليوم في عهد جديد
ميمون تتضافر فيه الامة والحكومة معا على تقويض صرح
الاستبداد ونسف دعائمه واستئصال جرثومته لتغرسا شجرة
الحرية المباركة اغنى شجرة سلطة الامة التي تزرعناها في تربة الوطن
العزير بين رفات الالباء والاجداد وتسقيانها دماء الشهداء من
ابناء الامة لتزكو على ضفاف النيل المبارك وتنفع يبرد ظلالها
عظام العرب والفراعنة في اجداثهم وتغدق على الالبناء والذرية
ثمارها اليا نعة الجنية .

فالوزارة اليوم من الامة والامة من الوزارة . وهما في الحقيقة
كتلة لا تنقسم ووحدة لا تقبل التجزئة وحلقة مفرغة لا يعرف
اين طرفها - هذا من حيث الاخلاص في الوطنية وصدق

الحمية وفرط الغيرة والتضحية والتفاني في خدمة القضية وإن
اختلفت منهما الوسائل والذرائع - كل يؤدي في خدمة الوطن
وظيفته. فالحكومة ترسم الخطط والبرامج. وتمهد السبل
والمناهج. كفرقة الكشف في الجيش العرمرم والامة من
ورائها كالجند تتقدم وترحف محتلة من المواقع الحصينة والاماكن
الخطيرة ما يذللها لها فرسان الطليعة.

بيد أنه لا يفوت الامة ان هذه الطليعة أو الكشف
(أعني الحكومة) قد لا تستطيع - ولا سيما في مثل ظروفنا
الاستثنائية المترتبة على تطورنا الفجائي - أن تنجز كل هذه
الاعمال التمهيدية في بضعة أيام أو أشهر (مهما تأقت القلوب
واولعت النفوس بسرعة هذا الانجاز) وانه لا بد للجيش (أي
الامة) أن يمهل طليعته الكشف ويعطيها الكفاية من الوقت
ملتمساً لها وجه العذر مقدراً حرج مركزها وصعوبة موقفها
معاوناً لها بما قدره عليه الله من حسن المؤاتاة والمساعدة والملاينة
والصبر الجميل والتأيب والتشجيع - ذا كراً تلك الكلمة الماثورة
لرجل الدهر نابليون بونابرت « الدنيا بخذافيرها تنساق في النهاية
لمن يعرف كيف يصبر »

وجدير بالناس ان يذكروا هذه القاعدة الخطيرة وهي ان

الانقلابات السياسية لا تستلزم الغاء النواميس الجارية والدساتير
السائدة ولا تستدعى هدم الكائن من نظم وتقاليدها ويقاف سير
ما هو نافذ من أحكام ولوائح فتصبح البلاد فوضى لا نظام ولا
قانون الى أن يتم انشاء البرلمان الجديد ويبنى عليه أساس الحكم
في البلاد . فهذا مناقض لسنة العمران في العالم ناقض لاسباب
النظام والامن والسلام . وهو مالا يكون ولا يمكن أن يكون
أو يتأتى بحال من الاحوال . وهما هي الشواهد التاريخية تدلنا على
أن الامم التي هبت من قبلنا تطالب بحريتها قد أصدرت يوم
استقلالها أوامر بابقاء أحكامها العسكرية نافذة توثيقاً لاسباب
الامن وتوطيداً لدعائم السلام وتوخياً لتنسيق أركان الحكم الجديد
تحت لواء النظام .

جدير بكل فرد من أفراد الشعب أن يفطن تمام الفطنة الى
حقيقة موقف الامة ودقة مركز الحكومة وضيق مأزقها ووعورة
مسلكها وما يعترضها في كل خطوة من المصاعب والمشاكل
فيعطف عليها بكل ما أوتي من عواطف البر والكرم والمروءة .
ويسلك معها سبيل المصابرة والتمهل لينظر ماسوف تصنع وما
عساها أن تأتي وتذر وتحل وتعقد - حتى لا يرمي بالتعجل في الحكم
وابراز الرأي فجاً غير ناضج .

نحن اليوم ازاء مشكلة من أعوص المشاكل لايتأتى حلها
بسوى التعقل والروية والتبصر وذلك ما لايتسنى الا فى جو صاف
من الهدوء والسكينة تسود فيه الاناة والتؤدة ويشرق فى افقه
سراج العقل المتبصر المتدبر - وأساس كل ذلك هو كما المعنا فى
موضع سالف هدوء الخواطر وسكون الجوانح وثبات الجأش
والجنوح الى الرفق واللين والهوادة والحسنى وتوخى أسباب
الحلم والمجاملة والركة فى الخطاب وأساليب الادب والملاطفة
والدمائة فى مجال المناقشة والمناظرة - شأن أفراد الامم المهذبة
الراقية التى يحق لها أن تفخر بسمو مكانها فى درج المدنية
والحضارة

ان المشاغبات والمشاحنات واستنارة العداوات وبذر
الشقاق ما كانت قط لتؤدى الى خير ولا لتتقدم بأمة خطوة
نحو غايتها المنشودة ولا سيما اذا كانت أمة فى مثل مركزنا
السياسى قد وضعت قدمها على فاتحة سبيل الاعمال والمجهودات
العظيمة للوصول الى ماتبتغية من أقصى غايات الاستقلال التام .
نحن الآن أحوج مانكون الى العمل - الى العمل المنتج
المثمر - الى عمل البناء والتعمير أو التشييد والتجديد . نحن الان
أحوج مانكون الى تنظيم حركتنا وتنسيق نهضتنا بضم

شواردها وجمع شتاتها ولم شعنها وتسميرها في منهج قاصد قويم
يسود في جوه العقل والنظام والحكمة والتدير .

لقد انتهت حركتنا من دورها العاصف العنيف وجرت
شأوها المحتدم المضطرم وأدت ماعليها من مهمة الهدم والنسف
والتقويض - هدم الحماية ونسف دعائم الحكم المطاق وتقويض
أركان التدخل الاجنبى . أجل . لقد انتهت حركتنا من دور
الهدم والتدمير . وأن لها أن تدخل في دور البناء والتعمير لقد
هدمت برج الحكم الاجنبى ووضعت على انقاضه أساس
الاستقلال - وقد آن لها أن تبذل أقصى الجهد في أن تشيد على
هذا الأساس صرح الاستقلال التام .

فكان حركتنا كانت في دورها الاول العنيف التأثير أشبه
شيء بالسيل الجارف المنهمر المصطدم بالصخور والجلاميد المتوثب
بين العقاب والاعوار - وهى في دورها الحالى الهادئ المطمئن
يجب أن تكون مثل هذا السيل حيث ينتهى من الصخور
والاعوار ويفضى الى أرض سهلة مستوية لكنها قفرة جرداء فعلى
هذا السيل أن ينسكب في فضاءها متسللا منسجما هينا لينا
ولكنه يكون مع ذلك قويا شديدا جائشا زخارا يؤدى ماعليه
من واجب الرى والسقيا ووظيفة الاخصاب والانتاج فيحول

الجذب خصبا . والصخر عشبا . ويترك الفلاة الجرداء .
جنة غناء .

وهذا ما لا يكون ويتم الا بالالفة والاتحاد وهما لا يتوافران
الا بحصول الثقة المتبادلة بين عناصر الشعب وأحزابه ثم بين
فئات الشعب كافة وحكومته . والثقة المتبادلة لا تتأتى ما دام
سوء الظن متسرباً الى النفوس . ومعلوم أن سوء الظن هو آفة
الشعوب ولا سيما في أدوار انقلاباتها السياسية وتطوراتها النظامية
اذ في مثل هذه الظروف المصيبة تكون النفوس هائجة ثائرة
والخواطر مضطربة قلقة ومتي كانت النفوس والخواطر كذلك
أصبحت بيئة صالحة لجرائم الريبة والتهمة تعشش فيها وتبيض
وتفرخ منتجة الضغائن والاحقاد المؤدية الى اعظم الشرور والمضار
لا جدال في أن ما ادركناه من الفوز السياسي الأخير
وما اكتسبته القضية من النجاح والتأييد بما صارت اليه من
المركز الحصين الجديد لجدير أن يعد من أعظم دواعي الابتهاج
والاستبشار ولا جدال أيضاً في أن هذا الابتهاج والاستبشار
الذي نراه متفشيًا في جانب عظيم من الامة ممن عصمهم الله من
تأثير ما يروجه المتشائمون من باطل الاشاعات والاراجيف اذا
ازداد تفشيًا في مجموع الامة وسرايانا في أفئدتها وجوانحها كان

من اكبر أسباب النجاح وأعظم وسائل اليسر والتوفيق وأنجزر
مصادر الخير والبركة والفلاح - فانه لا خلاف في أن روح
الابتهاج والاستبشار من أقوى بواعث الهمم ومرهفات العزائم
مما نحن بامس حاجة اليه في موقفنا الحالي لا فتحام ما لا يزال
يواجهنا من المضاعب والعقبات كما انه ليس أضر بنا في الحالة
الراهنة ولا افسد لقضيتنا من بث روح التشاؤم المثبطة للهمم
والعزائم الموهنة للمجهودات والمساعى

وأى شيء - هداك الله - أجلب للخسارة والبوار وأدعى
الى الفشل والخيبة من هبوط العزيمة وثبوت الهممة وأى شيء
أشد اضراراً للحقوق وافساداً للامور واذهاباً للدولة والسلطان
وابادة للمجد والحسب مما تحدته روح التشاؤم والسخط والضجر
في الامم والشعوب من خور القوى ووهن الارادة الداعيان الى
داء التخاذل والتواكل والفتور والتواني ؟

وعلى العكس من ذلك أى شيء أجلب للنعم والفائدة وادعى
الى النجاح والفلاح وأجمع لشمل الامور وأحوط للسلطان والدولة
واكسب للمجد والحسب مما يورثه روح التفاؤل والاستبشار
من تنبيه الهمم ونهضة العزائم الداعيان الى التناصر والتضافر ؟
بل أى شيء لا تستطيعه قوة العزيمة وبعد الهممة ؟ ان قوة

العزيمة لتوجد لكل باب موصد مفتاحا . وكل شبهة مظلمة
مصباحا . وتبرز كل شيء في صورة جديدة وشكل مستحدث .
وقد رأينا الرجل القوي العزم المصمم المضاء يستطيع بشكل
وقفته ازاء الحادث الجلل وبنبرة صوته وسط ملتطم الخطوب .
ومصطدم الكروب . أن يأمر الداهية الدهياء المنهمر سيلها
المتدفق تيارها . فتجمد وتقف . ويزجر الكارثة المنكراء المنتشر
شرها المتسيطر شررها فتخمد وتكف . وقد جاء في المثل القديم
« ينال الظفر من يرى نفسه قادراً على نياله »

أولم نر مثل هذا الرجل الماضي العزيمة في شخص بطل
النهضة الحالية عبد الخالق ثروت باشا ؟ ألم يقف هذا الرجل العظيم
في وجه الحادث الجلل وقفة من يشعر أنه يحمل بين جنبه من
روح الله ومدده ما هو أجل من الحادث الجلل ومن ردعه .
وكفه وقعه .

وحينما رفع ثروت باشا صوته المهيب يؤيد قضية وطنه
ويطالب برده حقوقه المغتصبة ألم يسمع الملا في نبرات ذلك الصوت
العميق تلك الرنة العاصفة القوية النافذة الى اعماق قلب الاستبداد
القارعة حبة فؤاد السطوة والجبروت - ألم يسمع العالم في نبرات
ذلك الصوت المرهوب ذاك الدوى القاصف القاهر الغلاب الذي

ترتعد من هوله فرائص الظلم وينزوي من هيبتة شبح الباطل
المتسلط على الامم بسلاح الطغيان والعدوان ؟ - ألم يسمع العالم
في نبرات ذلك الصوت الجهير تلك الرنة المؤثرة العميقة التي اعتاد
أن يسمعها في صوت الطبيعة القاهر المتغلب على كل قوة انسانية -
في صوت الرياح العاصفة . والرعود القاصفة . والموج الطامح .
والسيل الجائح . ألم يلق هذا الصوت الهول في نفوس الانكليز
حتى ثار له ثائرهم وقامت من أجله قيامتهم يوم نفرت أحزابهم
ووثبت طوائفهم تفرق من عظم ما نادى به ذلك الصوت
وتستكثر ما طلبه وما اشترطه - يوم ضج برلمانهم من هول تلك
الشروط والمطالب وصاحت جرائدهم وضجت تحذر القوم من
الرضوخ لتلك المطالب وتعلن ان في قبولها مايؤذن بهديد عظمة
الامبراطورية وسلطانها واضعاف شأنها وكيانها ؟

ألم يملأ هذا الصوت قلوب المصريين فرحة وطرباً ؟ ألم يستمر
همهم ويخفر عزائمهم ويفعم صدورهم بروح القوة والتأييد والتشجيع ؟
ألم يبين لنا هذا الصوت مبلغ تأثير روح الرجل العظيم في أرواح
الملايين من البشر ؟ وقوة سلطان شخصيته على شعورهم ووجدانهم ؟
ألم يثبت لنا هذا الصوت ان الرجل الفرد الذي يستطيع ببصره
الناقب أن يلمح نتائج الشؤون وعواقب الامور من وراءه حجب

الغيب ويستطيع أن يتبين اقصد الطارق وأسد المسالك الى تلك
النتائج والعواقب خلال العقبات والقحم والمآزق - لهوف الحقيقة
خير من الف رجل بل هو المسيطر والمسير للامم والشعوب
ممن لا يستطيعون استبانة النتائج والعواقب ولا الاهتداء الى
مايؤدى اليها من الاسباب والوسائل ؟

وماذا ترى يكون الاساس الذى يقوم عليه صدق النظر
ونفاذ البصيرة فى عظماء الرجال أمثال ثروت باشا ؟ هو بلا شك
رباطة الجأش وهدوء النفس فى الزعازع والزلازل . وذلك مايؤثر
عن وزيرنا الجليل ثروت . لقد روى عن اكبر قواد العالم
أن أحدهم كان يزداد سكينه وهدوءاً كلما ازدادت زوبعة القتال
من حوله ثورة وهياجاً وأن القائد العظيم « مالبرا » كان ذهنه
يظل اصفى مايكون وادق حساباً فى اشد ادوار الموقعة اضطراباً
وارتباكاً . وان بعضهم كان اذا انهزم جيشه وولي الادبار ووقع
فيه من المهرج والمرج والتخبط والفوضى مايعترى الجيوش
المدبرة ساعة الهزيمة بلغ من صفاء ذهنه فى تلك الساعة العصفوف
الهوجاء ودقة تفكيره وهدوء باله انه كان يستطيع رد تلك الفلول
المنهزمة وضم شواردها وجمع شقاتها وتنظيم صفوفها والسكر بها

في ساحة الوغى على جيش العدو في اتم نظام وادقه فربما تمكن
بعد ذلك من القبض على ناصية الحال ثم من هزيمة الاعداء .
ويروى عن نابليون الأول انه كان آية معجزة في رباطة الجأش
وفرط الجلد والرزانة وذلك انه خسر الدنيا بخذا فيرها فلم يابه لذلك
ولم يبل وكأنه لم يخسر الا دوراً في لعبة النرد أو الشطرنج .

كل هذه الامثال ضربناها للقراء لنظهر بها فضل تلك الخلقة
العظيمة أغنى رباطة الجأش وهدوء الدماغ في الزواجر والزعازع
وانها أساس كل نجاح وسبب كل فلاح وأن عليها مدار نهضة
الامم والشعوب وتشديد مجدها ورفعتهما ولتقارن بها (اغنى بهذه
الامثال المضروبة) وافر نصيب ثروت باشا من هذه الخلقة المجيدة
وجسيم حظه منها . ولنبين بها أن شر ما تبلى به الأمم والافراد
في أوقاتها العصبية هو فقدان رباطة الجأش وهدوء الدماغ
الناشيء من خور القوى ووهن العزائم المتسبب عن بث روح
التشاؤم والسخط والقنوط في أفراد الشعب وما أصدق ما قاله
أحد قواد الفرنس في هذا الصدد « اذا فقد الرجل رباطة الجأش
وتملكه الذعر فغرب عنه عقله - كما هو شأن المروع المذعور -
أصبح لا يدرى ما يأتي وما يذر . فاذا ما سألت الله شيئاً فسله أن
يفر عليك عقلك كاملاً . فانه مادام لك ذلك فما من خطر يهددك

أو كرب يحزبك الا كنت بفضل ذهنك جديراً أن تصيب منه
مخرجاً بوجه ما . فاما اذا استحوذ عليك الروع وذهبت نفسك
من الجزع شعاعاً فقد كتب لك الفشل والخيبة وسد في وجهك
باب النجاة والسلامة والفيت البر بجرأ والبحر برأ وحسبت الحبل
ثعباناً والفطرة طوفاناً

كأن فجاج الأرض وهي عريضة

على الخائف المذعور كفة حابل

يؤتي اليه أن كل ثنية

تيممها ترمي اليه بنابل

واذا بصر بفرد من أعدائه خيل اليه انه يرى خميساً عرمرما
مثله في ذلك كالسكران ينظر الى الشمعة الواحدة فيخالها
ألف شمعة .

هذه آفات الخبل الناجم من فقدان هدوء الدماغ ورباطة
الجأش المتسبب عما يئنه جماعة المتطيرين في بعض طبقات الشعب
من روح التشاؤم والسخط والقنوط

فإن هذه الحال مما يجب أن يستشعره الشعب الناهض
المطالب بحقوقه من روح التفاؤل والاستبشار والابتهاج الموقظ
للهم والعزائم . الباعث على الخفة والنشاط وبارك الله في العزم

والنشاط . ألم يقل الحكماء ان الدنيا تنساق للنشاط المعترم . والمنجرد
المصمم ؟ ألا ترى أن قوة الارادة ومضاء العزيمة تخلق له عينين
جديديتين يرى بهما من ضروب الحيل والتدبير وصنوف الذرائع
والوسائط ما لم يكن يراه من قبل ؟ هلا نظرت الى الرجل المتشائم
الواهن العزم الفانراهمة كيف يجد نفسه مقروراً ويظلم يرتعد
ويرتعش وعليه مثل جلد الفيل وفروة الدب من دافئ الثياب
والملايس . ثم نظرت الى « الاسكيمو » ساكن القطب . ذلك
المتفائل المبتهج المملوء مرحاً ونشاطاً كيف يصنع لنفسه ثياباً
دفئة من البرد والبلل والثلج ذاته . افلا تعلم . علمت الخير . ان
من المصاعب والاعطار ذاتها ومن الاهوال والحن والمصائب
يعرف الرجل المتفائل المرح العزوم كيف يخلق الاسباب والحيل
لتذليل هذه المصاعب وازالة هذه الاعطار وابادة تلك الحن
والمصائب ؟ اليس الطبيعة ذاتها تلقى علينا هذا الدرس حينما
تراها تحفظ على البحيرات دفأها وحرارتها بتغطيتها بملاءة من
الثلج وتصنع مثل ذلك باديم الأرض بتغشيتها لحافاً من الجليد ؟
ان المتشائم يسكن الجنة فيصيرها من جراء سخطة وضجره
وفتور عزمه وقلة حيله جهنماً . ويسكن المتفائل النار فيصيرها
بفضل انشراحه وارتياحه ومحدة نشاطه وقوة عزيمته وسعة تدبيره

وحيلته فردوساً .

ان الانسان بفطرته متفائل مجبول على الميل الى الاستبشار
والانشراف والنشاط والعزم . وان هذا التفاؤل هو الذى يجعله
صالحاً للسكنى هذا الكوكب الأرضى الذى لا يهب الانسان
شيئاً على لزومه خطة التسخن والضجر وفتور الهمم والعزائم ولكنه
يسخو له بكل شىء على التزام سنة التفاؤل والابتهاج وما يورثانه
من سعة التدبير والحيلة . فابناء البشر باعتبارهم متفائلين نشطين
ترى كل فرد منهم كأنه مجموعة قوى وجعبة كفاءات - فتخاله
قضيبي مغناطيس فوق كرة من حديد . فكل انسان فى هذا
الوجود كأنه مبدع ومخترع قد اجرى فى سياحة استكشافية .
يسترشد بخريطة ذهنه الخاصة التى لا يوجد لها نظير مع غيره
من سائر البشر . وهذا العالم الأرضى يظل فى نظر المتفائل وكله
ابواب ومنافذ ومسالك - وكله فرص ونهزوم غامم - وكله حساس
وكأن فى كل موضع منه وتراً مشدوداً يجاوب بالنعمة المطربة كل
عزفة عازف . وهذه الأرض الصخرية الصلدة هي فى الحقيقة
جوهر حي حساس يفيض روحاً وشعوراً يتأثر بكل لمسة .
ويجاوب على كل مسة وجسة . وسواء سبوت غوره بمحراث
آدم أو سيف قيصر أو قارب كولومبو أو مرصد غاليلو أو

منطاد زبلين فلا بد أن يجاوبك على كل واحدة من هذه التجارب
باعظم جواب واروعه .

كذلك جبل ابناء البشر على التفاؤل وعلى أن يستثمروا
بفضله وبفضل ماورثه من القوة والمقدرة صخرة الأرض الصلدة
ويسخروا الطبيعة الهائلة في قضاء اوطارهم وماآربهم وعلى أن
يغتبطوا ويفرحوا برويتهم انتصار الانسان على الطبيعة وسيطرته
على العناصر وبرؤيتهم أن كل رجل متفائل سليم الفطرة قوي
الارادة يظل مصلحا منظما ويكون كأنه قانون افضى الى تشويش
وفوضى فاستخلص منه نظاما وصلاحا .

وجبل الناس أيضا باعتبارهم متفائلين نشطين على الاغتياب
والفرح باستعراض ثروة الطبيعة العظمى وكنوزها العديدة وبرؤية
هذه الذخائر الجملة بمتناول من كل متفائل مستبشر من سكان هذا
العالم . ولا جرم فذلك يفجر في قلوب الناس ينابيع الامل ويستحثهم
الى المباراة والمساجلة في سبيل النشاط والهمة

وعلى ضد ذلك التشاؤم فانه داعية الفتور والتبدل ومجلبة
العجز والتقاعد . وقدما قيل ان انقباض التشاؤم يفقأ الاعين
ويشل الذهن فهو خاليق أن يعد انتحارا تدريجيا

وأخي خير - اصلحك الله - في بث روح التشاؤم والاكتئاب

في افراد الشعب وأي بركة في تشويه جمال الحياة في اعينهم وفي
تغشية ابصارهم ذلك المنظار الأسود الذي يبرز لهم كل شيء في
رداء قاتم ويكسو عروس الطبيعة الحسناء ثوب حداد . ويحيل
عرسها الدائم المتجدد مآتما ويرد بشيرها نعيها . ويحدث في السلسل
الزلال اقذاء وفي مذاق الشهيد الجنى مرارة وفي انسجام
النغمة الرخيمة تنافرا . ويطلع في وجنة الشمس الصقيلة نكتة
سوداء ويجري نجوم السعود بالشؤم ويريك المشتري ضمن كواكب
النحس !

ولكن الخير كله والنعيم والسعادة في مذهب التفاؤل
القائل بأن هذا العالم ملك للمؤمل المجتهد وان لكل بغية وسيلة
ولكل غاية سبيلا وان كل امرئ يحمل في يده مفتاحا لاغلاق
خزائن الطبيعة ونخا لا حتيال صيدها .

فقل للمتشائمين من ابناء هذه الامة وغيرها من شعوب
العالم - لا تشاؤم ولا اكتئاب ولا تسخط ولا تبرم . فهذا العالم
الذي تعيشون عليه وتسعون في مناكبه انما هو مصنع هائل
مفعم بالقوة بافلاكه الدائرة وفصوله وازمانه ومداه وجزره
ومكينة العالم الضخمة لهائلة تملأ الفضاء عرضها السموات والارض
وهي محكمة البناء دقيقة التركيب لا يعثرها الفساد ولا يتطرق

اليها والوهن والخلل - وهي لا تزال تصلح نفسها بنفسها بقدر
كامنة في كل ذرة من ذراتها - وهي تصنع كل شيء وتقدر على
كل شيء - فهذا عنصر الماء اتراه يعجز عن حمل أي ثقل مهما
عظم؟ وهب ان هناك ثقلا يعي الماء حمله فهذا البخار امامك
فجربه أو دعك من هذا وجرب السكر بأمثاله. فهل ترى بعد
ذلك لذخائر الطبيعة نفادا. وهل حاولت مرة ان تزن بالفناطير
مقدار ما تسكب القناة الصغيرة الجارية في مزرعتك من كميات
المياه؟ اجل انه لا نفاد لثروة العالم وانه لا شيء في الحقيقة
عظيم هائل العظم الا كنوز الطبيعة. هذا على ان الطبيعة
لا تبدى لنا سوى قشورها وسطوحها وهي من تحت ذلك بعيدة
الاعوار يقدر عمقها بملايين الفراسخ.

الا أن الحزم والحكمة في التفاؤل والانشراح وان التشاؤم
دليل الحق والجمود. وقد يكون من السهل على جماعة
المتشائمين أن يحقروا مذهب التفاؤل واربابه ويلاحظوهم بعين
الازدراء ادعاء للفطنة والكمياسة وتظاهراً بالارباب والدهاء ولكني
أرى أن آمال المتفائلين المشرقة وأمانيتهم البراقة وما يزرخه خيالهم
من قصور الهواء المونقة أحسن ألف مرة واعود بالخير والنفع
واجلب للرخاء والدعة مما لا يزال المتشائم يحفره من جحور السخط

والضجر وسجون الهم والشقاء .

ماذا يستفيد العالم من أولئك المنشائين الذين لا يبرحون
يبصرون في كبد السماء فوق رؤوسهم كوكباً أسود يتخلل لألاء
الضياء والسحب البهيجة الالوان . وربما احتجب آوأة وراء ما يمر
دونه من أمواج النور ولكنه لا يلبث أن يعرود ظاهراً أقبح
ما كان وأشد سواداً .

وعلى خلاف ذلك التفاؤل فانه منبع الحول والقوة والباعث
المحرض على السعي والعمل . وعندى ان الرجل الذى لا يجعل همه
تحبيب الحياة والطبيعة الى الناس باظهارهما لانظارهم في أحسن
صورة وأجمل مظهر كان موته خيراً من بقاءه . وعدمه أنفع
من وجوده

التشاؤم مرض والتفاؤل صحة . والصحة شريطة العقل
وأساس الحكمة . والابتهاج آية ذلك وامارته . والبر الكريم
والأريب اللبيب هو من حرك فيك نسيم الأمل واشعر قلبك
روح الثقة وبرد اليقين وعثقتك من رق الهم . لا من أذاقك مرارة
الجزع وجردك غصة الكرب واشعر فؤادك ذل الخوف
ومضاضة اليأس .

وانما كان الابتهاج والانشراح وسيلة النجاح وسبب الفوز

في هذه الحياة لأنه سنة الطبيعة ومنهجها ويخيل الى أن الفرح
والسرور هو روح الطبيعة ومنبع حياة الكون واعلمك اذا
استطعت أن تنفذ ببصرك الى صميم قلب الوجود ألفت ذلك
القلب يدفع لدى كل نبضة من نبضاته تيار السرور الزاخر في كل
وريد وشریان من اوعية جثمان الكون حتى يظل نظام الكائنات
بمخذافيه مغموراً بفيوض الفرح وسيول الحبور يدفع بأمواجها
الطامية ويفهق . فلن ترى في نواحي الكون موضعاً مهما خلت
جديداً الا ما كان في الحقيقة مفعماً بالخير والبركة . فأفقر مكان
يحتوى من الثراء مالا يكاد يحصى مقداره . وأجذب محل لا تستنفد
حاصلاته ولا يفرغ من اجتناء ريعه وثمرته .

وكل صوت من أصوات الطبيعة ينتهى بلحن ويختم بنغمة .
وكل صفحة من صفحاتها تزخر فحافاتهما وتديج حواشيهما الصبغ
الجميلة والالوان البهجة

لا تعلق على جدارك الصور الكثيبة المحزنة ولا تلوث
أحاديثك بسواد الشكوى وظلمة التشاؤم . ولا تكثر من
الضجيج والالنين والتأفف والتلهف والتعسر والتضيجر . وكن
على أن تظل صناجة تطرب الملاء بموسيقى الولايم . أحرص منك
على أن تبیت نواحة تبكى الجماهير بمراثي المآثم . ولا يصدرن عنك

من المقال والفعال الا ما جدد من أمل . أو خفز الى عمل . أو استنهض هممة . أو استثار عزيمة .

من كل ما تقدم يستنتج اننا في موقفنا الحالي ازاء ما يعترضنا من العقبات وما يكتنفنا من المصاعب نظل أحوج مانكون الى من يبعث فينا روح التفاؤل ويضيء قلوبنا بشعاع البشر والانشراح ويذكى في صدورنا جذوة الامل ويطلع علينا في أفق السياسة كواكب الرجاء هداية لنا في مسالكها الوعرة ومجاهلها المضلة فيملاً نفوسنا بذلك ثقة وإيماناً ويشعرها قوة الثبات وعزة اليقين والاعتماد على النفس والاعتداد بالذات مما ينبه الهمم ويوقظ العزائم ويحفز الى جسيم الاعمال وجليل المساعي .

أما خطة التشاؤم والنظير فلا أرى لها البتة مسوغاً ولا مبرراً ولا سيما في حالتنا الراهنة التي ليس فيها ما يدعو الى التشاؤم أو يبعث على الخوف والفرع كما بينا وأوضحنا فيما سلف فقد اتضح انه ليس لفريق المعارضة المتشائمة من علة أو حجة على ما لا يألون جهدهم في نشره وترويجه من الاشاعات والاراجيف والريب والتهم وسيئات الظنون بالخلصين الغيورين من جلة رجال هذا البلد وخوله وصفوة ثقاته وودهاته الآفة الغرض والهوى . وقد ما ادرك الناس أن المرء اذا اسلم زمام ارادته لقائد الغرض والقي عنان

مشيئته في قبضة الهوى فقد نبذ طاعة الحق وخرج عليه فليس
تغنى معه محاجة ولا مناظرة ولا يفلاح في اقناعه واخفامه الحجة
الناصعة والبرهان القاطع

لذلك تراه اذا اراد نشر اباطيله وترويج اضراليه انصرف
عن مجالات أهل الرأي والحجى ودوائر ذوى اللب والنهى من
النافذى البصر الثاقبى الفطنة والذكاء الذين يصلون بأمضى سلاح
من المنطق والقياس . ويكشفون دياجير الاشكال والالباس .
باسطع سراج من الدليل المشرق وابهر نبراس . فتحول عن
هؤلاء الى جماهير العامة والنساء والصبيان الذين قد يسهل عليه
اقناعهم لا باساليب المنطق والقياس ولكن بقوة التأثير على
العواطف والاحساسات (كما اوضحنا ذلك باسهاب فيما سبق
من فصول هذا السفر) بل بقوة التكرار والالاحاح وشدة
الاصرار والعناد حتى يخبل أذهان من يتسلط عليه من البسطاء
الذين يصبحون لفرط تأثير هذا التسلط يهتمون عقولهم بل
يهتمون حواسهم ويغالطون أنفسهم عن الحقائق الناصعة الساطعة
ويخدعونها عن الشاهد الناطق والواقع الملموس
وهنا يجدر بي أن أورد فكاكة قصصية أراها أصدق مثل
يضرب لتمثيل هذه الحالة الالمية

جاء في الاساطير القديمة ان برهميا تقياً نذر للالهة نذراً أن
يضحي بشاة في يوم محدود ثم خرج في ذلك اليوم ليشتري شاة
وفاء بنذره . وكان في جواره ثلاثة رجال قد عرفوا شأن هذا
الناسك وما كان قد نذر للالهة فرأوا في ذلك فرصة انتفاع لم يحبوا
أن تفلت من أيديهم فانبرى له أحدهم مخاطبه قائلاً « أيها البرهمي
اذهب أنت لا بتياع شاة تضحيها » ؟

قال البرهمي « أي ورثي ما خرجت اليوم الا لهذا الغرض »
فحينذاك فتح الرجل جراباً كان يتأبطه واستخرج منه حيواناً
مشوهاً - كلباً ضريباً أعرج . فصاح به البرهمي « ويلك يا خبيث
يا من يدنس كفه بلمس المقاذر ولسانه باقتراء الا كاذيب ! أتسلي
هذا الكلب النجس شاة ؟ فأجابه الرجل بمنتهى الجراءة والنبات
« أي والله ومن اكرم صنوف الغنم - من انعمها صوفاً وأطيبها
لحماً . أيها البرهمي اغنم ما ساقه إليك الحظ من هذه الهدية
النفسية وأسرع بتضحيتها تكسب بها أحسن الاجر والثواب
من الالهة » فقال البرهمي « هدايا الله واياك يا رجل . لا بد أن
يكون أحداً قد أصيب بالعمى » .

في هذه اللحظة قدم عليهما ثاني الثلاثة المتأمرين فصاح
كالفرح الجذلان « لله مزيد الحمد والشكر . هذه شاة من

أكرم الغنم . لقد كفيت مؤونة الذهاب الى السوق ومشقة
مزاحمة الناس هنالك . بكم تباع هذه الشاة يا رجل ؟ » فلما سمع
البرهمي ذلك الكلام أخذ دوار في رأسه وهفا ذهنه على ارجوحة
الشك يعلو ويهبط ولعبت به موجة قلقه من الحيرة تطفو به
وترسب . فخاطب القادم الجديد قائلا « مهلا يا هذا وتدبر ما تقول
وما تزعم . هذه ليست بشاة ولكن كلبا دنسا مشوها » فاجاب
القادم الجديد بقوله « ويحك ايها البرهمي ما أحسبك الاسكران
أو مجنوننا »

في هذه الآونة دلف اليهم ثالث المتأمرين فقال البرهمي
« اذن فلنحكم هذا القادم في الامر . وقد عاهدت الله أن أقبل
حكمه » فوافق الرجلان على ذلك . ونادى البرهمي الرجل القادم
« خبرنا يا أخي ما ذا تسمى هذا الحيوان ؟ فأجابه الرجل بقوله
« أيها البرهمي هذه بلا أدنى شك شاة مليحة » فقال
البرهمي « لا ريب ان الالهة قد سلبتني حواسي » . ثم اعتذر الى
صاحب الكلب واستسمحه واشترى منه الحيوان القذر بثمن
جيد وضحاه للالهة فاستغضبها فرمته بداء خبيث في مفاصله

هذه فكاهة واضحة الغرض بينة المغزى تشير الى مبلغ
تسلط ذوى الغايات في كل زمان ومكان على عقول البسطاء بمحض

الكلام والاعراء والمغالطة . ولعلها أصدق مثل ينعت ما نكأه
الآن من تأثير المعارضة المنشئة على العامة والنساء والصبيان
وزجهم في متائه التضييل والتغدير بما يروجون بينهم من
الاشاعات والاراجيف مع شدة ظهور بطلانها وفرط وضوح
زورها ومنافاتها للواقع الملموس . ولكن ذوى الغايات والاعراض
ان يعمدوا في كل آن ومكان من جمهور الناس من يستطيعون
خدعه عن الحقائق المدهشة المحسوسة حتى يحملوه على الاعتقاد
بعكس ما تعرضه عليه عينه وأذنه وبضد ما يكيّفه له ذوقه
ولمسه تكذيباً لوشي شعوره وشاهد حسه . حتى تراه يسمى
التمر جمرأ . والفجر عصرأ . ويحلف لك أن العسل مر بالرغم من
حلاوته في فيه . وان الطيب نتنا مع عبق اريحه في شمه وان الغزال
فيلا على الرغم من غيده وحوره . وان الكلب شادوان عرف نفسه
للابله بنباحه وضموره

ولكن الحق ابلج والباطل لجاج . والا كاذيب في هذه
الحياة محكوم عليها بالفشل في النهاية مهما نجحت مؤقتا وبالكساد
مهما راجت حيناً . وهي كما نوهنا سابقاً مكتوب عليها الحكم
بالاعدام في صحيفة الاقدار وسجل الازل - مهما تراخت مدتها
وطال أجلها

وما دامت وزارة ثروت باشا لا تبرح - كما نراها الآن -
تقدم للامة في كل يوم وايلة دليلاً صادقاً على تنفيذ خططها
وبرامجها وعلى المسير بالبلاد نحو بغيتها وغايتها . وما دمنا نرى
رئيسها الجليل ثروت لا يزال يسوق من ناصع الادلة على شدة
اخلاصه للوطن وفرط غيرته على مجده وحسن عطفه على أهليه
وادمانه السعى الحثيث في تقريبه من أمله وادنائيه من أمانيه يقطع
بذلك النهار جهاداً . والليل سهاداً . - أقول مادمنا نرى بطل
النهضة الحالية ثروت باشا لا ينفك يزلف الى ابناء وطنه من
بينات الآيات على بعد همته ومضاء عزيمته وعظم بطولته ما يجعله
خليقاً بقول الطائي

كل يوم تبدى صروف الليالي
خلقا من ابى سعيد عجيبا
طاب فيه المديح والتذ حتى
فاق وصف الديار والتشبيبا

اقول ما دامت هذه حال الوزارة الحاضرة من صدق
الاخلاص للوطن وحرارة الغيرة على مصلحته وشدة التفاني في
سبيل خدمته كما تشهد بذلك الادلة المتوالية والشواهد المتواترة
المتتالية فلن يبعد ذلك اليوم الذي تصبح فيه آيات الحق الساطعة

قد محقت أشباح الترهات البسباس . وعقائد اليقين والايان
قد بددت هواجس الريب والوساوس . فيهتدي ضلول ويرشد
غوى ويؤمن مشكك ويذعن مكابر وتنقشع عن أعين غشاواتها
فتبصر وعن آذان سداداتها فتسمع .

لقد المعنا فيما سبق من فصول هذا السفر أن من أقطع
الادلة على مضي الوزارة في تنفيذ برنامجها توليها الامر بنفسها في
حكم البلاد وادارتها بشكل ظاهر ملموس لا يقبل ارتياباً ولا
تشككاً على الرغم مما لا تنفك تدعيه المعارضة المتشائمة (في وجه
البراهين الساطعة) من أن الوزارة لم تصنع شيئاً من هذا القبيل
ولم تزل مسيرة يتصرف فيها الموظفون الانجليز آلة في أيديهم
يحزكونها كما شاؤوا وشاءت أهواؤهم .

تحتج المعارضة على زعمها هذا بحجة واهنة مفندة وهي بقاء
عدد مذكور من الموظفين الاجانب في الدوائر الاميرية . فهل
هذا يدل على تحكم العنصر الاجنبي في ارادة الوزراء بسحب السلطة
من أيديهم واتخاذهم اعباء وآلات لاحول لها ولا قوة ؟ ان الوزارة
لا ترى من الحكمة ولا من المعقول الاستغناء عن كل موظفيها
الاجانب في يوم أو بعض يوم . فان لهؤلاء الاجانب اطلاعا على

أسرار حركة الادارة ووقوفاً على خفاياها ومعرفة عميقة بدقائق
تركيب مكنية الحكومة وتصاريح حركاتها . فمن الخرق والجماعة
أن تتخلص الوزارة منهم دفعة واحدة بين عشية وضحاها لما هو
محتم أن يسببه مثل هذا التسرع والتهور من اضطراب أسباب
الادارة وارتباك دولاب العمل .

وماذا علينا من بقاء أوائك الموظفين الاجانب مادام ذلك
مؤقتاً الى حين ومادام زمام الادارة العامة في قبضة الرؤساء
الوطنيين تحت اشراف الوزير الواضع الخطاط والبرامج المنفذ
لها المسؤول عنها . وماذا يهمنا بقاء هذا العنصر الاجنبي مادام
لا حول له ولا قوة ولا يملك ضرراً ولا نفعاً وليس له أن يتصرف في
الادارة العامة حلاً وعقداً وابطاراً ونقضاً .

وما أحسب أن هناك شيئاً أدل على حقيقة هذه الحال
الذي نصفها ونشرحها من ذلك المنشور الذي وزعه وزير المالية
على رؤساء المصالح مقررراً فيه مسؤولية الوزارة وتوليها العمل
بنفسها بطريقة واضحة لا غبار عليها للشك ولا ظل للشبهة والريبة
وهذا نصه

« ان وزير المالية هو الذي يلي ويراقب السياسة المالية العامة
وهو المسئول نهائياً عن اعمال جميع المصالح التابعة له . لذلك يطلب

الى رؤساء المصالح .

أولاً - أن لا يتخطوا السلطة المخولة لهم الى ما هو من اختصاص الوزير ووكلائه فيما يتعلق بتعهدات تربط الحكومة أو باتخاذ قرارات أو ابداء آراء قاطعة في مسائل خطيرة
ثانياً - أن لا يستعملوا السلطة المخولة لهم ضمن دائرة اختصاصهم فيما قد يكون فيه مساس بالسياسة العامة .

ولما كان يصعب تحديد هذه المسائل بتفاصيلها منذ الآن فإنه يحسن برؤساء المصالح أن يكونوا على اتصال بوزير المالية اما شخصياً واما كتابة ليأخذوا رأيه في المسائل الهامة التي تعرض لهم »

أتريد المعارضة بعد هذا دليلاً على أن الوزارة قد تولت الامر بنفسها وقبضت على أزمة الشؤون ودفة الاعمال ؟ أم تطلب المعارضة برهاناً بعد ما عرفه الملأ أجمع من قيام معالي وزير المالية اسماعيل صدقي باشا عقب تأليف الوزارة الحالية بفحص ميزانية هذا العام قبل اصدارها ببضعة أسابيع وبحثها وتمحيصها ودرس أصولها . وفروعها وفصولها . على ضيق وقته وفادح اعباء واجباته الاخرى . مما لم يعهد في وزير مصرى قبله

وعلى هذا النحو يسير سائر الوزراء في وزاراتهم اذ يأخذون

في فحص أعمال تلك الوزارات ودرس شؤون ما يتبعها من المصالح
بجد وحدوهم لا تعرف الكلل . ولا يعرفها السأم والملل . ليضعوا
من خطط العمل وبرامجه ما يمكنهم من الاستقلال التام بأعباء
العمل دون أدنى احتياج الى مونة الموظف الاجنبي مهما علا
قدره وسمت رتبته .

أجل لقد سار الوزراء شوطاً بعيداً . وجروا شأواً واسعاً
مديداً . في تولى الأمور بانفسهم وإدارة دولاب الأعمال وتدير
دفته كل في مجاله وميدانه . إدارة الناهض بالثقل . المستقل بفادح
العبء والحمل . المحتمل كل ما عسى أن تسوقه اليه عواقب أعماله
من التبعات والمسؤولية .

ومالنا لنعلم الحق ونعترف بالواقع وذلك أن الشعب عامة
وموظفي الحكومة الوطنيين خاصة قد أخذوا يشعرون في عهد
الوزارة الحالية بأن يداً حديدية بطاشة كانت تأخذ بمخنقهم قد
انسحبت من حول أعناقهم ووطأة ثقيلة باهظة كانت تضغط على
متنفسهم قد رفعت عن صدورهم وان كابوساً فادحاً كان يجثم على
قلوبهم قد رنق جناحيه للمطير ثم حاق . وجذوة حامية كانت
تأبج فوق أكبادهم قد خمدت فاطفت . كيف لا وقد كان الموظف
البريطاني مهما صغر قدره وانحطت رتبته في العهد السالف

المنذر ربما غلب رأيه على رأى الوزير فنفذ برغم ارادة الوزير
مشيئته . لقد كنا فى ذلك العهد نجزع من امثال هذه البلايا
ونأسف ونطأطىء ذلة وانكسارا فندسيغ الشجى . ونغضى على
القذى . ونتقلب على جمر الغضا . اترانا اليوم لا نزال على
هذه الحال أم ترانا نتيه ادلالا . ونشمخ عزة وجلالا . ونزف
الاعطاف فرحا . ونمشى فى الأرض مرحا . وكيف تجوز المقارنة
بين حال كنا نختنق فيها اختناق مكبلين باغلال الرق فى أضيق
سجون الاستبداد الاجنبى وبين حال اصبحتنا ننشق فيها نسيم
الحرية فى فضاء الاستقلال الرحيب ؟ وأين الضعف من القوة
والمهانة من العزة والوثبة من الركود . والنهضة من الجود .

شنتان ما يومى على كورها ويوم حيات اخى جابر
فى مجدل شيد بنيانه يزل عنه ظفر الطائر
لا يجعل الجدالظنون الذى جنب صوب اللجب الماطر
مثل الفراقى اذا ما طما يقذف بالبوصى والماسر
فما بال اقوام لا يحمدون الله على هذا الفضل العظيم والمنة
المضاعفة وما بالهم لا يعترفون بالفضل لذويه ممن ساق الله بواسطتهم
وعلى أيديهم هذا الفوز العظيم والنجاح الباهر . أو قد خلت
قلوب من عواطف الشكر واقفرت نفوس من غريزة الاقرار

بالفضل والاعتراف بالجميل؛ أم هي برودة الحقد والكراهية
قد جمدت ينابيع الريحمة والشعور في قلوب الناس وعصفت
الضعينة والبغضاء القارة القارسة قد ثلجت انهار الاحساس في
نفوسهم . فوقف تيارها وانحبس فيضها .

ان أس الفضل والكرم والنبيل والشرف والبر والمروءة في
هذه الحياة هي شكر النعمة والاعتراف بالجميل وان أصل الرذائل
ومصدر الخبائث وينبوع المنكرات والمفاسد وعنوان الضعة
والخسة وشعار اللؤم والندالة وعلامة الغدر والفجور هو كفران
النعمة ونكران الجميل . ومن ثم ما نراه يملأ الكتب المقدسة من
كثرة الحض على شكر الاء الله ونعمائه والنهي عن جحودها
ونكرانها مع شدة غنائه عز وجل عن ثناء العباد وعدم تأذيه
او تأثره - سبحانه وتعالى - بنكرانهم وجحودهم ولكنه علم - عز
شأنه - ان الشكر مصدر الخير كله فحث عليه . وان الكفران
منبع الشر أجمع فنهي عنه

وقد قال الحكماء : الأصل في الدنيا انها هيكل ومعبد يقوم
فيه الناس بتقديس شيء واحد ألا وهو « حضرة الرجل الفاضل
المخلص الهمام » وشكر ما يسدي اليهم من غر آلائه . وجزيل
نعمائه . اجل ان هذه الدنيا تنتطوي على شيء واحد - هو الجدير

بحق أن يسمى الالهى المقدس - اذ هو عنصر كل ظاهرة الهيبة
مقدسة في هذا الوجود - وأعنى بذلك الشئ هو ما يشعر به
الناس فى أعماق قلوبهم من عاطفة الاجال والاعظام نحو الابطال
الاما جد فى كل زمان ومكان . فهذه الخلقة القدسية الالهية هي
الدليل الباهر على سريان روح الله ورضوانه بين ظهرائنا وعلى
وجود ملكوته الاعلى فوق اديم هذه الارض المستضعفة المنكوبة .
فحيثما خلت الارض من هذه العاطفة الشريفة - اجلال
الفضل والكرم والمروءة فى أهلها من عظماء العالم وأبطاله - فقد
احتجب نور الله عن هذه البقعة وقد حيل ما بينها وبين ملكوت
السموات . وقد حلت عليها نقمة الجبار واعنته . بما قد أفقرت من
أسس المكارم وينبوع الفضائل . وإيما بقعة من أرض الله كان هذا
شأنها وتلك حالها فأى خير فيها وفى أهلها وأى غبطة فى معاشرتهم
ومجاورتهم أو ثمرة فى مخالطتهم ومعاملتهم . فقد وجب على البر
الكريم أن يغادرها لتوه وساعته واهباً للشيطان الرجيم نصيبه
منها ومن أهلها وعليها وعليهم العفاء ما بقوا وما بقيت كذلك !
جبل الانسان على الطرب الى رؤية الجمال والجلال حيث
كانا . والفرح بمشاهدة الرائع المليح والتلذذ بكبار البارع الفائق -
غريزة فى نفوس البشر . بل ان الاعجاب الصادق الحق لجدير أن

محرد الروح البشرية - ولو برهة - من اغلال سخافات الحياة
ويصفيهام من شوائب خبائثها ودنائها . ولذلك قيل ان الناس يولدن
من بطون أمهاتهم عبادا - فهم لا مندوحة لهم عن العبادة
حيثما أصابوا لها موضعاً . ولقد يطيق الانسان أن يعبد الشيء
الصغير اذا كان حقاً . فأما الباطل فذلك ما لا يطيق اجلاله وعبادته
مهما أصم الآذان بطنينه الاجوف واستطار الابصار بزبرجه
المموه . وأي منظر - أصلحك الله - ادعي للرحمة والرثاء من
منظر الجماهير والجماعات يزدهمون لالقاء نظرات الاعجاب والاجلال
الى مواكب الملوك واحتفالات الزعماء وامثال ذلك من مظاهر
الفخامة المزورة والابهة الكاذبة - وليس في هذه الجماهير
المحتشدة والجموع المتكاثفة الا من اتوق نفسه الى بذل عواطف
الاحترام والاعظام واداء فرائض الاجلال والتقديس . ولكن
كم منهم يعود ادراجه مطرقاً كثيباً يشكو الى الله خيبة أمله
فيما كان قد حسب وقدر وشدة هبوط ما يبصره من الحقيقة
دون ما كان قد تخيل وتوهم . » وكذلك نري ابراهيم ملكوت
السموات والارض وليكون من الوقنين . فلما جن عليه الليل
رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قل لأحب الافلين . فلما رأى
القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قل اني لم يهدني ربي لأكون

من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا كبير
فلما أفلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون »

ان مذهب الناس فى اجلال العظماء لهو فى الواقع قطب رضى
حياتهم وعنصر كيانهما وعليه تترتب سائر فروعهما وأركانها وعلى
حسبه تتكيف جميع فصولها وادوارها - سواء فى محافلهم العامة
وسوامرهم الخاصة - وفى مساجدهم وكنائسهم واسواتهم .
فاليكن مذهبك فى اجلال العظماء أن تحرص الحرص كله على
الاهتداء الى العظيم بحق الصادق البطولة ذى الفضل الخالص
لا المزيف فانك ان اهتديت الى ذلك كان اجلالك حراً صادقاً
فادركت الخير كله والبر بخدايره و كلل النجاح مسعاك . وان
كان اجلالك كاذباً حداك الى البطل الكاذب فلو سعتك اكباراً
واعظاماً فذهبت مع الشيطان كل مذهب . وركبت من الضلال
كل مركب . واستحققت الاثم كله والشر أجمع وبؤت بالخيبة
والخذلان والخسارة . الا فويل للناس اذا عميت منهم قلوب
وبصائر فجازت عليهم أخاديع أدياء البطولة ثم خفيت عليهم مواطن
العظمة الحقيقية فتهافتوا على مظاهرها الكاذبة ! إذن لساد الباطل
وفسد الجمل الكثير من مصالح هذه الحياة ومرافقها وحل به الدمار
والتلف وظلت تعبت به أيدي البلى برأى من الناس من حيث

لا يشعرون بذلك ولا يفطنون اليه . ذلك لان هذه الحياة الدنيا
انما هي دار جد و اخلاص وليست بالعوبة ولا أخذوعة ولكن
حقيقة من أخطر الحقائق .

قال توماس كارليل : « ان الابطال مبرحوا موضع اجلال
الناس حتي في هذه العصور الفاسدة الاخيرة . ولعل الانسان لم
تتحرك في روحه عاطفة هي أظهر وأتقى . وأبر وأتقى . من اجلاله
لمن هو أعظم منه قدرا . وأجل خطرا . وما أراني مغالياً اذ قلت
ان هذه العاطفة هي الأثر الفعال في حياة البشر أو انها الأساس
الذي تقوم عليه الاديان سواء الوثنيات وما هو أرقى وأفضل
من الديانات الاخرى . فهذه الديانة النصرانية هل ترونها في
عنصرها وجوهرها سوى اجلال واعجاب وضراعة وخشوع
لذات انسانية سامية الهية - ذات أعظم أبطال العالم قاطبة - ذات
من لا أسميه ههنا بلساني بل أترك ذلك الغرض المقدس لتأملات
المصمت المقدس !

واذا انتقلنا من الدين الى غيره من مناحي الحياة وشؤونها
ألفينا في جميعها من آيات احترام الصغير للعظيم والدقيق للجليل
ومن مظاهر ولاء الوضيع للشريف ما يماثل عقيدة الايمان ومناسك
العبادة في أمر الدين . وماذا ترى الايمان الديني سوى عاطفة الاحترام

والولاء لنبي أو قديس . وماذا عسي تكون عاطفة احترام الوضيع
للشريف وولاء الصغير للكبير - تلك العاطفة التي هي في الحقيقة روح
المجتمع الانساني وعماده وقوامه الا صنفاً من عبادة الابطال . وعلى
هذا فعبادة الابطال هي أساس المجتمع وسلك نظام الرتب والدرجات
في سلم الانسانية - ذلك الاساس الذي يقوم عليه صرح العمران
وذلك المحور الذي يدور عليه دولا ب التعاشر والتعامل - حتى
ليصح لنا أن نسمى مذهب « عبادة الابطال » « هيرواركي » أي
« حكومة الابطال » - فالعظماء والابطال وذوو الرتب والمقامات
في الامة يكونون لها بمثابة الاوراق المالية تمثل الذهب وتقوم
مقامه وان اتفق أحياناً لسوء الحظ أن يجيء الكثير من هذه
الاوراق المالية مزيفاً مزوراً . فنحن قد نحتمل الاوراق المالية
ونعيش بها وان وجد بينها المزيف المزور . فاما أن يكون كلها
مزيفاً فذلك مالا يطاق ولا يحتمل ولا يستقيم به عيش ولا حياة
وإذ ذاك تهيج الفتن وتقوم الثورات ويهيب الناس يصيحون
« المساواة المساواة ! » إذ تزول ثقتهم في الاوراق المالية الصحيحة
أو الذهب أعني تزول ثقتهم في الابطال فيظنون أن البطل المرتفع
عن منزلة الاعتيادين من الناس مفقود لا وجود له وان عبادة
البطل ضرب من الخرافة والخيال والحقيقة ان صنف البطل

وعباد الابطال موجودة في كل زمان ومكان فهي من العناصر
المكونة منها الانسانية ولن تزول حتى يزول الانسان من
الوجود.

لقد فشا في هذا العصر الفاسد رأى فاسد - ذلك هو
انكار وجود الابطال بل كراهية وجودهم . اذا ذكرت للمرء
بطلا من ابطال العالم الذين انقذ الله بهم الدول والعصور
من وهدة الخراب والدمار أخذوا يعيبونه ويتقصصونه وأوسعوه
ذمًا وقد حاثم زعموا ان ما يعزى اليه باطلا من البطولة انما هو
في الحقيقة مستعار مما أحاط به من الظروف الخاصة والاحوال
النادرة يقولون « الوقت هو الذي خلق ذلك البطل فهو سليل
تلك الآونة وابن هاتيك الساعة ولولا ظرفه الخاص لكان كأي
امرء عادي - كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون
الا كذبا ! يزعمون أن الوقت هو الذي احاره ثوب البطولة
الوهمي وافاض عليه نور العظمة السرابي - وانه في الحقيقة لا بطل
ولا عظيم . وان كل ما جرى عليه من عظيم المآثر وجليل الفعال
ليس من صنعه بل من صنع الوقت . فمتى كان الوقت هو الذي
يصنع الخوارق ويأتي بالمعجزات . لقد طالما رأينا الوقت يصيح
أين البطل العظيم وينادي هل من فتى همام وفارس ضرغام يقيم

اودى ويصالح مفاسدي وينقذني مما أنا منحدر اليه من وهدة
التلف وهاوية البوار فلا يجد من يجيب دعاءه ويأبى نداءه - ويدور
بعينيه في فضاء الله فلا يري بطلا ولا عظيما
انى أنغمض عيني ثم أفتحها

على كثير و اكن لا أري رجلا

وبعد أن يبح النداء صوت الوقت ويقطع الدعاء حنجرتة
تخور قوته وتبيد منته ثم تنهار اركانها ويتقوض بنيانه ويعمه الفساد
ويشمله التلف والخراب وما ذاك الا لأن البطل لم يدركه في
ساعة محنته وبلائه ولان العظام لم يكن اذ ذاك موجودا ولم تكن
القدرة الالهية قد خلقتة وأرسلته هدي ورحمة للعالم

والواقع أن غوائل التلف والفساد ما كانت قط لتصيب
عصراً من العصور لو أنه أتيح له رجل عظيم يجمع بين العقل
والعزيمة - بين عقل يعرفه حاجة العصر وعزيمة يستعين بها على
قضاء هذه الحاجة - فيبلغ بعصره غاية الامل والمني ويصل به الى
مدى الفوز والسعادة . فاما العصور الفاسدة الخربة المصابة بداء
الشك والحيرة والكفر والجحود فهي في مذهبي أشبه شيء
باكداس الخطب اليا بس الميت تنتظر من السماء شهاباً يسقط
عليها فيذكيها ويشعلها حريقاً وما الرجل العظيم يتاح من جانب

الله لمثل هذه الاكداس الذابلة الميتة يحميها ويوقظها الا ذلكم
الشهاب الساطع - يؤدي إلى العصر رسالته وينطق كلمته . فاذا
فيها شفاء الغلة . وبراء العلة . واتحاد الآراء . واتفاق الاهواء .
وانتظام العقائد والمذاهب . وائتلاف المقاصد والمشارب . فما هو
الا أن يقع ذلكم الشهاب على تلكم الاكداس المكدسة من الخطب
اليابس الميت حتى يتأجج سعيراً . وبعد ذلك يجيئك الجاهل
السخيف الغبي الجامد الطبع المظلم الروح الذي لا ينهم معنى العظمة
ولا يفقه سر البطولة فيهزأ ويسخر من ذلك الشهاب الذي أشعل
اكداس الخطب الذابلة بشعلة ذكائه الوقاد وجذوة عزمه المتسعر
فيزعم أن اكوام الخطب الميتة هي التي خلقت ذلك الشهاب
واوجدته من العدم . ياللسخف ويالللحماقة !

الا انما يفهم الفضل ذووه ويفقه المروءة أهلها . والبطولة
سر لا يدركه الا من تعرف معناه في صميم قلبه وتسمع نجواه في
ثنايا ضميره . وقدما قيل : ان البطل لا يمكن أن يكون بطلا في
عين خادمه . وليس اللوم في ذلك على البطل بل الخادم . ولو نظر
الخادم الى البطل بعين تستمد شعاعها من روح بطل لعرف بطولته
ولكنه ينظر اليه بروح خادم سوقى عامى من طائفة
الطغام والغوغاء . ولهولاء مذهب آخر في البطولة يتفق مع

نذالتهم ولؤمهم ودقتهم ومع سفلهم وضعتهم وخستهم - وهؤلاء
ايضاً ابطالهم وعظماؤهم الذين يأتون من الاعمال والوقائع ما يعجب
نفوسهم الخبيثة وارواحهم القذرة - فاولئك في نظرهم هم الابطال
والعظماء حتماً ولا بطولة الا بطولتهم . ولا جرم فمن ذا الذي قال
ان الحشرات تطربها نغمات موسيقى الطبيعة أو يروعها سناجدة
النيرات في ابراجها والكواكب في افلاكها - بل الله وعلماء
الحشرات اعلم بالذي يطرب تلك المخلوقات من دقيق الأشياء
وحقيقتها مما لا تراه العين الا بالمجهر لفرط ضؤلته وخسته
اما انه ما بلى جيل من الاجيال ولا نكب عصر من
العصور بأفة هي انكر وانكى . وامر وادهى . من آفة التكذيب
بعظمة الابطال وجلالهم . والكفر بحسناتهم وآلائهم
اما انه ليس شيء أدل على سفالة الافراد والمجاميع ولا اشهد
على لؤم غرائزهم ودقة اخلاقهم وخسة طبائعهم ولا انهم على غباوتهم
وجهالتهم وسخفهم وخرقهم من انكارهم قوة البطل ومقدرته
واقرارهم للجماهير والجماعات الاعتياديين بالفضل العظيم والعقبرية!
من كفرهم بالبطل الفذ النادرة وابمانهم بالامامة والديهام ! من
عماهم عن نور الله المقدس . عن الشهاب الساطع واعتقادهم في
اكذاس الخطب اليابسن الميت !

هذا وايم الله الغفلة التامة والجهل المطبق والخسة والدناءة
ومنتهى الحق والبلادة واقصى غاية الكفر والجحود . فها علم
امثال هؤلاء ان الرجل العظيم مازال منذ بدء الخليقة كوكب
الهداية في الظلمات . وزورق النجاة في الغمرات . وسهم الرشد
مسددا الى كبدة الغواية . وسيف الحق مجردا على هامة الضلال
والعماية . وانه الشهاب الذي لولاه ما شبت النار في الهشيم ولا
تأجج الخطب ضراما ؟ أليس البطل هو مصدر النور تنعكس
اشعته على الاجرام المعتمة . وينبوع الحياة تفيض انفاسه
في الاشباح الخاوية المعدمة . وهل تاريخ العالم الا سلسلة حلقائها
نوابغه وابطاله ؟

ولا يسعنا الآن في مقام وصف الابطال والبطولة الا التنويه
بذكر بطل من أعظم أبطالنا وزعيم من اكبر زعماء نهضتنا وأمر
قواد حركتنا . ذلك هو دولة الرئيس الجليل حسين رشدي باشا
وكيف يتصدي امرؤ للكتابة عن ابطال النهضة الحالية ثم
لا يدفعه الشعور والواجب الى وضع صورة هذا البطل العظيم في
متحف المجد القومي ونصب تمثاله في هيكل الوطنية المقدس ولم
يكن في كل شوط من اشواطه الطرف الاغر في حلبة الجهاد .
والفارس المعلم في كتيبة الكفاح والجلاد . أم هناك من ينكر انه

انه ما زال الجوهرة الكريمة في قلادة مآثرنا. والدررة اليتيمة
في تاج مفاخرنا؛

ان أول ما يروع المشاهد المتأمل من منافع رشدي باشا
ومحامده اجملة العديدة هو ذلك الاخلاص الحار والغيرة الملتهبة -
ومالي لا أقول ان ذلك البطل العظيم انما هو جذوة حمية متقدمة
وجرة ايمان متأججة. أولم نره في مواقفه العديدة في حومة
النضال عن حتموق وطنه كيف كانت انفته وأباؤه. وشممه
وكبرياؤه. وكيف كانت عواطف الوطنية الحادة اذا ثارت في
جنانه وجاشت في وجدانه فتألق وهجها في حر وجهه الكريم
ولمع شعاعها في عينه الصريحة قذف بها منطقة الشريف في وجه
الخصوم جهاراً كلمات صدق وآيات حق لا تسد سبيلها حجب
المدح والمجادة ولا تقوم من دونها حوائل المداراة والمصانعة
شأن الذي لا حد لصراحته واخلاصه. وقد ما كان الاخلاص
عنصر البطولة وأساسها. أجل ان الاخلاص الشديد العميق
هو - كما قال «كارليل» أس فضائل الرجل العظيم. ولا نغنى
اخلاص من لا يزال يعجز أمام الناس باخلاصه - فان ذلك -
وأيم الله - عيب ومنقصة - وهو اخلاص سطحي حقير وقبح.

بل غرور وسفاهة . انما الاخلاص اخلاص من كان مثل رشدى
لا يباهى به ولا يفاخر ولا يكاد يحسه أو يشعر به اذ كان فى نفسه
فطريا غريزيا فهو معدن روحه وجوهر نفسه

ان ما يبدو لنا صريحا من فرط اخلاصه وعطفه وحبه لا بناء
وطنه وعطفه على امانتهم وغيرته على مصالحهم هو ذلك الذى
يدنيه منا ويصل ما بين قلوبنا وقلبه الكبير بامتن روابط الحب
واسلاك كهرباء الشعور المتجاوب والاحساس المتبادل . فعينه تم
عن نجوى ضمائرنا ومكنون سرائرنا . وفؤاده يخفق على دقات
أفئدتنا ونبضات قلوبنا . والرجل المخلص الغيور يراه الشعب
فيعرف لا ول وهلة انه فتاه وبطله وبغيته وصالته . وما زال الرجل
العظيم يحقق الظنون ويصيب مكانه ومركزه من زعامة الشعب
وقيادته - اذ يكون مجرد ظهوره كفيلا أن يفسح له المكان
اللائق به ويجذب اليه الانصار والاعوان ويخلق له الاسباب
والوسائل والمدد والذخائر فهو فى ذلك كالجدول الفياض يخلق
بذاته لذاته صفافه . الخصبه المريعة المنتجة المثمرة حيثما جرى
وتسلسل .

لقد جاهد رشدى فى سبيل الوطن حق جهاده وأبلى فى
الدفاع عن القضية أحسن البلاء وكان فى طليعة من عملوا على تحقيق

ما قد تم لنا من الفوز والنجاح وحسبه فخاراً انه أهدف صحته
النفيسة الغالية في سبيل بلاده لسطوة المرض وأبلى في محبة
وطنه سربال عافيته العزيزة على جميع مواطنيه وان ارتخصها هو
- سلمه الله وعافاه - وامتزها في خدمة مصالحهم . وقد ثبت في
الميدان ثبات الصناديد على رغم ما كان يقاسى من برحاء العلة .
شأنه في ذلك شأن الفارس المغوار لا يثنيه عن الكر في حومة
اوغى ما قد أصابه من طعنات الاعداء . دأبه ذلك الى أن خرج
من المعركة أغرأ بالج وضاء الجبين يحمل علم العزة والنصر وما هو
أشرف من ذلك وأنبل - أعنى جرحه الدامي الاليم !
حيا الله رشدى باشا !

الفصل الرابع مناقب ثروت باشا

نقف الآن وجهاً لوجه أمام شخصية من أعظم ما انجبت
هذه البلاد من الشخصيات الجليلة نحاول جهد طاقتنا بيان
ما اودعت من آيات القوة والنفوذ ودلائل الفضل والحجى
وتحليلها الى ما يكون مجموعها من عناصر الذكاء واللذة
وأسرار النبوغ والعبقريّة. هذا ما نرومه الآن وما نحاوله وان
كان فوق قدرتنا الضئيلة وحولنا الضعيف لأننا نعلم ان البطل
لا يزال اغزاً يعي الناس حله وان ما يظهر لنا من مآثره وحسناته
ثمار تختفي جذورها في أعماق سر الطبيعة وخفايا مجاهل الابحاث
البسيكولوجية. ونعلم أن تهجم الكتاب والنقاد على شخصية
الرجل العظيم ابتغاء تعرف اسرارها وتحليلها الى عناصرها يكون
في الغالب كتهافت اسراب الفراش على الشهاب المتقد يبهز
ابصارها ويحير البابها وقصارها بعد ذلك أن ترد عن لهيبه الساطع
برؤوس مطرقة. واجنحة محرقة.

ولكننا على الرغم من كل هذا - ويباعث غريزة الاستطلاع

الفنى التى تدفع كل فنى الى الجرأة على اعوص مطالب فنه وابعدها
غورا نحاول الآن ان نجول جولة فى عالم هذا النبوغ العجيب .
ونسبح سبحة فى خضم تلك العقبرية المهيبة . لعلنا أن نعود من
هذا وذلك بقليل من نفائسها الجمّة وثروتها الطائلة .

ثروت باشا رجل عظيم قد توافرت فيه شرائط العظمة التى
اساسها قوة الشخصية المتسلطة على النفوس والاذهان بسحر
الجازبية . ومن ثم ما يعهد فيه من تفوق ملكة البيان وخلابة
المنطق فى جميع مراتب الكلام . من اسمائها اعنى الخطابة فى الجماهير
والمحافل الى ادائها اعنى التهامس والمسارة .

لقد عرفنا ثروت فى جميع ادوار حياته منذ كان نائبا عموميا
وقبل ذلك الى وقتنا هذا الذى يتربع فيه دست الوزارة ويدير
دفتى الادارة والسياسة - خطيبا مصقعا ومنطقيا مفجعا ومتكلما
مؤثرا خلابا . لقد عهدناه فى كل ادواره ساحر البيان يقتاد افكار
سامعيه فيمكنه ذلك من اقتياد ارادتهم حتى يحجب اليهم من
الاعمال والاغراض ما كانوا يستنكرونه - جهلا منهم بفوائده -
منذ ساعة فيحملهم على الارتياح الى مزاولته بعد احجام عنه ونفور
وايسر بعسير على من بلغ من سحر البيان والخلابة منزلة الرئيس
الجليل ثروت باشا أن يلعب بالباب سامعيه فيقرع بها أوتار السرور

تارة وأوتار الحزن أخري وآونة يبعث منها رنات الندم والاسف وآونة
صدحات الحبور والطرب . ومثله قد ير أن يسيل بقوة بيانه سخائم
الصدور ويستأصل جذور الضغائن والاحقاد حتي يترك العدو صديقا
حليفا . والضد صاحبا أليفا . ويملا القلوب اليأسه رجاء وأملا .
والنفوس الموحشة أنسا وجدلا . أو لم تحدث خطابه الاخيرة الرنانة
أمثال هذه الآثار الحسان في نفوس الشعب المصري الكريم يوم
نزلت على القلوب بردا وسلاما وبددت ما كان لا يزال عالقا بنفوس
الكثيرين من بقايا الريب والظنون والقلق والاشفاق فكأن في
آياتها البليغة جلاء الشبهات وفي حججها الدامغة زوال الظنون
وكانت منفاة الهموم والاتراح . مدعاة المسار والافراح .

ان مثل الوزير الجليل ثروت باشا اذا قام يخطب أو انبرى
يتحدث خيل اليك كأنما يصب تيار روحه الزاخر في أرواح سامعيه
فيمتلك نفوسهم ويستحوذ على ألبابهم ويققاد أفئدتهم بأعنتها .
ثم يرى نفسه أحق بالخطابة من سائر المتصدين لها اذ كان أغزرهم
مادة وأملاهم وعاء فينبههم للكلام وانه لا جدربه وأولى . واذ ذاك
يصغر بجانبه الخطباء ويتضاءلون . ثم يذهلهم فرط السرور بسماع
مطربانه عن الاشتغال باحساسات الحسد والحقد وغيرها من
نزعات الانانية فيرتاح كل سامعيه الى التضاؤل في حضرة ويلذ

لهم أن يغمسوا أرواحهم في معين بلاغته الفياضة ويغمروا نفوسهم
برحيق بيانه المنعش . فمثل هذا الخطيب المصقع والمحدث البارع
يملأ الساعة التي يقضها بالخطبة أو بالحديث من بدائع آياته وروائع
معجزاته بما يجعلها غرة في جبين العصر ويترك غيرها من ساعات
حياتنا الاعتيادية وكأنها بالنسبة الى تلك الساعة الغنية الفياضة
ساعات نوم ورقاد . فمن ذا الذي يعجب بعد ذلك لفرط ما أوتي
أمثال ذلك الخطيب من التأثير والنفوذ والسلطان على
نفوس البشر ؟

ثروت باشا خطيب عظيم ومن اجل هذا كان بطالا - لأن
قوة الخطابة نوع من البطولة . ذلك لأن الخطيب العظيم يقف
من جماهير سامعيه موقف المبارز المناجز المستعد لملاقاة كل قادم
فهو قد وطن النفس على أن يكون في كلماته الحارة المتألقة . وفي
عباراته الثرة المتدفقة . ما يقنع جميع سامعيه مهما تكاثروا عددهم
ويفرحهم ويشفي غليلهم ويكون فيه الجواب المسكت على كل
ما عساه أن يجيش بصدورهم ويجول في خواطرهم من الشكوك
والظنون والاسئلة . لذلك ترى مثل هذا الخطيب اذا قام يخطب
في المحافل وقف وقفة المشمر المنجرد المتحفز بقدم متقدمة الى
الامام كالذي قد هم ان يزحف على تلك الجموع المحتشدة ويغزوهم

وتلك هي الحقيقة لأنه يزحف عليهم فعلا بجيوش من افكاره
البديعة السامية ويغزوهم بكتائب من آرائه الجديدة المبتكرة .
لذلك يجب أن تكون خطبته سابقة في منازل الرقي لافكار
سامعيه ايا كانوا - بل سابقة لافكار جيله ودصره والا كانت
فضولا وانغوا وهراء . ومن ثم كانت الخطبة الجليلة اجدر أن
تعد عملا نافذا من ان تعتبر مجرد كلام والفاظ . اذ هي في الواقع
كهرباء العمل والحركة . فهي تنطوي على القوة الدافعة الى الاعمال
- شأنها في ذلك شأن ما يرسمه قائد الجيش من خرائط المواقع
والملاحم وما يصدره من أوامر السكر والفر والدفاع والهجوم .
وكذلك الخطيب إما أن يكون قد جاء لأمر عظيم - ليستنهض
جماهير سامعيه ويستنفذهم الى استئصال جيوش الابطال
والاضاليل والى افتتاح عوالم جديدة من الاراء والافكار -
فتكون خطبته مناداة الى الغزو وصيحة الى الجهاد - والافاوى له أن
يسكت .

- ان ثروت باشا باعتباره خطيبا مفجعا ومتكلما خلايا يؤثر
في سامعيه ويقنعهم ويحملهم على اتباع رأيه والأخذ بمبدئه وذلك
بفضل ما يجلو لهم من غوامض الأمر ويحل لهم من مشكلاته
وباعارته اياهم بصيرته النافذة ورويته الثاقبة ينظرون بها في نواحي

الموضوع وجوانبه ويتغلغلون بمنظارها الكشاف الى خفاياه
وخبائياه فيبدو لهم الأمر على خلاف ما كانوا يعمدون وعلى
العكس مما كانوا يحسبون فاذا السواد بياض والفساد صلاح
والتنافر وئام والاعوجاج استقامة والسوأة حسنة واليأس رجاء.
فمثل ثروت باشا اذا شاء اقناع سامعيه وحملهم على ما يريد رأيته
ينظر الى الامام ويتجه بنظره البعيد الى ما سيكون - في حين
ترى سامعيه قد جاؤوه وهم ينظرون الى ما كان من الامر وما
انقضي اعني الى الماضي وما قد انكروا من حوادثه واحواله .
فنظرهم بذلك الماضي معقود وفيه محصور ومن ثم كان قصر
نظرهم وضيقه واحتباسه في دائرة صغيرة محدودة يترددون
فيها ويتعثرون كخفافيش في ظلمة الشك والحيرة - وقد يئسوا
من استقامة الأمر وصلاحه - اما هو (اعني ثروت باشا) فغير
ذلك شأنه وما كان من زمرة الخفافيش حتى يحصر نفسه في
دائرة الماضي الضيقة ويحبس نفسه في ظلمتها (وان كان لا ظلمة
مع شهاب رأيه الساطع ونجم فكره اللامع) ولكنه - وهو
ذلك النسر الطامح - يضرب صفحا عن الماضي المنقرض الدائر
ويستقبل بعينه الثاقبة شمس المستقبل الباهرة فيصفق في شعاعها
البراق جناحيه الطموحين ويستدر عليهما قطرات انداء البشارة

من مزنة الامل الصدوق والرجاء المحقق ويستهبط آيات الوحي
والالهام من آفاق المستقبل المشرقة. وكذلك اذا استدبر القوم
المعارضون امرهم وتشبثوا باذيال الماضي واعقابه فاوصدت في
وجوههم أبواب الاراء واغلقت منافذ الافكار وانحبس عنهم
فيض الخواطر الا ما يصبوب عليهم من اليم الذكريات مما تكف
به سحائب الماضي المنقشة - رأيت ثروت باشا ذلك الهمام الطماح
العزيمة والاريب الثاقب البصر والروية يضرب صفحاً عن ذلك
الماضي ويعمد الى معين ذهنه الفياض وينبوع قريحته المتدفق
فيغترف من ثمت سجال الرأي السديد . والفكر الأنف الجديد .
ثم يستطلع نجوم فراسته الصادقة فيتماس في صفحها المشرقة طوالع
السعود أو يتسقط من شوابك أفنان شجرتها الذهبية أوراق
اليمن والبشارة . وحينئذ يقبل على سامعيه فيباغتهم من سوانح
الهام بصيرته وخطرات وحي بديته بما يبدد سحائب شكهم
وريبتهم . وينفر اسراب خوفهم ووحشتهم . وهناك يبصرهم من
غوامض أسرار الأمر وخفايا دخاله ما لم تكن نظراتهم السطحية
لتستطيع من قبل أن تكشف نقابه . وتهتك حجاباه . هنالك
يفيض اناءه المفعم الملائن في اوعية صدورهم من مادة العلم والعرفان
ما يبرز لهم الموضوع في مظهر آخر وضياء جديد وشكل مستحدث .

حتى تراه يفتن الباطل ويسحر عقولهم ويملؤهم دهشة وعجبا كما لو كانوا زمرة أطفال فينسيهم أفكارهم القديمة في الموضوع ويذهلهم عما كان يخالج نفوسهم فيه من فاسد الاعتبار والاهام . وكذلك ينتصر عليهم بقوة التكهن والتنبؤ وقد كانوا يحسبون انه لا يملك من سلاح الاقناع الا تكرار البراهين المعروفة المتبذلة والعبارات المرددة والكلام المعاد .

وانى كلما تأملت ماقد أوتي الرئيس الجليل من قوة الخطابة وسحر البيان وخلاصة التأثير تذكرت مقاله توماس كارليل في وصف ذلك العبقرى النابغة نادرة زمانه . ومعجزة أوانه . الشاعر الاعظم البريطاني « روبرت بارنز » ورأيت أن الناقد المتصدي لوصف ما يمتاز به الرئيس الجليل من الملكات البيانية والخطابية الرائعة لن يستطيع أن يبلغ غرضه بأحسن من ترديده في الرئيس مقاله سالفاً توماس كارليل في بطل أمته روبرت بارنز

قال ذلك الكاتب الكبير « كان بارنز آية في خلاصة المنطق وسحر البيان - كان حديثه العادى أبدع من شعره وأفقت من حديث كل من رأيت وسمعت به من سائر الناس .

شرك العقول ونهزة مامثلها للمطمن وعقله المستوفز
ان طال لم يغال وفي ايجازه يهوي المحدث انه لم يوجز

كان حديثه كالسلم الموسيقي قد استوعب درجات النغم من
أخفت جرس التحية وأرق كلم الملائكة الى أرفع صيحة الغضب
وأشد صرخة الوجد . ففيه ضحكة الطرب الجذلان . وزفرة
الصب الوهّان . وإيجاز المجتري بإشارته . وأطناب وليم بيت
في خطابته .

وقد روت عنه السيدات والاميرات ربات الادب البارع .
والفضل الرائع . انه كان يزدهيهم بفتنة حديثه ويستحلفهم بخلاصة
بيانه حتى يكمن يثبن في الهواء ويطن في الجو . فهذا وايم الله
عجيب . وأعجب منه مارواه النقادة الجهبذ المستر لو كهرت من
أن خدام الفنادق كانوا اذا رقدوا في مضاجعهم للرقاد ورنقت
سنة النعاس في أجفانهم ثم سمعوا صوت الشاعر بارنز يتكلم وثبوا
من مراقدهم فالنفوا به وكلهم اقبال عليه واصغاء لحديثه . ومالي
أعجب من ذلك ؟ اليسوا رجالا ينصتون الى رجل ؟ وأعظم
ما يؤثر عن بارنز مارواه لي شيخ مسن كان من أخص أصدقائه
— من أن بارنز ما فتح فاه قط الا لقي منه حكمة . قال ذلك الشيخ
« لقد كان بارنز كثير الصمت فاذا تكلم جلي من غوامض الامر
وأنا شبيهاته . ولا أدري لماذا يتصدى امرؤ للكلام اذا لم يكن
قادراً على هذا . »

إذا قلنا ان ثروت باشا قد حذق فن الخطابة فانما نعني بذلك
انه قد استكمل أدوات هذا الفن وملكاته : أعني صفاء البصيرة
وقوة الذاكرة وحسن البيان . ومتانة الحجة والبرهان وحدة
الخيال - أي القدرة على ابراز افكاره في صور طبيعية ناصعة -
ويضاف الى ذلك الارادة النافذة القوية التي اذا تجملت بالثبات
والنزاهة كانت جدرة أن تسمى « الخلق العظيم أو العظمة
الاخلاقية » وتلك هي اسمى مراتب الرجولة
لاشك في أن السر في نجاح ثروت باشا كمنظر وخطيب
- يرجع الى قوة أعظم من البراعات اللفظية والمحسن الظاهرية
كدمانة الطبع وحلاوة الشيم ورقة الشمائل وعدوبة اللفظ والصوت -
يرجع الى قوة خلقية كبرى وملكة وجدانية عظيمة - أعني
الاخلاص والايمان ورسوخ العقيدة بما يدافع عنه ويحاول اثباته
من النظريات والمسائل . فهو يقبض على ناصية نظريته ويعتقها
أشد اعتناق وأحره . والحرارة - نتيجة الاخلاص والايمان -
هي العامل الاكبر في قوة الخطابة ونجاحها . فاذا أردت أن تفلح
في خطابتك فكن كالرئيس الجليل غير متعرض الا لما أنت به
عالم وموقن وخبير وكفيل أن تحتمل تبعته ومسئوليته وتقديم
عنه أوفى حساب وأدقه . فانما الخطابة والبلاغة أن تعمد الى الحقيقة

الخطيرة الجائلة في وجدانك فتترجمها الى افهام سامعيك باقرب لغة
وأعلقها بأذهانهم وأوقعها في نفوسهم . ولا مراة في أن هذه
القدرة العظيمة - هذه الكيمياء العجيبة التي تستطيع أن تحول
الحقائق المنقوشة بلغة الخالق على صحف الضمائر المرقومة بالقلم
العلوى في سجلات السرائر الى حقائق مؤداة بلغة سامعيك من
الجماعات والافراد هي أبداع سلاح طبع في مسبك الصانع الاجل
والصيقل الاعظم

لا نغنى بلغة الخطيب التي ينقل بها افكاره الى اذهان
سامعيه مجرد ما يفوه به من الالفاظ والعبارات - وهذه أحقر
وسائل تأديته وأيسر وسائل ابلاغه - وانما نغنى ذلك التيار
الروحاني المنبعث من ينبوع نفسه والسيال الكهربائي المنبث من
جهاز أعصابه . وكما ان القائد العظيم يحرز النصر لا بكثرة الوقائع
والملاحم ولكن بفضل ما يدبره من الحيل والمناورات فكذلك
الخطابة والمناظرة هي حرب افكار وارواح . فالالفاظ المنطوقة
هي أضعف عناصر الخطبة وأقل أجزائها . وانما الاساس الجوهرى
الذى عليه المعتمد والمعول هو موقف الخطيب وما تنم عنه هيئته
وصوته ونغمته وحركاته وشمائله من قوة رجولته وسمو همته ومن
انه يحمل بين جنبيه روحاً أجلاً واعظاً من روح الخاطب .

هكذا شأن فحول الرجال الذين يصلون في ميادين الخطابة
والمناظرة بقوة شخصيتهم الهائلة ويسيطرون على النفوس بسلطان
الروح النافذة الباهرة . والطبيعة الغالبة القاهرة . وبهذه وتلك
يحرزون الظفر وينالون الغنيمة . وقد روى عن روبسبير - أحد
الثلاثة الزعماء المعروفين في عهد الثورة الفرنسية - ان سامعى
خطبه من الجماهير والجماعات كانوا لا يكادون يفهمون كلماته ولاكنهم
كانوا على الرغم من ذلك يفهمون في خطبه الرنانة ما هو أعظم
وأخطر من الفاظها وعباراتها - كانوا يفهمون ما اودعت تلك الالفاظ
من حرارة الوجدان ونارية الشعور والعاطفة - وكانت عدوى
هذه الحرارة والنارية تنتقل اليهم وتسرى في اعصابهم وتشيع في
جوانحهم وهل يريد الخطيب نتيجة أعظم من هذه أواثراً أشد وأبلغ؟
مثل هذا النوع من الكلام والخطابة وان كان اثره
الفعال مضموناً محتوماً قد يكون من الزور والباطل وقد أريد
به التمويه والتضليل واتخذ سبيلاً الى الفساد ومطية الى الشرور
والرذائل . نقول قد ينجح مثل هذا الكلام الخلاب المؤثر في
النفوس بسلطان شخصية باهرة لكننا غير مخلصين - ولكن نجاحه
لا يكون الا مؤقتاً - لان الكاذب والباطيل هي كما قلنا غير مرة
رهينة بالزوال والفناء قد كتب لها الموت وصدر عليها حكم الاعدام

في محكمة الازل مهما طال عمرها وتراخت مدتها . فانت اذا بنيت
خطابتك على أساس من الباطل وكانت مقدمة قياسك المنطقي
أكذوبة فهمما استعملت بعد ذلك من خلاصة اللسان . وسحر
البيان . ومهما أثرت في سامعيك بحرارة العاطفة ونارية الوجدان
وبهرتهم بقوة الروح القاهرة وغلبة الشخصية الباهرة . فانك ان
تصنع شيئاً ولن تحدث في عالم الحقيقة أثراً وتكون انما انتهيت
من حيث ابتدأت . وما كان امرؤ قط ليستطيع بأكل عدد
الفصاحة وأمضى سلاح البلاغة أن يرفع الى ذروة الحق من
فنون الباطل ما تراها يهبط بطبيعته الى الوهدة ويهوى الى
الخصيخ .

أما الفوز الدائم والنجاح النهائي فذلك نصيب البارعين
المخلصين والحاذقين الصادقين أمثال الرئيس الجليل ممن جموا
بين رجاحة العقل ونزاهة النفس - بين حدة الذكاء وشدة الغيرة
والتضحية - بين الملكات الذهنية والفضائل النفسانية - بين سمو
الفكر والروح معاً . وصفاء الذهن والقلب جميعاً .

لقد بلغ ثروت في براعة الخطابة والبيان منزلة أصبح معها
مليئاً أن يقتاد أعنة قلوب سامعيه فتدعن اليه وتعنو فهو المسيطر
على نفوسهم المتحكم في عواطفهم ووجداناتهم . وقدما قيل : ليس

الامير من لبس التاج وجلس على الاريسة . انما الامير من عرف
كيف يحكم النفوس ويسيطر على الافئدة . وكأني بالرئيس الجليل
يستطيع بحدة ذكائه أن ينفذ الى اعماق القلوب عايما بذات
الصدور مطالعاً على مكنوناتها طباً بادواء النفوس خبيراً بأمراتها
وعلمها قديراً أن يداوى هذه العلل والادواء بخلاصة القول - لديه
لكل جرح بلسم من فتنة اللفظ ولكل كلم مرهم من روائع
الكلم - فنون شتى من البيان . تعالج بها فنون شتى من آلام
النفوس والجنان . ولا عجب فلقد يؤثر عن « انتيفون » اليوناني
أحد الخطباء العشرة الذين روى « بلوتارك » أنهم أقطاب الخطابة
في العالم - أنه نشر في أتيناً اعلاناً عن نفسه قال فيه « اني مستعد
لتطبيب أمراض الذهن بالكلام ومداواة علل النفس بالالفاظ »
وليس ذلك بمستحيل . وقوة سلطان الكلام معروفة مجربة في
كل زمان ومكان منذ كان الانسان وآثار الالفاظ في التسايط على
الامزجة والعواطف والاحساسات وفي العقائد والافكار
والمذاهب وتكييفها وتشكيلها حسب أميال المتكلم وفي قلب
كيان الأذهان والنفوس في الافراد والجماعات - بل قلب كيان
الدول والممالك تعد من قبيل الخوارق والمعجزات . وهمل ترى

— اصلحك الله — ما يسمونه الرقي والتعاويد والنفت في العقد الذي
نزلت فيه آية الكتاب الحكيم اذ يقول جل شأنه « ومن شر
النفاثات في العقد » وغير ذلك من ضروب السحر وفنونه — شيئاً
سوى الالفاظ والكلمات ؟ وهل رأيت رجلاً بلغ من النعيم
أقصاه . ومن الصفاء والرغد منتهاه . فوثق بالحظ وأمن من
طوارق الحدثنان . وأخذ على القدر الميثاق ومن الدهر الأمان .
الا كان في استطاعتك — ان كنت ممن أوتى سحر البيان أن
تبدد ثقته وتذهب طمأنينته وتورثه القلق والاشفاق باللفظة
تنبذها في سمعه . والكلمة تلقيها في روعه . أفلم يرو لنا التاريخ
أمثال هذه الحال عما كان يحدث بين الملوك ووعاظهم من العباد
والنساك اذ كان يطلع الناسك على الملك العظيم وهو منغمس في
غمار اللذات والملاهي فيرميه بالكلمة من الوعظ فاذا هو قد أفاق
من غمرته . وهب من رقدته . ثم أطرق فاعتبر . وارعوى فازدجر .
ألم نقرأ أمثال هذه الاخبار عن كسرى والسائح وعن النعمان
وعدي بن زيد وعن المنصور وخالد بن صفوان ؟ وعلى العكس من
هذه الحال — أى كارثة عظيمة أو فاجعة ألحمت تنوب الفتى فلا يكون
في مقدرة المنطق الخلاب أن يشرع في تسكين حدتها . وتلطيف
سورتها . وقد عرف أفلاطون البلاغة بأنها « فن سياسة العقول

وتدبير حركات النفوس ». أليس في استطاعة البلاغة أن تغير
في ظرف سويغات ماشيدته الحقب والاجيال من العادات
والاخلاق والعقائد ؟

وكذلك قد يبلغ من سيطرة الخطيب العظيم مثل ثروت
باشا أن يصبح جمهور السامعين بين يديه كالآلة الموسيقية بين
يدى المطرب البارع - فهو يعزف على أوتار القلوب كما يعزف
المطرب على أوتار آله ويستثير من أفانين الاحساسات والعواطف
من جمهوره أمثال ما يستثيره المطرب من أفانين الاصوات
والالخان من معزفه - فتارة يسكن تائرة غضهم ويطفىء نيران
وجدهم ويرد شارد حامهم وعازب رشدهم بتهدئة خواطرهم وطمأننة
قلوبهم وأخرى يهيج حميتهم ويجرد عزيمتهم وهمتهم . يبكيهم أنا
وأنا يضحكهم . اذا شاء لوى بالطرب أعناقهم . وشق بالفكاهة
أشداقهم . وان شاء استذاب بالعظات عبراتهم . واستثار بالحكم
والامثال زفراهم . وكذلك تراه يستولى على قلوبهم ويستحوذ
على شعورهم ويتملك ارادتهم ومشييتهم فتكون طوع بئانه ورهن
اشارته فهما أمرهم به يأتمرون ومهما كلفهم يتحملون ويتجشمون ولو
كان اقتحام النار . وخوض اللجج والغمار . اولم يأتك نبأ بونا بربت حينما
ترك منفاه في جزيره « البيا » قافلا الى باريز حتى اذنزل ارض فرنسا

وسار يؤم العاصمة في نفر قليل من محبيه وبطانته لقيتهم جيوش عدوه
لوزير الثامن عشر الذي كان قد تبوأ الأريكة الفرنسية بعد اعتزال
نابليون . فما هو الا أن رأت تلك الجيوش الجرارة شخص
بونابارت وسمعوا صوته حتى خضعوا له واذعنوا وحيوه تحية
الأكبار والجلال يدعونه امبراطورهم ومالك رقابهم وارواحهم
ثم انضموا اليه وانضوا تحت لوائه وساروا في قيادته يؤمنون
باريز واذ ذاك بهت لوزير الثامن عشر وزلزل به وسقط في يديه
وفر من وجه نابليون « يحث انجى مطاياك من الهرب »
مثل هذه السيطرة الخطاوية والتسلط بقوة البيان على ارواح
الافراد والجماعات شبيهة بما يؤثر عن سلطان الموسيقى وتأثير
النغمات وتحكمها في شعور سامعيها وفي عواطفهم واراداتهم كالذي
يروى عن « اورفيوس » وداوود وغيرهما من نوابغ الموسيقيين
انهم كانوا يجتذبون اليهم بقوة عجيبة من قبيل قوة الجاذبية الطبيعية
جميع الكائنات ما بين حي وجماد من انسان وحيوان داجن
ووحشي ومن سبع ضار وضيغم فراس وحشرة وهامة ومن شجرة
ونبات وصخرة وجمود . أو كالذي يروى عن المطرب « ميودون »
كيف لما حرك برخيم النغم او تار مزهره في بعض المآتم استطاع
ان يسحر عقول حملة النعش ويفتن الباطل بقوة تأثيره حتى ذهلوا

عمام فيه وبعرضه من شعائر الجنازة وانبروا يرقصون حول
نعرش الميت .

ان الخطيب البارع والمحدث الرائع لا يحتاج الى جرس
يلفت اليه الناس وينبهم الى مكانه ويشعروهم بنفاسة اقواله - كما
انه لا يحتاج الى بوليس يقوم بمهمة توقيف الناس حوله وتثبيتهم
تحت بالقوة الجبرية ومنعهم من الانصراف قبل تمام الحديث أو
الخطبة . ذلك لأن الحديث العذب والخطاب الشيق يجذب
بطبيعته الخلاق ويحجزهم بلا واسطة تشويق أو ترغيب . وكانى
بالوزير الجليل ثروت باشا من ملك اعنة البيان وفقه اسرار
الخلافة اذا انبرى يتحدث أو يخطب استدرج الشيوخ من
محاسنهم والفتيان من ملاهيمهم والصبية من ملاعبهم والمرضى من
مضاجعهم وأثبتهم حوله مغالين بأوثق قيود من الفتنة والطرب
فسلبهم ارجلهم حتى لا ينصرفون وسلبهم ذاكرتهم حتى
لا يتذكرون اهم اشغالهم واقدس واجباتهم فتشغلهم عن كلماته
وتلهيهم . - وسلبهم عقائدهم حتى يكون ايمانهم باقواله
خالصا صريحا لا يشوبه رأي مخالف ولا تعارضه افكار منافية أو
نظريات مضادة .

وقد حدثنا المؤرخ اليونانى العظيم « بلوتارك » قال « لما

سأل ارخيداموس « ملك اسبرطة » ثيوسيديدس « عن صراعه مع « يريكلينز » ايها كان أشد بأساً واصعب مراسا واقهر لخصمه وقرنه قال « ثيوسيديدس » انى كلما صرعت يريكلينز ووسدت جنبه الثرى انكر ذلك وجادل فيه وتمارى واستطاع بخلاصة لسانه ان يحمل الناظرين والشهود على تصديق مزاعمه مروجاً لديهم الزور ومحققاً الباطل » ولما سمع فيلب ملك مقدونيا وصف احدى خطابات « ديموسطين » وقوة تأثيرها قال « اما والالهة لو كنت شاهده لاستطاع ان يحملنى على اعلان الحرب ضد نفسى وتجريد السلاح لقتالها » . ولما قام الخطيب البريطانى « بيرك » فى البرلمان الانكليزى فلقى خطبته الطنانة فى اتهام « وارين هتستن » حاكم الهند اذ ذاك قال ذلك المتهم مع اعتقاده براءة نفسه من التهمة « لقد بلغ من فرط تأثرى بكلمات « بيرك » انى لبنت أثناء خطبته اعتقد انه ليس على وجه الأرض آثم اشنع منى جريمة وافظع جناية . »

لقد رأينا ثروت باشا فى احاديثه وخطبه يجمع الى الخلابات اللفظية المحضة والبراعات البيانية البحتة مزايا اجل من ذلك واشرف اعنى العناصر الروحية والقوى الوجدانية من اخلاص وغيره وصدق ايمان وتضحية . وهذه هي التى تكسب الخطبة

أو الحديث صفة الجزالة والفحولة ومزية الجلال والعظمة
وتطبعها بطابع المجد والخلود. فاذا خلت الخطبة من هذه
الصفات العظيمة والميزات الجليلة واقتصرت على الخرابات اللفظية
والبراعات البيانية كانت فائدتها وقتية وأثرها سريع الزوال وكان
قصارى فعلها أن تسترق الأذان بحلو اللفظ وعذب الكلام وتلد
ملكه التصور والخيال فتكون بمثابة ملهامة ومسلاة ليس
الا. فهي وإن أثرت أشد الأثر في وقتها وساعتها فليست تعدو
كونها خدعة وشعوذة لا يلبث أثرها أن يضمحل فيزول
فهي أشبه شيء بصوت الآلة الموسيقية تمر في الطرقات والشوارع
فتحرك خيال المارة وتثير عواطفهم وتتركهم وكأنهم شعراء لحظة
من الوقت ريثما ترن في أسماعهم نغماتها ولا يلبث أن يزول
أثرها من النفوس متى تحولت إلى الحي المجاور. لذلك أرى أن
اللسان الطامق الذليق إذا لم يكن من الحدة بحيث لو يوضع على
الشعر لخلق. وعلى الصخر لفلقه. ولو لعق النجم لمحاه. أو القمر
لطواه. لكان أقصى جهده أن يحدث نشوة لا يلبث أن يزول
وغاية ما يستحقه أن يدرج في عداد المسكرات والمخدرات
كالافيون والخمرة. ولكان أحسن علاج يتقى به تأثيره سدادات
القطن تجعل في المسامع أو قطع الشمع التي جاء في أساطير اليونان

ان « يولوسيس » سد بها آذان نوتية سفينته حينما كانت تمر
بهم على جزيرة الساحرات اتقاء ما خشيه عليهم من فتنة اصواتهن
وسحر الحانهن

هذا النوع من البيان السطحي هوشىء خلاف ما قد امتاز
به ثروت باشا من قوة البلاغة الحرة الصادقة . وانى ادى فرق
ما بين الصنفين كالذي بين رشاش الفوارة الصناعية الذى لا يكاد
يتصاعد حتى يتهاوى ولا تكاد تتلأأ على لبات الضحى قلائده .
حتى ترفض حياته وفرائده . وبين البحر الخضم في دوافق موجه
ودوافع لجه . تجيش فيه زواجر عبابه . وتقصف في حجرتيه
زماجر عجاجه وصغابه . ويكمن في اعماقه . نفائس اعلاقه .
ويستكن في ضميره روائع ودائعه . وبدائع بضائعه . وكذلك
شأن الخطيب السامي الدرجة في مراتب البلاغة . وهذه صفات
من تسنم ذروة البيان ونزل من الفصاحة في الغارب والسنام وتلك
لعمري مزية نادرة وغاية بعيدة المنال تتقطع من دونها انفاس
البراذين ولا يدرك مداها الا الكرام العتاق

وابن اللبون اذا مالز في قرن

لم يستطع صوت البزل القناعيس

وانما نال ثروت باشا هذه الغاية وبلغ هاتيك المرتبة بفضل

ما اجتمع له من خلال قلما اجتمعت الا لواحد في جيل وفرد
 في أمة - وهذه هي العقل والدهاء والعزم والحزم وقوة الارادة
 والغيرة والاخلاص والشغف بالحق والهيام بالحقيقة يعزز هذه
 خلاصة المنطق وحسن البيان ودمائة الطبع ورقة الشمايل . هذه
 الخلال اذا استكملت في رجل تكون فيه من مجموعها تلك القوة
 العجيبة النادرة المسماة « فتنة الجاذبية الروحية وسحر السيطرة
 الشخصية » ومن كان هذا شأنه فذاك خليق أن يرجح بسائر
 أهل جيله وخليق أيضاً أن يتغلب على كل امر وحادث فاذا
 صادفته المعضلات والمشاكل صادفت فيه فكك عقدها وحلال
 الغازها واذا لاقته المحن والكوارث لاقته فيه فتا كها وفراسها
 ويتلقى منه الرجال جامود صدام يصحهم فيسحقهم . ومقذف
 رجام برضهم فيمحقهم . مثل هذا البطل يكون كفواً لكل حادثة
 وكارثة ولكل أزمة وشدة . فأين الرجل الاعتيادي مثلي ومثلك
 من ذلك البطل في ساعة الروع والخطر وقد حسرت الداهية
 الدهياء من نقابها . وكشرت المحنة النكراء عن نابها . قل لي
 ما ذا تصنع اذا وجدت نفسك وسط زوبعة على كواهل امواج
 كالجبال في بحر جموح الموج مجنون العباب وحولك اناس قد
 طاش الذعر بألبابهم وطار الرعب بقلوبهم - اكنت مطيقاً أن

تسترد عازب ذهنك وتربط نافر جأشك ثم تستلم مقاليد بيانك
وعنان لسانك فتصرفهما بحزم وحكمة في طمأنة افئدة اولئك
الجازعين الهالعين وتسكين خاطرهم توسلا الى النجاة من ذلك
الخطر؟ واذا رمى بك الحظ السيء في أيدي لصوص أو جمهور
نائر أو اغوال من اكلة اللحم الآدمي فاذا تصنع وكيف تلتمس
المخرج والمنفذ؟ واذا وقعك القدر في يد فاتك من قطاع الطريق
فهم أن يسلبك مالك وروحك فاذا أنت صانع؟ اراك تعرف
كيف تخرج من هذا المأزق الضنك بفضل قوة الذهن وشدة
العارضة وذلاقة اللسان وخلاصة المنطق؟ مثلاً كان يفعل رجل
كمعاوية أو ابن العاص أو طاهر بن الحسين أو صلاح الدين أو مثل
الاسكندر أو يولوس قيصر أو القائد « مالبرة » أو البرنس
دي كوندية أو محمد علي أو نابليون؟ (ليس من شأنى ان اتصدى
لاحاق ثروت باشا بهؤلاء الابطال فان ذلك موكل الى حكم
التاريخ فى قادم الاجيال وان كان لا يسعى الا الاعتراف والاقرار
بانى أنس فى شخصية الوزير الجليل عنصراً من تلك الفجولة
وجذوة من لهيب هاتيك البطولة). لا شك انه متى طاع اللص
قاطع الطريق على احد من سمينامن اولئك الابطال احس فى الحال
انه قد لقى من هو اشد منه بأساً وصولة وقال فى نفسه « ان

كنت ربحاً فقد لاقيت اعصاراً » ولا عجب فما اعظم الفرق
والتفاوت بين الرجل والرجل في قوة الوجه ! الست ترى الرجل
يتغلب على الآخر بتفوق الاول على الثاني في قوة العين وحدة اللحظ
فيبهره بذلك حتى يحيره ويربكه . او ما سمعت بالرجل كيف يستطيع
برباطة الجأش وجرأة الجنان وبالثقة بالنفس واستشعار سيما العزة
والعظمة - أن يخضع الرجال ذوى المنزلة والمكانة والصولة والنفوذ
والجاه فيقودهم ويسودهم ويرأس ماشاء من الشيع والاحزاب
فربما عزل الملوك والنبي الدساتير وقلب الدول والممالك . واني لا أشك
في أن مثل نابليون بونابرت أينما وضعتة وفي أيما زمان أو مكان
القيته فلا بد أن يسود ويقود وينفذ كل ماشاء وأراد . وقد كان
يولوس قيصر في أيام صباه وقع في أسر جماعة من القرصان . فإذا
كان منه ؟ لقد التى بنفسه في سفينتهم ثم مالبت أن أكده بينه
وينهم أمتن روابط الصحبة والالفة . وكان يحدثهم القصص
والنوادير تارة ويلقى عليهم الخطب تارة أخرى . فاذا رآهم لا يمللون
اعجاباً ولا يصفقون طرباً هددهم بالاعدام شنقاً (وقد نفذ فيهم
هذا الوعيد فيما بعد حينما صار قيصر) . ولم تك الا مدة قصيرة
حتى أصبح زعيمهم وعميدهم . مثل هذا الرجل معصوم في جميع
أوقاته وحالاته من آفة الاضطراب والارتباك والدهش والحيرة .

فهو لا تنفذ من يديه أوراق اللعب الفائزة فإذا التى الورقة فكسب
« الطابق » لم تستطع أن تقول هذه آخر ورقاته اذ لا يزال لديه
عتاداً من السلاح وذخيرة من القوة . مثل هذا الرجل يستطيع
كما قلنا أن يقلب كيان الدولة ثم تصبح أحاديثه ضرباً من المعجزات
والخوارق وأجل معجزاتها أنها تؤثر في سامعيها فتنة وسحراً حتى
يولونه على مجرد السماع به اعظم الثقة واكملها وبذلك يتأتى له أن يغير
وجه العالم وحينذاك يسعى في خدمته ويقوم بتريده صدى مساعيه
الشعر والنثر والتاريخ وتنشأ المذاهب الفلسفية الجديدة لتعليل سبب
وجوده وحكمة حياته واعماله . ان ميزة هذا الرجل هي تمام مقدرته
على امتلاك عواطفه ووجداناته . ولكن سر تعالبه وسيطرته أدق
وأعمق من هذا - ذلك هو سر يان قوة الطبيعة بلاعائق وجريانها
وانطلاقها بلاعقبة او حائل من ذهنه وارادته الى يديه . فالرجال
والنساء لعبه والآلهة وحيثما وجدوا فتمت له مصدر حيل الى مراميه
وذرائع الى اغراضه . وما أحسن قول لوثر حيث يقول « انما
الرجل من اجاد الكلام » . فامثال هذا الرجل كانت ولايات اليونان
تستهدي وتستورد من ولاية « اسبرطة » (أوفر الولايات
نصيبياً من الفحول) حينما كانت تحتاج الى قائد .
واذا ضربنا صفحاً عن فحول الرجال من الملوك والقواد وأهل

الحرب والقتال ألفينا في ساحات السلام ومناييح الامن والسكينة
فخولا أيضا لا يقلون عن اولئك جزالة وقوة وسلطانا على الانفس
وسيطرة على العقول. فهو لاء وان لم يعتلوا مسرح الحرب والسياسة
أو يتصدوا لزعامه أو قياده وكانت صناعاتهم عادية ومناهج عيشهم
سامية مدنية تراهم مع ذلك يؤثرن أينما حلوا تأثير الشعاع المنعش.
أو الزمهرير المرعش. واذا نطقوا أصبح لهم وان لم يكن نطقهم
الاهمسا ونبسا. واذا خطوا قصدوا وسددوا. واذا فعلوا
أحسنوا وأجادوا. ثم يكون عملهم قدوة تنتحى ومثالا يحتذى.
وهؤلاء الفحول يلقون في أخفض منازل المجتمع مثما يلقون في
أرفعها وأسمأها.

فأساس الملكة الخطابية في جميع الحالات وعلى اختلاف
شؤون أربابها وأعمالهم وحر فهم ومرا كزهم - هو قوة الشخصية
وشرف النفس وسمو الهمة. ولذلك ترى الامم والشعوب اذا
احتاجت الى من يمثلها أمام الخصوم ويمثل أمانيتها وأغراضها
ويطالب برد حقوقها عمدت الى من كان من بين أفرادها أقوام
شخصية واءظمهم روحا وأجز لهم حظا من صفات الرجولة وخلال
الفحولة كالخزم والرزانة والحلم والارب والحصافة والجرأة
والشجاعة مع سمو المركز الاجتماعي - جاعلة اهتمامها بهذه المزايا

الاخلاقية النبيلة . والسجايا الرجولية الجليلة . أشد من اهتمامها
بالكفاءات الفنية كالخبرة القضائية مثلاً أو غزارة العلم بالقانون
الدولى والتجارى أو التفقه فى العلوم الاقتصادية والسياسية . وإلى
النوع الاول من الصفات والمزايا - أعنى صفات الرجولة والفحولة
كانت ترى الامة المصرية - أعنى ذوى الراى والمكانة واولى
الفضل والكفاءة والوزن والجاه منها - حينما عمدت الى اختيار
الرئيس الجليل ثروت باشا لتمثيلها لدى الخصوم ويكون النائب
والوكيل عنها فى المطالبة بحقوقها وتحقيق أمانيتها . ولقد صدق
ظنها وصحت فراستها وأصبحت محمد مذهبها فى اختيار ذلك
البطل حينما حقق شطر أمانيتها وبات ساهر الجفن قلق الضلوع
متوقداً الاحشاء فى تحقيق مابقى من آمالها . فطوبى للامة المصرية
ومرعى ! لقد علمت وعلم العالم اجمع انها حينما اختارت ثروت باشا
للدفاع عن قضيتها والمطالبة بحقوقها قد اختارت الرجل الذى اذا نادى
بالخصوم اسمع . واذا ناظر أقنع . واذا خاصم أضم . واذا ناوأ ارغم .

من يساجلنى يساجل ما جسد

يملاً الدلو الى عقد الكرب

كادوا وكدت فأزهقت مادبروا

احدى هنالك ايما ازهاق

ان السر في نجاح خطة ثروت بفضل قوة تأثيره واقناعه في خطبه وأحاديثه هو ارتكاز كلامه على أساس الحقائق الثابتة . ولا مرأ في انه ما كان للرئيس الجليل ولا لأى خطيب او مناظر كائناً من كان أن يبلغ ما يريد من التأثير في معارضيه واقناعهم بمجرد الملوكات الكلامية ما لم تستقر في جوف كلامه حقيقة صلبة مادية . وقياساً على هذا نقول ان ثروت باشا خطيب عظيم لأنه يرمي في اثناء خطبه بالحقيقة تلو الحقيقة أو كما يقول أهل المجاز لأنه يصيب المحز ويطبق المفصل ويقرطس الفرض ويصمى كبد الحقيقة وله بعد ذلك ما يسمونه ملكة التعميم اى استخلاص الكليات من الجزئيات والقواعد من المفردات فهو يستنتج اثناء كلامه المنسجم الفياض القاعدة والقانون ينير به جو المناقشة ويجلي به ظلمة الشك والشبهة في أوجز اختصار واسرع ايماء كأنه لمحة البرق في غاشيات الضباب

كم حومة للجدال فرجها

والقوم عجم في مثلها خرس

شك حشاها بخطبة عن

كأنها منه طعنة خلس

ثروت باشا هو الرجل الذي يشتمل على الحقائق الخطيرة
ويعرف كيف يلقي بها في روع المخاطب ويقذفها في جنانه - يعرف
كيف ينقلها الى وجدان المخاطب سواء اشاء المخاطب أم لم يشأ
ويحمله على الاقتناع بصحتها والاعتقاد بها بالسكره منه وعلى رغم
أنفه . وكم من رجل يشتمل من الحقائق الخطيرة على مثل
ما يشتمل عليه ثروت باشا ولكنه يعجز عن نقلها الى قلوب
معارضيه وعن حملهم على الاعتقاد بها . وانما ميزة الرئيس الجليل
انه يعرف كيف يهتدى الى ذلك المسلك السرى والمنفذ الخفي
الذي يوصله الى كل قاب مغلق وجنان موصد من افئدة معارضيه
ومناوئيه . وكل معارض في حقيقة من الحقائق مكذب بها مغلق
دونها باب قلبه مهما حاول الفصحاء والبلغاء ايلاجها في ذهنه
واقرارها في ضميره بمختلف اساليب البيان وشي وسائل الفصاحة
- فاعلم انه يوجد في أسرار البلاغة اسلوب اذا وضعت فيه تلك
الحقيقة كان كفيلا أن ينفذ بها الى فؤاد ذلك المنكر المكذب
مهما تحصن دونها باكثف مجان الجحود واصنف دروغ المعارضة .
نعم قد يتاح لهذا المنكر المعارض ذلك البليغ المقتدر فيصوب له تلك

الحقيقة المسكوبة لمرفوضة في قالب عجيب غريب مخالف لآلاف الصيغ والقوالب التي اعتاد ان يسمعها عليها - فيكون لهذا القالب من القوة والنفوذ ما يخترق به حجاب سمعه وقلبه ويفضي الى اعماق جنانه فيضع ثمت تلك الحقيقة ويضرب هنالك اوتادها وأطنابها فترسو وتستقر على عرش فؤاده عقيدة راسخة مكيمة عظيمة النفوذ والسلطان . فاذا ارتاح ضميره الى الخضوع لسلطان هذه الحقيقة سلم وعاش . واذا كره بعد كل ذلك ان يخضع لسلطانها لم يغنه ذلك ولم ينفعه بل ستراه يموت من دون ذلك كدأ فان حكم هذه الحقيقة بعد تمكنها من عقيدته سيكون نافذاً قاهراً محتوماً - فاما ان يخضع لها فنكون حاكمتها ومالكته واما ان يأبى الخضوع فيموت بها - داءه القتال ومنيته العاجلة . - فهذا بلا شك اروع اساليب البلاغة وامضى أسلحتها . والذي يبالغ بمثل هذا الاسلوب ويكافح بمثل هذا السلاح لا يملك أن يؤمن بدولة البيان وسلطان البلاغة ويردد قول نبينا عليه السلام « ان من البيان لسحرا »

ولا تنس ما امتاز به الرئيس من حميا الاخلاص ولهيب الحمية الذي هو اصل الحياة ومنبع الروح والقوة في احاديثه وخطبه

— وهذا مستمد من مصدرين : (١) غيرته ووطنيته الغريزية (٢) الظروف الراهنة الاستثنائية . فان الظروف — كما لا يخفى — تكون أحياناً بمثابة منبع قوة جديد يضاعف ما بالإنسان من قدرة وهمة . ومتى اجتمعت قوة الظروف وكفاءة المرء فذلك اجتماع العقل البشرى والقضاء الالهي . وقد أرى اخلاص ثروت باشا لفرط حميته اشبه شئ بالنشوة قد تملكته شعوره واشتملت على لبه . فهو يكاد يترنح وطينية وغيره . واذا اراد الكلام ازدحمت سيول البلاغة في صدره ثم انطلقت تتدفق دفعا دفعا . وتراه قد تملكه موضوع الخطابة أو الحديث أعني موضوع القضية المقدسة تملكاً يترك الافكار والمعاني تنسجم في نظام هو نظام الطبيعة ذاتها — اقوى النظم البيانية وأروع الاساليب التعبيرية وأجل وأعظم من أن يجارى أو يبارى . فلا جرم اذا قلنا ان ثروت باشا اذا خطب فانما الطبيعة تخطب بلسانه . واذا فاضت احاديثه فانما هي الحقيقة تفيض من معين قلبه ووجدانه . فلا عجب اذا كان تأثيرها في النفوس تاماً وسلطانها على الازهان والارواح كاملاً شأن الطبيعة في كل حركاتها وآثارها وعلى اختلاف صورها ومظاهرها . وانى لأرى بعد في هذا الاخلاص الرائع الشديد وفي عظيم ما ينتج عنه من خطب الرئيس الجليل وأحاديثه

الباهرة - مصداقاً على تلك الخرافة القديمة وهي « انما يصيب
الغرض من السهام ما يغمس أولاً في دم الرامي »
من حقق النظر في احاديث ثروت باشا وفي خطبه وفي
خطب واحاديث سائر ائمة الخطابة والمناظرة في العالم امثال
ديموسطين واسكينيز وديماديس وبيريكليس ولوثر وفوكس
وشانام وباتريك هنري وآدمز وميرابو وايسوقراطو بيرك وچون
بابتست وهرميت بطرس وچون نوكس - وجد أن أصدق
تعريف للخطابة أو الحديث البليغ هو انه « افضل كلام صادر
عن افضل روح » وانه « عنوان كل ما يحتوى الذهن من آيات
الجلال والجمال » فاذا خرج الخطاب أو الحديث عن كونه مجرد
آلة وأداة لتأدية ما يجيش بالصدر من عقائل الافكار وكرائم
المعاني وأريد به أن يكون غاية في ذاته وأن يتباهى به ويفتخر
كبعض الزخارف والحلي صاراً كذوبة وخدعة .. وليس هكذا
حديث ثروت باشا ولا خطابه - وما كانت قط هكذا احاديث
الفحول ممن ذكرنا آنفاً ولا خطاباتهم . اجل ليس هذا شأن الفحول
في كلامهم وليس بهذا يأمر الاخلاص والصدق والغيرة والايمان
والوطنية . وما زال رجال الجد والاخلاص امثال ثروت باشا
يؤثرون الغرض الشريف والعمل الصالح على مجرد المباهاة برنين

نغمات البلاغة والمفاخرة بطنين مطربات البيان والخطابة - اغنى
يؤثرون الجوهر على العرض والروح على الزى والملبس . وتلك
شيمة الاخلاص النزاهة .

شتان بين كلام المخلص الجاد الغيور صادراً عن أعماق اعماق
نفسه وبين كلام المزخرف المتأنق العاثر صادراً عن أغلفة قلبه
وقشوره الظاهرية - فهذا الاخير ليس سوى سحابة صيف .
وعجالة ضيف . وشيء يولد مع الصباح ويذول وقت الزوال .
وشبح يذهب كالظلال . بذهاب الالهواء والاميال . وأما الاول
فأية تنقش على صحيفة الزمان . وتبقى على الدهر ماثية الانسان .
وتنتج أعظم النتائج من آثار المدنية ومظاهر العمران . وهل هذه
المدنية الحاضرة وآتى المدنيات وماضيها وكل مايعمرها سالفاً
وحاضراً ومستقبلاً من آثار الانسان في هذه الحياة ومصنوعاته
ومبدعاته ومخترعاته من دول وممالك ونظم وديانات وقوانين
وشرائع وآداب وأخلاق وعلوم وصناعات وفنون ومعاملات
تجارية واقتصادية وسياسية وقصور ومدائن وفلاع وكنائس
وهياكل ومتاحف ومقاصف وكل مايقوم عليه صرح هذه الحياة
الهائلة من دعائم البقاء وأساطين العمران - وكل مايساعد
الانسان الشقي المسكين على تخفيف عبء الحياة وتلطيف آلامها

ومعالجة آفاتهما ومحنتها واساغة جرعتها المضيضة ومضغتها المرة
وتلين عجالاتها العسرة المستعصية تسهيلا لسيرها بقافلة الانسانية
التعسة في اوعار هذه الحياة الشاقة الالمية الى مشوى الانسان
الاخير في سكينه القبر وهدوئه - أقول هل ترى كل هذه
الاشياء المكون منها صرح المدنية ونظام الحياة الا نتيجة كلمة
حق تعبر عن فكرة صالحة ؟

أجل ليس ثروت باشا بالعابث في أحاديثه وخطبه يتوخى
التأثير السطحي في الجماهير بطنين الكلم الاجوف الرنان ويخضع
العقول بزبرج الكلام وتزاويقه يبتغى بذلك المفاخرة باللسن
والذلافة . والمباهاة بالحدق واللباقة . ويرى الشهرة والذكر والجاء
والسلطان - ولكنه رجل الجد والاخلاص والصدق قولاً وعملاً
كثير الاطراق والتفكير فاذا نطق فاشدت من لب وفضل
وحكمة . لا يتصدى بالكلام لغرض من الاغراض أو مسألة من
المسائل الا أنار شبهتها وكشف غامضها واستثار دفينتها وهكذا
يجب أن يكون الكلام والا فلا . ان ثروت باشا ذلك الرجل
المجبول بفطرته على الجد والاخلاص والحمية ليرى في قضية البلاد
المقدسة أمراً جليلاً أعظم من أن يحتمل العبث والتظاهر والمباهاة
والادلال برنات طنان الكلام وسجعاته . لقد كان الامر عنده

— كما قال توماس كارليل — « أمر حياة أمة أو مملكتها — أمر فلاح أو خسران ومسألة بقاء أو فناء . فلم يك منه ازاء ذلك الا الجدل المر والاخلاص العميق . فأما التلاعب بالكلمات والعبث بالحقائق فليس من شأنه البتة . والعبث والتلاعب في المسائل الحيوية الجلى جريمة من أفظع الجرائم اذ ليس هو الا رقدة القلب وهجعة العين عن الحقائق وتقلب المرء في مظاهر كاذبة خداعة . فمثل هذا الانسان لا يقتصر أمره على كون أقواله وأعماله كلها أكاذيب بل انه هو نفسه أكذوبة . فأنت اذا تأملت فيه في صميم كيانه الفيت نور الله — أعني الشرف والمروءة — قد انطفأ فيه سراجة . وخبا وقاده ووهاجه . فهو على الرغم من ذرابة لسانه . وخرابة بيانه . أفك كاذب . اذ لا يزال مثل هذا الرجل سم الحياة وآفة الانسانية . فان غرك برخامة صوته وجرسه . وحلاوة جهره ونبسه . ورفقة مسه ولمسه . لم يك في ذلك الا كحامض السكر بون تراه على لطف مسراه . ولين مجراه . سما نقيعاً . وموتاً ذريعاً . »

والآن بعد الذى أوردناه من ذلك الفصل المسهب والمطلب المستفيض فى وصف الركن الاول من منقب ثروت باشا أعني الملكة الخطائية البيانية باصولها وفروعها وعددها وآلاتها ودقائقها وأسرارها ننتقل الى الركن الثانى من صرح أخلافه الوطيد الرفيع

أعنى دمثة الطبع وعذوبة الشمائل .

لقد جاء في حكمة الاقدمين انه ان يستطيع مسرة الجلساء
واطراهم بفتون الاحاديث من كانت روحه خالية من عنصر
السرور والطرب . فان الحديث المشتمل على تحف المعاني وبدائع
الافكار اذا صدر عن روح ساخطة أو غصبي أو متضجرة أو
مشمزة أعنى عن روح متنافرة مع أرواح الجلساء والعشراء كان
جديراً أن يدهش الاذهان ويبهرها ولكنه ليس جديراً أن ينعش
الارواح ويدخل على النفوس عوامل الانس والصفو والحبور .
نحلة اجتذاب القلوب واستمالة الهواء محال أن تتوافر لمن كان
موحش الناحية مقفر الجنب خشن الجانب . فان الاذهان خلاف
الارواح وليس من اللازم المحتموم أن الرجل القادر على النفاذ الى
اذهان الناس بروائع كلمه أن يستطيع بهذه الوسطة وحدها أن
ينفذ أيضاً الى قلوبهم وأرواحهم - إذ كيف يتأتى له ذلك اذا
كان جامد الروح مظلم الهواء راكد النسيم . والرجل الخالية
نفسه من عوامل الفرح كيف يستطيع ادخال الفرح على
نفوس غيره .

ولذلك قيل ان فن استمالة الغير بأسباب المسرة انما أساسه
أن تكون قبل كل شيء مسروراً في أعماق نفسك . ومن ثم

رأينا ان أعظم كتاب الفكاهة في العالم الذين قدموا للعالمين أوفر
ذخائر السرور والانس وأشهى ألوان الطرب والحبور على مائدة
الفنون والآداب - امثال مولير وشاكسبير وسرفانتيس
واديسون وجولدسميث وفيدلن وستيرن وديكنز وثيري
ورابليه وماريقوه وصاحب الف ليلة - كانوا جميعاً من ذوى
الطبائع الفرحة الجذلى والامزجة الرطبة الخضلة والصدور المشوكة
القريرة والنفوس الطيبة الراضية المطمئنة المملوءة بروح الصفاء
والاستبشار والتفاؤل - على عكس المتشائمين المتبرمين الغاضبين
الثائرين من كتاب الفكاهة امثال سويفت وبوب وفولتير وبيرون
الذين قد مزجوا مزاحهم بانكر الهجاء والتهكم وخلطوا مجونهم
بأمض القذع والسخط والنقمة فجاءت مؤلفاتهم ادعى الى الايلام
منها الى الاطراب . وادنى الى الايجاع منها الى الاعجاب . واجدر
بالايحاش منها بالايئاس . وانكى شبا من ابرة العقرب فى الشعور
والاحساس . - ذلك الى الجمل الكثير من آفات تلك الكتب
التشاؤمية فى المجتمع ومساوى آثارها فى هيكل الانسانية مما
يصغر ويضئل بجانبه ما قد حوت من الفوائد والمنافع حتى ذهب
فريق كبير من ادباء العالم ونقادهم الى اعتبار مؤلفيها الفحول
الفضاحل من ضمن عوامل الفساد ومصادر الشر والبلاء على

العالم فقال لما الفيلسوف الالماني الطائر الصيت « فريدريك
 نيتشه » اغلقوا « يرون » وافتحوا « جيتا » . واصل هذه
 السوآت والافات في الخالدات العبقريات من تأليف اولئك
 النوابع هو كما اسلفت مرارة السجية وحموضة الطبع وحرافة
 المزاج وما يتبع ذلك من جفوة الروح وقسوة القلب وغلظة الكبد
 وليس ثروت باشا بالجاني النفس ولا القاسي القلب ولا الغليظ
 الكبد ولا هو بالحامض الطباع الحريف المزاج ولا بالموحش
 الجناب المظلم الناحية الراكد النسمات . ولكنه مع متانة اخلاقه
 وصرامة عزمه وانه لا يجمد في الحق ولا يتدفق في الباطل - تراه
 ذلك الرجل اللين الجانب المأنوس الجناب المشرق الناحية هيناً
 ليناً طلق الجبين براق الاسارير

بشر ابو مروان ان عاسرته عسر وعند يساره ميسور

وكالسيل ان قاومته انتقدت طوعه

وتقتاده من جانبيه فيتبع

فاذا جالسته صدرته وتنحيت له في الحاشية
 واذا سايرته قدمته وتأخرت مع المستأنية

واذا ياسرته صادفته سلس الخلق سليم الناحية
واذا عاسرته صادفته شرس الرأي ايبا داهيه
فاحمد الله على صحبته واسأل الرحمن منه العافيه
وطبيعة ثروت باشا بعدهى الدماثة واللاطف والرفقة والظرف
وان كان فيه عند مقتضيات الاحوال شدة وصلابة وبأس وصرامة
له سورة مكتنة فى سكينه كما اكن فى الغمد الحسام المهند
وتلك شيمة الرجل الفاضل فى كل زمان ومكان . وتلك
كانت شيمة أبطال العرب فى ذروة عزهم وعلياء مجدهم - قلوب
تذوب رحمة وعطفاً . فى جوانح تلهب حمية وأنفا . وأرواحاً تندفق
براً وكرماً . تحت عزمات تنور عزاً وشماً . كاليزبوع الثر الغزير .
العذب النмир . يكتنفه أمنع سور من الصفوان . وأمتن حاجز
من الجلمد الصوان .

ولا خير فى حلم اذا لم تكن له

بوادر تحمى صفوه أن يكدره

وتلك كانت شيمة فرسان المسيحية فى عهد الفروسية الامجد
الاشرف الذى هو نخر المدينة الغربية فى القرون الوسطى - يوم
كان ائمة الدين هم أيضاً ائمة الحرب والجهاد . وكان أعلام التقى .
أعلام الوغى . يوم كان أبطالهم يحملون الانجيل على اسلالت

الرماح . ويقرنون السيف الى الصليب في نطاق ووشاح . هنالك
كنت ترى أقصى غاية البر والرأفة والحنان . مع أقصى غاية الثبات
والشجاعة وقوة الجنان . هنالك كنت ترى التواضع والحياء
والخشوع والانكسار . مع البأس والشدة وصوله العزيز
القهار

خاشع تارة وجبار أخرى فتراه أرضاً وطورا سماء
وهكذا اذا طلبت منتهى الرقة والدمائة والحنان والرحمة
وجدتها في الرجل الصارم الشجاع القوي المتين - وكذلك أعذب
الماء وأصفاه هو ما صادفته في النقر والاصاب في الصخرة الصماء
والصفة الصلدة .

ومن ثم كان ثروت باشا ذلك البطل القوي الأيد الصاب
العود والمعجم رجلا سمحاً سجيحاً غزير الأنس والحفاوة جم الظرف
والفكاهة تكاد ابتسامته تضيء ماحوله بنور البشر والطلاقة
ويكاد الهواء يتأرجح بطيب أنفاسه اذ كانت صادرة عن روضة
الحسب الأغر . والكرم الاوفر الأبر .

ولا شك عندي في أن تلك المادة الغزيرة من الفرح
والابتهاج الغريزي في ثروت باشا هي من أعظم أسباب نجاحه في
كل ما يحاول من الخطط والتدابير وكل ما يباشر من المعاملات

والمفاوضات . لأن ذلك الفرح والابتهاج يظل له كنشوة طبيعية
تحرك همته وتبعث عزيمته وتترك سيف جده مسلولا لا يسرداع
ومقتضي وتغنيه عن كل منشط خارجي وحافز صناعي . وأكبر
ظني ان هذا الابتهاج والصفاء الغريزي النفساني في ثروت باشا
هو بعض مصادر تلك الجاذبية والخلابة التي استطاع بها أن يؤثر
في كبار رجالات البريطانيين ممن فاوضوه في قضية البلاد المقدسة
ويستميلهم الى مذهبه ويقنعهم بصحة رأيه ونصوح حجته .
وأراني خليقاً أن أشبهه في ذلك بالقائد الانكليزي العظيم الدوق
اوف « مالبره » ذلك البطل التاريخي المشهور الذي بفضل حذقه
واباقتة انتصرت انكلترا وحلفاؤها على فرنسا في عهد لويز الرابع
عشر يوم كانت فرنسا أقوى دول أوروبا جيوشاً وأمهرها قواداً
وأشدها بأساً وصبولة وأقهرها سطوة وسلطاناً . لقد كانت
جيوش حلفاء بريطانيا اثناء حروبها الطويلة المتوالية مع
فرنسا في ذلك العهد عرضة لعوامل النزاع والشقاق لا يزال
يقع بينها النفور والمشاحنة فلو كانت استمرت على تلك
الحال لما كانت ظفرت من فرنسا بطائل بل كان من المؤكد
هزيمتها واندحارها بأسيا في تلك الدولة . ولكن القدر الذي
اراد غير ذلك جعل من خلابة القائد « مالبره » ومن جاذبيته

ومن رقة شيمته وحلاوة انسه وعذوبة شمائله ابلغ وسيلة وأحسن
واسطة لضم شوارد القلوب بين الحلفاء وتأليف نوافر النفوس
وجمع بدائد الالهواء والاميال ونظم تلك العناصر المتشاحنة في
سلك واحد من الوثام والالفة وقياد الجميع بمجبل التوفيق والهداية
الى غرضهم الاوحد الفرد من تلك الحرب الشعواء - على الرغم
من متباين مذاهبهم وآرائهم ومما كان متفشيًا بينهم من عوامل
التحاقد والتحاسد ونزوات التعسف والتهور ونزغات الطيش
والضلال . فايما بلاط من بلاطات تلك الدول المتحالفة كان يذهب
اليه القائد المبرة ويغشاه كان لا يلبث بفضل سباحة خلقه وحلاوة
سجايه وعذوبة طبعه أن يستميل اهله ويستدرجهم مهما بلغ من
عنادهم وشكستهم حتى يحملهم على قبول شروطه واتباع رأيه .

لقد امتاز ثروت باشا بنوع من صفاء النفس وهدوء الروح
وسكينة الجأش لها في نفوس مخاطبيه ومجالسيه من الاثر العميق
ما يشبه تأثير النغم الرخيم والالخان الشجية ولا عجب فان الصفاء
والهدوء من النظام وكل نظام فانما يكون نظاماً بفضل ما ينطوى
في جوفه من الموسيقى الصامت أي من روح الموسيقى او بعبارة
أخرى كل نظام موسيقى في عنصره وجوهره . فهذا الهدوء
والسكينة والصفاء في ثروت باشا تؤثر في مخاطبيه ومجالسيه

تأثيراً يسبيهم من نفوسهم ويجتذبهم اليه بنوع من الكهرباء
الخفي . فلا جرم اذا قلنا ان مثل هذا الخلاب تكون روحه
منهلاً للانس ومستزاداً للنعيم والمسرة وسنا بشره يفيض على
جوانب الجو كمثل رونق الضحى . وحديثه ينفث في الهواء
كأنفاس النعamy . تنفج باريج الخزامى .
أو كأنسيم الفضة غب الحيا يختال في أردية الفجر

واذ ما اشار هبت صبا المسك وخت الايوان من كافور
هذه السكينة والهدوء والصفاء الغريزية الفطرية (مع حدة
الذهن الهائلة) هي التي بفضلها بلغ نابليون - أعظم رجل في
التاريخ الحديث - من ذروة المجد والعلاء وقمة الحسب والفخر
ما راع الملاء وبهر العالم - وهي التي بفضلها أيضاً استطاع ذلك
الرجل المدهش أن يحتمل ارزاء الدهر ومحن الزمان في عظمة
وجلال يشوبهما شيء من اللهو والعبث وأن يستسلم لخسارة
ملك العالم استسلام من خسر دوراً في لعبة النرد أو الشطرنج
وكذلك ترى ثروت باشا على صرامته وبأسه في مواضع
الجد والحزم اغراً بليج بساما وضاح الجبين جم البشر والحفاوة
عذب الايناس حلو الفكاهة تتألق في صفحة وجهه الكريم

ابتسامة صادقة من فؤاد صادق - لأن من الابتسامات ما تكون
 كاذبة منبعثة عن فؤاد كاذب كسائر الكاذب صاحبها من أعمال
 وأقوال . وما زال الابتسام الصادق والضحك الخالص الصريح
 ينبعث من القلب الطاهر النقي الرقيق الحاشية . الأمين الناحية .
 الغزير مادة الحنان والرحمة . فتل ذلك الضحك يكون عنوان
 الكرم والخير . وشاهد المروءة والبر . اذا كان كاذب الضحك
 آية الشر والنكر وأمانة الخبث والغدر . وما زال الحر الشريف
 يعزح في الاحايين ويهزل . والبر الكريم يطرب ويجذل .
 وما زلنا نرى الاريب الحصيف يفصل نظام حكمته الثمين بشذور
 الامازيح والفكاهات . ويرصع ديباجة كلامه الجدى الرزين بفصوص
 المعانيات والمداعبات . ومن ثم ما قاله نوماس كارليل في وصف
 افراط الفكاهة والضحك في سيد شعراء العالم قاطبة « ولیم
 شا کسبیر » « لا اری دلیلاً أصدق علی ما یمتاز به ذلك الشاعر
 الخالد من کرم النفس ورقة الطبع ونقاء الضمیر وصفاء السريرة
 من غلواء الضحك وافراط المزاح فی رواياته . ألا ترى ان
 مضحکاته تنحط علیک کسأیب الغیث الثر . ودوافع السیل
 الهمر . ألا ترى انه اذا نصب احد أشخاص رواياته غرضاً لمرامی
 المزح والدعابة انبري یهیل علی رأسه ما لا یحصى من افانین

الهزل والمجون وينقله من المواقف والاشكال المضحكة فيما فيه
أقصى عجب العاجبين . وضحك الضاحكين . فيخيل اليك ان
شا كسبير يضحك من ذلك الشخص الذي هو سليل وهمه ومنع
خياله ضحكا مفرطا يملء صدره واضلاعه . وهو بعد ضحك
طيب صالح لا يراد به السخرية من البؤساء والمساكين والضعفاء -
التي هي ألأم انواع الضحك لما تنطوي عليه من السفالة والخبث
والندالة . واني أرى ضحك شا كسبير وغيره من ذوي الكرم والبر
والرأفة ليس من قبيل معمعة الحريق تحت القدر - يقهقه لهيبه
وضرامه والقدر تغلي وتفور . ولكنه ضحك مشوب بالرحمة
والعطف حتى على الاغبياء والادعياء . فثل ذلك الضحك لا يشبهه
إلا بساط نور الشمس على صدر البحر الرحيب . »

وكذلك ثروت باشا رجل الجد والحد والقوة والمتانة . والوقار
والرزانة والعزم والصرامة . لا يخلو مع ذلك من رقة الظرف
وحلاوة الايناس وطرف الفكاهة والدعابة . فياله من جوهرة
كريمة « ابدي الله صفحتها . وجلابهاها وبهجتها . على حين قد
افقر العصر من الجواهر الغوالي . وصفرت الايدي من كرائم
الآلى . فبذا تلك من جوهرة جمعت بين الرونق والمتانة .
والسنا الوهاج والرصانة . كالصخرة المنطوية على ينابيع الكرم

والسخاء . وأشعة الفطنة والذكاء . وجرات العزم والمضاء
ومن أركان مناقب ثروت أيضاً الثقة بالنفس والاعتزاز
بالرأي والنفاذ والصرامة . فهو يعضى في تنفيذ ارادته مضاء النجم
الثاقب متحملاً مسؤولية أعماله وتبعاتها مقتحماً ما يعترضه مما
يراه هو اعتراضاً باطلاً واعتباراً كاذباً . غير مبال بما يصبوب اليه
من سهام الملامم والتفنيذ وقوارص العذل والتقريع اغتباطاً بما
يعتقد انه سيكون من صالح النتائج ومحمود العواقب . مما يراه
هو ببصره النافذ ورويته البصيرة وان خفي على غيره من
الاشخاص المعتادين ممن لم تمنحهم الطبيعة ما ميزته هو به من
الذكاء والفطنة والدهاء . فلا عجب اذا كان ثروت باشا كغيره
من الابطال والفحول يتبين فيما يأتى ويذر وفيما يحل ويعقد من
سر الحكمة ووجه الصواب ما ليس يظهر لسواه من الناس
اذ كان كل قائد يظل أعرف بخطته من سائر الجنود وأبصر بما
ينتج لهم من مناهج السعي والعمل وسبل الغزو والجهاد . فبرنامج
العمل المرقوم في ذهنه وخريطة الزحف المرسومة على صفحات
قلبه انما يقرؤها ويفهمها هو وحده من دونهم . وهو وحده
المسؤول عن العاقبة والنتيجة . فلينتقدوا وليعارضوا ما شاؤوا فما

اعتراضهم وتقدم إلا سحابة صيف لن تلبث أن تزول متى طلعت
من ورائها شمس نتائج أعماله مشرقة بلجاء واذ ذاك يعلم اقوام
أن مذهب الوزير كان الحق الصراح وخطته الصدق المبين وكان
عمله منزها عن الاغراض والاهواء بريئاً من شوائب الانانية .
بل هادماً لعوامل الانانية ماحقاً لعناصرها مشبعاً بعواطف
الوطنية والاخلاص والتضحية .

ونحن اذا آسنا في أخلاق ثروت باشا خلة الثقة بالنفس
والاعتزاز بالرأى فقد ما آنس الناس ذلك في كل بطل وقائد .
وهل كان الاعتزاز بالنفس الاشيمة النفس الشائرة على الاكاذيب
والباطيل المترفعة عن مراعاة الكاذب التقاليد والاصطلاحات .
واباطيل السنن والاعتبارات . الآخذة بالجد والافدام والاصرار
والثابرة بعزيمة لا تهين ولا تكل . وصرية لا تثلم ولا تفل .
المستهرئة باكاذيب الاراء والعقائد . فصاحب مثل هذه النفس
الكبيرة السماء ينطلق الى غاية انطلاق الكوكب المشبوب
مسترسلاً في سننه طرباً على نغمات موسيقى روحه العظيمة الجياشة
الصداحة ولو ثارت من حوله الزوابع . وضجت المعامع . وصخب
الزعازع . وهبت العواصف . وزجرت القواصف . وكاد الكون
أن يتحطم فيتهدم . هذه وايبك البطولة في انصع مجاليها . وابعده

مراميتها . وهي وإن راعت بعض القوم واخافهم - لعجزهم عن
سبر أغوارها . وادراك أسرارها . - فالواجب على الجميع أن
يوفوها حقها من الاجلال والا كبار . اذا كانت قد حفت
من شواهد الجلال وآيات السمو والمظمة بما ينبغي أن يثير عواطف
العجاب والا كبار في نفس كل شريف بل في نفس كل من علق
بنفسه أدنى أثر من عناصر الشرف والكرم والمروءة - فيملؤه
عجباً وطرباً من جلال أعمل ذلك البطل (وإن قصر ذهنه عن
تمام إدراكها) ثم يلهمه شيئاً من الصبر والتأني انتظاراً وترقباً لما
سيكون من نتائج فعاله . وعواقب أعماله . - وحسبه أثناء ذلك
أن يحمل نفسه على الاعتقاد بأن أفعال مثل هذا الرجل القوى
إنما هي أفعال المولى جل شأنه يأتها على يد عبد من عباده . فقيح
بأي مخلوق أن يتسرع إليها باللوم والطعن والهجاء وذميمة أن
يعجل إلى منفذها بالشر والشغب والمناوأة أو يعترضه في سبيله
الخشن الصعب بالعرقلة والتعطيل والمقاومة - فحسبه بخشونة مركبه
ووعورة مسلكه . وإنه يبيت ساهر العين من أجل عيون ملء
أجفانها الرقاد . وينصب متعب الجسد من أجل أحساد . تتقلب
على الين مهاد . ويتجرع غصص الالم . في سبيل أقوام برشفون
أقداح السرور والنعم . ويختلط أشواك المضض من شجر الكد

والعناء . لمصاحبة من يتقطفون ثمار الراحة من أفنان الدعة والصفاء .
 ان الرجل العظيم يعمل عمله مدفوعاً اليه بدافع وجداني
 مستسر في خفايا نفسه العميقة العظيمة - فحكمة هذا الدافع
 الوجداني لا يمكن أن تكون بادية لعيون العامة والجاهلير مثلما
 تبدو وتظهر لصاحبه - بدليل ان كل امرئ يكون أعرف بسريرة
 وجدانه من غيره ويكون أبعد نظراً وأقصى مرمى فيما يتعلق
 بمذهبه الخاص به دون غيره وبخطئه التي هو انتهجها دون سواه .
 ولكننا نرى الذين لا يريدون أن يعترفوا للرجل العظيم
 بشرف مسعاه . وسمو غايته ومرماه - إما لقصر عن إدراك
 مراميه أو لآفة في نفوسهم - ينكرون عليه بعد همته . وحسن
 نيته . فيتهمونه بالسعي وراء حاجة في نفسه وبغية شخصية أنانية .
 ومن ثم يحكمون عليه بما لا يليق أن ينسب الى الفحول والابطال .
 أمثال هؤلاء الظالمين الجائرين لا يرون في أبطال العالم الذين هم بناة
 مافي العالم من مجد وعظمة ومشيدو مافيهم من صروح الحضارة
 والمدنية العالية - والذين هم في الحقيقة اعلام التاريخ وفرائد عقده
 التنظيم المؤلفة منهم سلسلة المدينيات الذهبية - الا اشراً آثمين
 لافضل لهم ولا خير فيهم . وانهم لم يأتوا من أعمالهم العظام ما أتوا
 الا ارضاء لشهوات أنانية واشباعاً لمطامع شخصية . والواقع ان

اولئك الافا كين المعتدين بالكذب والزور على مقامات العظماء
 في كل زمان ومكان هم الجناة الاثمون الذين لم يسلم من السنهم
 بطل ما أيا كان في حاضر الزمن وغابره فهم زعموا أن الاسكندر
 الا كبر كان مجنوناً مصاباً بمجنون الغزو والفتح بعلة انه دوخ بلاد
 اليونان . واصتاع آسيا - وزعموا أن حب الشهرة والولوع
 بالصيت كان باعثه الوحيد على فتوحاته العظيمة بدليل ان هذه
 الفتوحات قد ادت في النهاية الى الصيت والشهرة . ومثل هذا
 قاله اولئك الافا كون عن يولوس قيصر وهانيال والسفاح وتيمور
 لنك ومحمد الفاتح وشارلمان وشارل الثاني عشر ملك السويد (الذين
 سموه « مجنون الشمال - اشارة الى موقع ملكته من انحاء المعمور)
 ونابليون بونابرت وكذلك خيل اليهم انهم قد استطاعوا أن يثبتوا
 الجنون على ائمة العالم وقادته وأقطابه . وكأني بهم قد استنتجوا من
 ذلك (وان لم يصرحوا بهذا الاستنتاج) انهم هم الا كبر والفحول
 والعظماء - لانابليون ولا محمد الفاتح ولا عمرو ولا أمثالهم - وانهم هم
 أجل وأعظم من هؤلاء الاعلام والاقطاب بدليل انهم لم يغزوا آسيا
 كالاسكندر ولم يفتحوا روما كهانيبال ولم يدوخوا اوربا كما فعل
 نابليون وانما حصروا كل مجهودهم وهمتهم في أن يأكلوا ويشربوا
 ويتركوا غيرهم يأكل ويشرب وبذلك عاشوا وماتوا سالمين مساماً

منهم آمنين مأمونا من شرهم
فهؤلاء النقاد الاصاغر أشبه شيء بالبعوض الذي يحاول أن
يلدغ بأبرته الضئيلة الواهية المذاكب العراض والاعناق الضخمة
من أسود المجتمع وضياعه فتككل ابرتهم وتنبرى دون أن تنال
تلك الليوث بأدنى ضائر. أو هم كما قال الاعشى
كناطح صخرة يوماً ليفلقها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل
هذا البعوض النقاد مازال يظهر في العالم منذ كان العالم لم
يخل منه عصر من العصور ولا مصر من الامصار. فنحن نتلو
نبأه في اليازة هو ميروس تحت اسم « ترسيثيس » ذلك الخلق
الحقير الذي لم يكن له هم ولا دأب الا سب الامراء والملوك -
فكان جزاؤه على الدوام الضرب بالعصى والجلد بالسياط. وأشد
عذاباً عليه من ذلك شوكة الحسد المضيض وابرة الحقد الأليم
التي قضى عليه أن لا يزال يحملها في جلده. وجمرة الغيظ والحنق
التي قيض له أن لا تنفك مدفونة في صميم كبده. وحسبه فشلاً
وخيبة مع كل ذلك أن تصبح آراؤه الوجيبة الرشيدة. وانتقاداته
السليمة السديدة - يوماً ما ان عاجلاً أو آجلاً - قد ذهبت بمد
كل مجهوداته الجسيمة ومحاولاته العظيمة هباء منثوراً. « وقل جاء
الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً : »

والآن بعد ما اجلت قلمي الضعيف جولة في هذا الميدان
الفسيح - مجال البطولة والفجولة - وسمته خوضنة في ذلك الخضم
العميق - عباب العظمة والهمة والرجولة - التي به في اكناف
الراحة نضوا متعباً حسيراً من طول ما اصطك أثناء جولاته
بهضاب تلك العبقرية الباذخة . وجمال تلك البطولة الشاخنة .
وأطرح صحيفتي في يم التأليف ذلك الهاجج المائج النائر المضطرب
لتلقي نصيبها من الطفو أو الرسوب . وجزاءها من العطب أو
السلامة .

لقد أمضيت برهة على هضاب جبل « أوليب » مجال
الابطال وملعب الالهة (في أساطير اليونان) أتأمل روائع آياتها
وبدائع معجزاتها . حتى أفعم قلبي جلالاً وجمالاً . وبهرني ذلك
المشهد المهيّب فأنحدرت نازلاً وأنا أسبح بحمد الله عجباً وطرباً واحمد
الصانع البديع الذي يأبى كرمه وفضله أن يترك مقابح هذه الحياة
وشوهاتها في أي عصر وبقعة خالية من محاسن الرجولة . مقفرة
من مفاخر العظمة والبطولة .

مشروع ملنر مذكرة

١ - لكي يبني استقلال مصر على أساس متين دائم يلزم تحديد العلاقات بين بريطانيا العظمى ومصر تحديداً دقيقاً ويجب تعديل ما تمتع به الدول ذوات الامتيازات في مصر من المزايا وأحوال الاعفاء وجعلها أقل ضرراً بمصالح البلاد

٢ - ولا يمكن تحقيق هذين الغرضين بغير مفاوضات جديدة تحصل للغرض الاول بين ممثلين معتمدين من الحكومة البريطانية وآخرين معتمدين من الحكومة المصرية ومفاوضات تحصل للغرض الثاني بين الحكومة البريطانية وحكومات الدول ذوات الامتيازات وجميع هذه المفاوضات ترمي الى الوصول الى اتفاقات معينة على القواعد الآتية :-

٣ - اولاً - تعقد معاهدة بين مصر وبريطانيا العظمى تعترف بريطانيا العظمى بموجبها باستقلال مصر كدولة ملائكية دستورية ذات هيئات نيابية وتمنح مصر بريطانيا العظمى الحقوق التي تلزم لصيانة مصالحها الخاصة ولتمكينها من تقديم الضمانات التي يجب أن تعطى للدول الاجنبية لتحقيق تخطى تلك الدول عن تلك الحقوق المخولة لها بمقتضى الامتيازات

ثانياً - تبرم بموجب هذه المعاهدة نفسها مخالفة بين بريطانيا العظمى

ومصر تتعهد بمقتضاها بريطانيا العظمى أن تعضد مصر في الدفاع عن سلامة أرضها وتتعهد مصر أنها في حالة الحرب حتى ولو لم يكن هناك مساس بسلامة أرضها تقدم داخل حدود بلادها كل المساعدة التي في وسعها الى بريطانيا العظمى ومن ضمنها استعمال ما لها من الموانئ وميادين الطيران ووسائل المواصلات للاغراض الحربية .

٤ - تشتمل هذه المعاهدة احكاما للاغراض الآتية : -

اولا - تتمتع مصر بحق التمثيل في البلاد الاجنبية وعند عدم وجود ممثل مصري معتمد من حكومته تعهد الحكومة المصرية بمصالحها الى الممثل البريطاني وتتعهد مصر بان لا تنخدع في البلاد الاجنبية خطة لا تتفق مع المحالفة أو توجد صعوبات لبريطانيا العظمى وتتعهد كذلك بان لا تعقد مع دولة اجنبية أي اتفاق ضار بالمصالح البريطانية .

ثانياً - تمنح مصر بريطانيا العظمى حق ابقاء قوة عسكرية في الاراضي المصرية لحماية مواصلاتها الامبراطورية وتعين المعاهدة المكان الذي تعسكر فيه هذه القوة وتسوي ما تستتبعه من المسائل التي تحتاج الى التسوية ولا يعتبر وجود هذه القوة بأي وجه من الوجوه احتلالا عسكريا للبلاد كما انه لا يمس حقوق حكومة مصر .

ثالثاً - تعين مصر بالاتفاق مع الحكومة البريطانية مستشاراً يعهد اليه في الوقت عينه بالاختصاصات التي لصندوق الدين الآن ويكون تحت تصرف الحكومة المصرية لاستشارته في جميع المسائل الاخرى التي قد ترغب في استشارته فيها .

رابعاً - تعين مصر بالاتفاق مع الحكومة البريطانية موظفا في وزارة الحقانية يتمتع بحق الدخول على الوزير ويجب احاطته بعلماً على

الدوام بجميع المسائل المتعلقة بإدارة القضاء فيما له مساس بالاجانب ويكون ايضاً تحت تصرف الحكومة المصرية لاستشارته في أي أمر مرتبط بحفظ الامن العام

خامساً - نظراً لما في النية من نقل الحقوق التي تستعملها الى الآن الحكومات الاجنبية المختلفة بموجب نظام الامتيازات الى الحكومة البريطانية تعترف مصر بحق بريطانيا العظمى في التداخل بواسطة ممثليها في مصر ليمنع أن يطبق على الاجانب أي قانون مصري يستدعي الآن موافقة الدول الاجنبية وتتعهد بريطانيا العظمى من جانبها أن لا تستعمل هذا الحق الا حيث يكون مفعول القانون جائراً على الاجانب .
صيغة أخرى لهذه المادة

نظراً لما في النية من نقل الحقوق التي تستعملها للآن الحكومات الاجنبية المختلفة بموجب نظام الامتيازات الى الحكومة البريطانية تعترف مصر بحق بريطانيا العظمى في التداخل بواسطة ممثليها ليمنع أن ينفذ على الاجانب أي قانون مصري يستدعي الآن موافقة الدول الاجنبية وتتعهد بريطانيا العظمى من جانبها بأن لا تستعمل هذا الحق الا في حالة القوانين التي تتضمن تمييزاً جائراً على الاجانب في مادة فرض الضرائب اولا توافق مبادئ التشريع المشتركة بين جميع الدول ذوات الامتيازات .

سادساً - نظراً للعلاقات الخاصة التي تنشأ عن المحالفة بين بريطانيا العظمى ومصر يمنح الممثل البريطاني مركزاً استثنائياً في مصر ويحول حق التقدم على جميع الممثلين الآخرين .

سابعاً - الضباط والموظفون الاداريون من بريطانيين وغيرهم

من الاجانب الذين دخلوا خدمة الحكومة المصرية قبل العمل بالمعاهدة يجوز انتهاء خدمتهم بناء على رغبتهم أو رغبة الحكومة المصرية في أي وقت خلال سنتين بمد العمل بالمعاهدة وتحديد المعاهدة المعاش أو التعويض الذي يمنح للموظفين الذين يتركون الخدمة بموجب هذا النص زيادة عما هو مخول لهم بمقتضى القانون الحالي .
وفي حالة عدم استعمال الحق المخول بهذا الاتفاق تبقى احكام التوظيف الحالية بغير مساس .

٥ - تعرض هذه المعاهدة على جمعية تنظيم ولكن لا يعمل بها الا بعد انفاذ الاتفاقات بين الدول الأجنبية على ابطال محاكم القنصلية وانفاذ الأوامر العالية المعدلة لنظام المحاكم المختلطة .

٦ - يعهد الى جمعية التنظيم وضع قانون نظامى جديد تدير حكومة مصر في المستقبل بمقتضى أحكامه ويتضمن هذا النظام أحكاماً تقضى بجعل الوزراء مسئولين امام الهيئة التشريعية وتقضى أيضاً باطلاق الحرية الدينية لجميع الأشخاص والحماية الواجبة لحقوق الأجانب .

٧ - تحصل التعديلات اللازمة ادخالها على نظام الامتيازات باتفاقات تعقد بين بريطانيا العظمى والدول المختلفة ذوات الامتيازات وتقضى هذه الاتفاقات بابطال المحاكم القنصلية الأجنبية لكي ييسر تعديل نظام المحاكم المختلطة وتوسيع اختصاصها وسريان التشريع الذى تسنه الهيئة التشريعية المصرية (ومنه التشريع الذى يفرض الضرائب) على جميع الاجانب فى مصر .

٨ - تنص هذه الاتفاقات على أن تنتقل الى الحكومة البريطانية الحقوق التى كانت تستعملها الحكومات الأجنبية المختلفة بمقتضى نظام

الامتيازات وتشتمل أيضاً أحكاماً تقضي بما يأتي . -

أولاً - لا يسوغ العمل على التمييز الجائر على رعايا أى دولة وافقت على ابطال محاكمها القنصلية ويتمتع هؤلاء الرعايا في مصر بنفس المعاملة التي يتمتع بها الرعايا البريطانيون .

ثانياً - يؤسس قانون الجنسية المصرية على قاعدة النسب فيتمتع الاولاد الذين يولدون في مصر لأجنبي بجنسية أبيهم ولا يحق اعتبارهم رعايا مصريين .

ثالثاً - تخول مصر موظفي قنصليات الدول الأجنبية نفس النظام الذي يتمتع به القناصل الأجانب في إنجلترا .

رابعاً - المعاهدات والاتفاقات المالية التي اشتركت مصر في التعاقد عليها في مسائل التجارة والملاحة ومنها اتفاقات البريد والتلغراف تبقى نافذة المفعول أما في المسائل التي ينالها مساس ما جراء ابطال المحاكم القنصلية فتعمل مصر بالمعاهدات النافذة المفعول بين بريطانيا العظمى والدول الأجنبية صاحبة الشأن مثل معاهدات تسليم المجرمين وتسليم البحارة الفارين وكذلك المعاهدات التي لها صفة سياسية سواء كانت معقودة بين أطراف عدة أو بين طرفين مثال ذلك اتفاقات تحكيم والاتفاقات المختلفة المتعلقة بسير الحروب وذلك كله ريثما تعقد اتفاقات خاصة تكون مصر طرفاً فيها .

خامساً - تضمن حرية ابتناء المدارس وتعليم لغة الدولة الأجنبية صاحبة الشأن على شرط أن تخضع هذه المدارس من جميع الوجوه للقوانين السارية بوجه عام على المدارس الأوروبية بمصر .

سادساً - تضمن أيضاً حرية ابقاء أو انشاء معاهد دينية وخيرية

كالمستشفيات الخ وتنص المعاهدات أيضا على التغيرات اللازمة في صندوق الدين وعلى ابعاد العنصر الدولي عن مجلس الصحة في الاسكندرية.

٩ - التشريع الذي تستلزمه الاتفاقات السالفة الذكر بين بريطانيا والدول الأجنبية يعمل به بمقتضى مراسيم تصدرها الحكومة المصرية وفي الوقت عينه يصدر مرسوم يقضى باعتبار جميع الاجراءات التشريعية والادارية والقضائية التي اتخذت بمقتضى الاحكام العرفية صحيحة.

١٠ - تقضى المراسيم العالية المعدلة لنظام المحاكم المختلطة بتحويل هذه المحاكم كل الاختصاص الذي كان مخولا الى الآن للمحاكم القنصلية والأجنبية ويترك اختصاص المحاكم الأهلية غير ممسوس

١١ - بعد العمل بالمعاهدة المشار اليها في البند الثالث تبلغ بريطانيا العظمى نصها الى الدول الأوروبية الأجنبية وتعهد الطاب الذي تقدمه مصر للدخول عضواً في جمعية الأمم.

مشروع كرزون

بنصوص مشروع اتفاق بين بريطانيا العظمى ومصر

أولاً - انتهاء الحماية

١ - في مقابل إبرام المعاهدة الحالية والتصديق عليها تقبل حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى رفع الحماية المعلنة على مصر في ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ والاعتراف بمصر من ذلك الحين دولة متمعة بحقوق السيادة (Sovereign State) تحت امرة ملوكية دستورية . فبمقتضى هذا قد أبرمت وتستمر باقية بين حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى وشعبه من جهة وبين حكومة مصر والشعب المصرى من الجهة الأخرى معاهدة دائمة ورابطة سلام ووداد وتحالف .

ثانياً - العلاقات الأجنبية

٢ - تتولى الشؤون الخارجية لمصر وزارة الخارجية المصرية تحت ادارة وزير معين لذلك .

٣ - يمثل حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى فى مصر قوميسير عال يكون له فى جميع الأوقات وبسبب مسؤولياته الخاصة مركز استثنائى ويكون له حق التقدم على ممثلى الدول الأخرى .

٤ - يمثل الحكومة المصرية فى لوندرة وفى أية عاصمة أخرى ترى الحكومة المصرية أن المصالح المصرية يمكن أن تستدعى هذا التمثيل فيها معتمدون سياسيون يكون لهم لقب ومرتبة وزير .

٥ - بالنظر للتعهدات التى أخذتها بريطانيا العظمى على نفسها فى

مصر وعلى الخصوص فيما يتعلق بالدول الأجنبية يجب أن توجد أوثق الصلات بين وزارة الخارجية المصرية والقوميسير العالى البريطانى الذى يقدم كل المساعدة الممكنة للحكومة المصرية فيما يتعلق بالمعاملات والمفاوضات السياسية .

٦ - لا تدخل الحكومة المصرية في أي اتفاق سياسى مع دولة أجنبية بدون أن تستطلع رأي حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى بواسطة القوميسير العالى البريطانى .

٧ - تتمتع الحكومة المصرية بحق تعيين ممثلين قنصلين في الخارج حسب مقتضيات مصالحها .

٨ - لأجل تولى الشؤون السياسية بوجه عام والقيام بالحماية القنصلية للمصالح المصرية في الاماكن التى لا يوجد فيها ممثلون سياسيون أو قناصل مصريون يضع ممثلو جلالة ملك بريطانيا العظمى أنفسهم تحت تصرف الحكومة المصرية ويقدمون لها كل مساعدة في قدرتهم .

٩ - تستمر حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى على تولى المفاوضات لالغاء الامتيازات الحالية مع الدول ذوات الامتيازات وتقبل مسؤولية حماية المصالح المشرعة للاجانب في مصر وتداول حكومة جلالة الملك مع الحكومة المصرية قبل البت في هذه المفاوضات رسمياً .

ثالثاً - النصوص العسكرية

١٠ - تعهد بريطانيا العظمى بمساعدة مصر في الدفاع عن مصالحها الحيوية وعن سلامة أراضيها .

لأجل القيام بهذه التعهدات ولحماية المواصلات الامبراطورية البريطانية الحماية اللازمة تكون للقوات البريطانية حرية المرور في مصر

ولها أن تستقر في أي مكان في مصر ولا أية مدة يحددان من وقت لآخر . ويكون لها أيضاً في كل وقت مالها الآن من التسهيلات لأحراز واستعمال النكبات ومياين التمرين والمطارات والترسانات الحربية والمين الحربية .

رابعاً - استخدام الموظفين الأجانب

١١ - بالنظر للمسؤوليات الخاصة التي تتحملها بريطانيا العظمى وبالنظر للحالة القائمة في الجيش المصري والمصالح العمومية تتعهد الحكومة المصرية ألا تعين ضباطاً أو موظفين أجانب في أية مصلحة منها قبل موافقة القوميسير العالى البريطانى .

خامساً - الادارة المالية

١٢ - تعين الحكومة المصرية بعد استشارة In consultation with حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى قوميسيراً مالياً توكل اليه في الوقت المناسب الحقوق التي يقوم بها الآن أعضاء صندوق الدين ويكون هذا القوميسير المالى مسؤولاً بوجهه أخص عن دفع المطلوبات الآتية في مواعيدها :

- (١) المبالغ المخصصة لميزانية المحاكم المختلطة .
- (٢) جميع المعاشات والسنوات الأخرى المستحقة للموظفين الاجانب المحالين على المعاش وورثتهم .
- (٣) ميزانيتى القوميسيرين المالى والقضائى والموظفين التابعين لها .

١٣ - لأجل أن يؤدي القوميسير المالي واجباته كما ينبغي يجب أن يحاط احاطة تامة بجميع الأمور الداخلة في دائرة وزارة المالية ويكون له في كل وقت التمتع بحق الدخول على رئيس مجلس الوزراء ووزير المالية .

١٤ - ليس للحكومة المصرية عقد قرض خارجي أو تخصيص إيرادات مصلحة عمومية بدون موافقة القوميسير العالي

سادساً - الادارة القضائية

١٥ - تعين الحكومة المصرية بالاتفاق مع حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى قوميسيراً قضائياً يكلف بسبب التعهدات التي تحملتها بريطانيا العظمى القيام بمراقبة تنفيذ القانون في جميع المسائل التي تمس الاجانب .

١٦ - لأجل أن يؤدي القوميسير القضائي واجباته كما ينبغي يجب أن يحاط احاطة تامة بجميع الامور التي تمس الاجانب وتكون من اختصاص وزارة الحقانية والداخلية ويكون له في كل وقت التمتع بحق الدخول على وزيرى الحقانية والداخلية .

سابعاً - السودان

١٧ - حيث ان رقي السودان السلمي هو من الضروريات لأمن مصر ولدوام مورد المياه لها تتعهد مصر بأن تستمر في أن تقدم لحكومة السودان نفس المساعدات الحربية التي كانت تقوم بها في الماضى أو أن تقدم بدلا من ذلك لحكومة السودان اعانة مالية تحدد قيمتها بالاتفاق بين الحكومتين

تكون كل القوات المصرية في السودان تحت امر الحاكم العام
وغير ذلك تتمتع بريطانيا العظمى بأن تضمن مصر نصيبها العادل
من مياه النيل ولهذا الغرض قد تقرر أن لا تقام اعمال ري جديدة
على النيل أو روافده جنوبي وادي حلفا بدون موافقة لجنة مؤلفة من
ثلاثة أمناء يمثل أحدهم مصر والثاني السودان والثالث أوغندا.

ثامناً - قروض الجزية

١٨ - المبالغ التي تعهد خديوي مصر في أوقات مختلفة بدفعها
للبیوت المالية التي أصدرت القروض التركية المضمونة بالخزينة المصرية
تستمر الحكومة المصرية على تخصيصها كما كان في الماضي لدفع الفوائد
والاستهلاك لقرضي سنة ١٨٩٤ وسنة ١٨٩١ الى أن يتم استهلاك
هذين القرضين.

تستمر الحكومة المصرية ايضاً في دفع المبالغ التي كان جارياً دفعها
لسداد فوائد قرض سنة ١٨٥٥ المضمون.

عند ما يتم استهلاك قروض سنة ١٨٩٤ وسنة ١٨٩١ وسنة ١٨٥٥
تنتهي مسؤولية الحكومة المصرية فيما يتعلق بأي تعهد ناشئ عن
الجزية التي كانت تدفعها مصر لتركيا سابقاً.

تاسعاً - اعتزال الموظفين والتعويض المستحق لهم

١٩ - للحكومة المصرية الحق في أن تستغني عن خدمة الموظفين
البريطانيين في أي وقت كان بعد تقاذ هذه المعاهدة بشرط أن يمنح
هؤلاء تعويضاً مالياً كما سيأتى بيانه وذلك زيادة على المعاش أو المكافأة
التي يستحقونها بمقتضى احكام استخدامهم

ويكون للموظفين البريطانيين الحق بنفس هذه الشروط في الاستعفاء من الخدمة في أي وقت بعد نفاذ هذه المعاهدة.

تسرى جميع هذه الاحكام على الموظفين الذين لهم الحق في المعاش والذين ليس لهم الحق في المعاش وأيضاً على موظفي البلديات ومجالس المديرية والهيئات المحلية الاخرى.

٢٠ - الموظفون المرفوتون أو المحالون على المعاش طبقاً لنص المادة السابقة تعطي لهم زيادة على التعويض اعادة اياهم لبلادهم تكون كافية لسد نفقات ترحيل الموظف نفسه وعائلته ومتاعه المنزلي الى لندره.

٢١ - تدفع التعويضات والمعاشات بالجنهيات المصرية باعتبار سعر ثابت قدره ٩٧ قرشاً صاعاً ونصف قرش صاعاً للجنهية الانجليزي.

٢٢ - يوضع جدول عن التعويضات :

(١) للموظفين الدائمين

(٢) للموظفين المؤقتين

بمعرفة رئيس جمعية خبراء حسابات التأمين (Society of Actuaries)

عاشراً - حماية الاقليات

٢٣ - تتعهد مصر بان النصوص الوارد ذكرها فيما بعد تعتبر قوانين أساسية وألا يتضارب معها أو يؤثر عليها أي قانون أو لائحة أو عمل رسمي وألا ينقض مفعولها قانون أو لائحة أو عمل رسمي

٢٤ - تتعهد مصر بأن تضمن لجميع سكان مصر الحماية التامة الكاملة لأرواحهم وحريةهم من غير تمييز بسبب مولدهم أو تبعيتهم الاولى أو لغتهم أو جنسهم أو دينهم.

يكون لجميع سكان مصر الحق في أن يقوموا بحرية تامة علانية أو غير علانية بشعائر أية ملة أو دين أو عقيدة ما دامت هذه الشعائر لا تنافي النظام العام أو الآداب العمومية.

٢٥ - جميع الحائزين للرعاية المصرية يكونون متساوين أمام القانون ويكون لكل منهم التمتع بما يتمتع به الآخرون من الحقوق المدنية والسياسية من غير تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين .
اختلاف الأديان والعقائد والمذهب لا يؤثر على أي شخص حائز للرعاية المصرية في المسائل الخاصة بالتمتع بالحقوق المدنية والسياسية مثل الدخول في الخدمات العمومية والتوظيف والحصول على ألقاب الشرف أو مزاولة المهن أو الصناعات .

لا يسوغ فرض أي قيد على أي شخص متمتع بالرعاية المصرية في حرية استعماله لأية لغة في معاملاته الخصوصية أو التجارية أو في الدين أو في الصحف أو في المطبوعات من أي نوع كانت أو في الاجتماعات العمومية .

٢٦ - الأشخاص الحائزون للرعاية المصرية التابعون للأقليات القومية أو الدينية أو اللغوية يكون لهم الحق في القانون وفي الواقع في نفس المعاملة والضمانات التي يتمتع بها غيرهم من الحائزين للرعاية المصرية وعلى الخصوص يكون لهم حق مساو لحق الآخرين في أن يندشئوا أو يديروا أو يراقبوا على نفقتهم معاهد خيرية أو دينية أو اجتماعية ومدارس أو غيرها من دور التربية ويكون لهم الحق في أن يعملوا فيها لغتهم الخاصة وأن يقوموا بشعائر دينهم بحرية فيها ما

المذكرة التفسيرية

تبليغ من نائب جلالة الملك

الى حضرة صاحب العظمة سلطان مصر

في ٣ ديسمبر سنة ١٩٢١

يا صاحب العظمة

انه بموجب النعميات التي وصلتني من حكومة جلالة الملك لي الشرف
أن أرفع الى مقام عظمتكم البيان الآتي المتضمن آراء حكومة جلالته
فيما يتعلق بالمفاوضات التي جرت حديثاً مع الوفد المرسل من قبل
عظمتكم تحت رئاسة صاحب الدولة عدلي يكن باشا أن حكومة جلالته
قدمت الى عدلي باشا مشروع اتفاق لعقد معاهدة بين الامبراطورية
البريطانية ومصر كانت حكومة جلالته على استعداد لأن توصي جلالة
الملك ومجلس النواب بقبوله ولكنها علمت بمزيد الاسف أن ذلك
المشروع لم يحز قبولا لديه . ومما زاد أسفها أنها تعتبر اقتراحاتها هذه
سيخية في جوهرها واسعة النطاق في نتائجها فانها لا يمكنها أن تبقى محلا
لأى أمل في اعادة النظر في المبدأ الذي بنيت عليه تلك الاقتراحات
لذلك كان من المستحسن أن نحيط حكومة جلالته علم عظمتكم احاطة
وافية بالاعتبارات الرئيسية التي استرشدت بها وبالروح التي صدرت
عنها تلك الاقتراحات .

ان هناك حقيقة جليلة سادت العلاقات بين بريطانيا العظمى ومصر

مدة أربعين سنة ويجب أن تبقى هذه الحقيقة سائدة على الدوام وهي التوافق التام بين مصالح بريطانيا العظمى في مصر وبين مصالح مصر نفسها . ان استقلال الامة المصرية وسيادتها كلاهما عظيم الاهمية للامبراطورية البريطانية . ان مصر واقعة على خط المواصلات الرئيسى بين بريطانيا العظمى وممتلكات جلالة الملك في الشرق وجميع الاراضى المصرية هي في الواقع ضرورية لهذه المواصلات لان مصر لا يمكن فصلها عن سلامة منطقة قناة السويس . لذلك فان حفظ مصر سالمة من تسلط أية دولة عظيمة أخرى عليها هو في الدرجة الاولى من الأهمية للهند وأستراليا ونيوزيلانده ولجميع مستعمرات وولايات جلالته في الشرق ويؤثر في سعادة وسلامة نحو ثلاثمائة وخمسين مايونا من رعايا جلالته ثم ان نجاح مصر يهم هذه البلاد ليس لان كلا من بريطانيا العظمى ومصر هي أفضل عملية للآخرى فقط بل لان كل خطر جسيم على مصلحة مصر التجارية أو الملية يدعو الى مداخله الدول الأخرى فيها ويهدد استقلالها . هذه كانت البواعث الرئيسيه للعلاقات بين بريطانيا العظمى ومصر وهي لا تزال الآن على ما كانت عليه من القوة في العام الماضى .

لقد اعترف الجميع بما أصاب هذا الائتلاف من النجاح بوجه عام أثناء الحرب العظمى . ولما بدأت بريطانيا العظمى تهتم بمصر اهتماماً فعلياً كان المصريون فريسة الاحتلال المالى والفوضى الاداريه وكانوا تحت رحمة أي قادم ولم يكن في طاقتهم مقاومة ضروب الوسائل القتالة للاستغلال الاجنبى تلك الوسائل التي تسلب من نفوس الامة كرامتها وتمحو قواها الحيويه فاذا كانت الامة المصرية الآن أمة نشيطة ذات

كرامة فانها مدينة لهذه النهضة علي الخصوص لمعونة بريطانيا العظمى ومشورتها ان المصريين ساءوا من المداخلة الأجنبية واعينوا على انشاء نظام ادارى وانه وقد تدرب عدد كبير منهم على ادارة الأمور والحكم واطرد نمو مقدراتهم ونجحت ماليتهم نجاحاً فوق المنتظر وقد قامت سعادة جميع الطبقات على أسس ثابتة . وفي هذا التقدم السريع لم يكن هناك ظل للاستغلال أن بريطانيا العظمى لم تطلب لنفسها ربحاً مالياً أو امتيازاً تجارياً والأمة المصرية قد جنت كل ثمار مشورة بريطانيا العظمى ومساعدتها لها . أن نشوب نار الحرب بين الدول الأوربية العظمى سنة ١٩١٤ زاد بالضرورة عرى الائتلاف ثوثيقاً بين الأمبراطورية البريطانية ومصر . ولما انضمت الدولة العثمانية الى جانب المانيا في الحرب لم يكن أثر ذلك قاصراً على تهديد المواصلات البريطانية وحدها بل كان مهدداً لها ولاستقلال مصر على السواء تهديداً عاجلاً فكان اعلان الحماية على مصر اعترافاً بهذه الحقيقة وهي أنه لا يمكن دفع الخطر عن الامبراطورية البريطانية ومصر معاً الا بعمل مشترك تحت قيادة واحدة . كان تساع نطاق الحرب بدخول تركيا فيها السبب في قتل وتشويه آلاف من رعايا جلالة الملك من الهند واستراليا ونيوزيلاند ومن رجال بريطانيا العظمى أيضاً وقبورهم في غاليبولي وفلسطين والعراق شاهدة على الجهد العظيم الذي كابذته شعوب الأمبراطورية البريطانية بسبب دخول تركيا . قد اجتازت مصر هذه المحنة دون أن يمسه ضرر بفضل جهود من بعثت بهم تلك الشعوب من الجنود . فكانت خسائر مصر طفيفة ولم يزد دينها وثروتها لأن أعظم مما كانت قبل الحرب في حين أزال الكساد الاقتصادي قد اشتدت وطأته على أكثر البلدان الاخرى . فليس من الحكمة أن

الشعب المصري يتغاضى عن هذه الحقائق أو ينسى لمن هو مدين بذلك كله. ولولا القوة التي أبدتها الأمبراطورية البريطانية في الحرب لاصبحت مصر ميدان حرب بين القوات المتحاربة ولوطئت هذه القوات حقوق مصر بأقدامها وأفنت ثروتها. ولولا نصر الحلفاء لم تكن في مصر أمة الآن تطالب بحقوق السيادة الوطنية بدلا عن حماية أجنبييه فالحرية التي تتمتع بها مصر الآن وما تتطلع اليه من حرية أوسع انما هي مدينة بهما لسياسة البريطانية والقوة البريطانية.

ان حكومة جلالة الملك مقتنعة بأن الاتفاق التام في المصالح بين بريطانيا العظمى ومصر الذي جعل ائتلافاً نافعا لكليهما في الماضي هو دعامة العلاقة التي يجب على كليهما استمرار المحافظة عليها وعلى الأمبراطورية البريطانية الآن كما كان في الماضي أن تحمل على عاتقها في آخر الأمر مسئولية الدفاع من أراضى عظمتكم ضد أي تهديد خارجي. وكذلك عاينها تقديم الموعونة التي قد تطلبها في أى وقت حكومة عظمتكم لحفظ سلطتكم في البلاد. ثم أن حكومة جلالة الملك تطلب فوق ذلك أن يكون لها دون غيرها الحق في تقديم ما قد تحتاج حكومة عظمتكم من المشورة في ادارة البلاد وتدير مالياتها وترقية نظامها القضائى ومواصلة علاقاتها مع الحكومات الأجنبية ، على أن حكومة جلالاته لا ترمي من وراء هذه المطالب الى منع مصر من تمتعها بكامل حقوقها في حكومة ذاتية وطنية بل هي ترمي بذلك الى التمسك بها قبل الدول الأجنبية الأخرى. وهذه المطالب قوامها تلك الحقيقة وهي أن استقلال مصر واستتباب النظام فيها وسعادتها ركن أساسى لسلامة الأمبراطورية البريطانية فحكومة جلالة الملك تأسف على أن

مندوبى عظمتكم لم يتقدموا أثناء المفاوضات تقدماً يذكر في سبيل الاعتراف بما للأمبراطورية البريطانية دون سواها من الأسباب الصحيحة للتمسك بهذه الحقوق والمسئوليات .

إن شروط المعاهدة التي تعتبرها حكومة جلالة الملك ضرورية لحفظ هذه الحقوق وكفالة هذه المسئوليات قد أدرجت في مواد المشروع الذي سيرفعه الى عظمتكم صاحب الدولة عدلى باشا . وأهم هذه الشروط هو ما يتعلق بالجنود البريطانيين . فأن حكومة جلالة الملك قد عنيت أتم عناية ببحث الأدلة التي قدمها الوفد المصرى في هذا الشأن ولكنها لم تستطع أن تقبلها . لأن حالة العالم الحاضرة ومجري الأحوال في مصر منذ عقد الهدنة لا يسمحان بأي تعديل كان في توزيع القوات البريطانية في الوقت الحاضر ومن الواجب إعادة القول بأن مصر هي جزء من مواصلات الأمبراطورية البريطانية ، ولم يكد يعضى جيل على مصر منذ انقذت من الفوضى وهناك علامات على أنه لا يبعد على المتطرفين في الحركة الوطنية أن يزجوا بمصر ثانية في الهوة التي لم يطل العهد على انقاذها منها . وقد زاد اهتمام جلالة الملك بهذا الشأن لما رأى أنه من عدم رغبة وفد عظمتكم في الاعتراف بأن الأمبراطورية البريطانية يجب أن يكون عندها ضمان قوى ضد أي تهديد مثل هذا لمصالحها والى أن يحين الوقت الذى يكون فيه سلوك مصر مدعاة الى الثقة بالضمانات التي تعطيها يكون من الواجب على الأمبراطورية البريطانية نفسها أن تستبقى ماتراه كافياً من الضمانات . وأول هذه الضمانات ورأسها هو وجود جنود بريطانية في مصر وحكومة جلالة الملك لا يمكنها أن تتخلى عن هذا الضمان ولا أن تنقص منه .

على انها تعيد القول وتأكده بأن مطالبها في هذا الصدد لا يقصد بها استمرار حماية لا فعلا ولا حكما بل بالعكس أن أمنيتهما القلبية الخالصة هي أن تتمتع مصر بحقوق وطنية ويكون لها بين الامم مقام دولة متمتعة بحق السيادة على أن تكون مرتبطة ارتباطا وثيقا بالامبراطورية البريطانية بمعاهدة تكفل للفريقين مصالحهما وأغراضهما المشتركة . ولهذه الغاية التي جعلتها حكومة جلالته نصب عيذها اقترحت رفع الحماية فوراً والاعتراف بمصر « دولة متمتعة بحقوق السيادة تحت أمرة ملوكية دستورية » والاستعاضة عن العلاقات القائمة الآن بين الامبراطورية البريطانية ومصر « بمعاهدة دائمة رابطة سلام ووداد وتحالف » وكانت حكومة جلالته تأمل أن مصر باعادة وزارة الخارجية ترسل ممثلها في الحال الى الممالك الاجنبية كما انها كانت على استعداد لتعزيد مصر في انضمامها الى جمعية الامم اذا طلبت ذلك وبذلك كان يتحقق لمصر في الحال ما للدول المتمتعة بحقوق السيادة من السلطة والميزات ولكن رفض حكومة عظمتكم الحاضرة لهذه الافتراحات اوجد طالة جديدة . وهذه الحالة لا تؤثر في مبدأ السياسة البريطانية ولكنها بالضرورة تقلل من التدابير التي يمكن تنفيذها الآن ولذلك فإن حكومة جلالته الملك ترغب أن تبدي بوضوح حالة موقفها الآن .

ففيما يتعلق بالحاضر لا يمكن لحكومة جلالته تنفيذ اقتراحاتها بدون رضا الامة المصرية واشترائها . ولكنها حكومة جلالته تحافظ على الرغبة التي كانت لديها على الدوام وهي العمل على انماء مواهب المصريين وزيادة عدد الموظفين منهم في كل فرع ولا سيما في الفروع الادارية العاليه التي كثر فيها عدد الموظفين الاوربيين وحكومة جلالته مستعدة

لان تواصل بمشاوره حكومة عظمتكم المفاوضات مع الدول الاجنبية
لاجل الغاء الامتيازات لكي يكون الموقف الدولي جلياً عند ما يحين
وقت اصدار التشريع المصري الذي سيحل محل تلك الامتيازات. وكذلك
ترجو حكومة جلالته ان السلطة التي يباشرها الآن القائد العام تحت
القانون العسكري تباشرها الحكومة المصرية وحدها بمقتضى القوانين
المدنية المصرية وهي تسر برفع الاحكام العسكرية حالما يصدر « قانون
التضمينات » ويعمل به في كل المحاكم المدنية والجنائية في مصر
وهو قانون لا بد منه لحماية الحكومة المصرية وحماية السلطة
البريطانية في مصر

وأما من جهة المستقبل فان حكومة جلاله الملك ترغب أن توضح
بعبارة جلية السياسة التي تنوى اتباعها. فقد علمت أن المشروع الذي
قدمته الى وفد عظمتكم قد رفض بحجة أن الضمانات التي تضمنها
المشروع لصيانة المصالح البريطانية والاجنبية تقضي على التمتع
بالحكومة الذاتية تمتعاً صحيحاً وعي تأسف غاية الاسف على أن
استبقاء الجنود البريطانية في مصر واشتراك الموظفين البريطانيين مع
وزارتى الحقانية والمالية يساء فهم المراد منهما الى هذا الحد. اذا
كان الشعب المصري يستسلم الى امانيه الوطنية مهما كانت هذه الاماني
صحيحة ومشروعة في ذاتها دون أن يكثرث اكثر انكافياً بالحقائق
التي تستحكم في الحياة الدولية فان تقدمه في سبيل تحقيق مطمحه
الاممي لا يصيبه التأخير فقط بل يتعرض للخطر تعرضاً تاماً. اذ ليس
من فائدة ترجي من وراء التصغير من شأن ما على الامه من الواجبات
وتعظيم ما لها من الحقوق وان الزعماء المتطرفين الذين يدعون الى هذا

لا يعملون على نهوض مصر بل يهددون رقيها . وهم بما كان لهم من
الآثر في مجرى الحوادث قد تحذروا مرة بعد مرة الدول الأجنبية في
مصالحها وأثاروا مخاوفها . وكذلك عملوا في الأسابيع الأخيرة على
التأثير على مصير المفاوضات ببدء آت مهيجة استثاروا بها جهل العامة
وشهواتهم . وإن حكومة جلالة الملك لا تعتبر أنها تخدم مصلحة
مصر بتساهلها إزاء تهيج من هذا القبيل ولن يمكنوا مصر أن تسير
في سبيل الرقي إلا متى أظهر قادتها المسئولون من الحزم والعزيمة ما يكفل
قمع مثل هذا التهيج فإن العالم الآن تألم من جهات عديدة من الاندفاع
في نوع من الوطنية المتعصبة المضطربة وحكومة جلالة الملك تقاوم
هذا النوع من الوطنية بكل شدة سواء في مصر أو في غيرها . وإن
اولئك الذين يستسمعون لتلك النزعات إنما يعملون على جعل القيود
الأجنبية التي يطلبون الخلاص منها أشد لزوماً وبذلك يطيلون أجلها .
وإذا كان الأمر كذلك فإن حكومة جلالة الملك مراعاة لمصلحة مصر
ومصلحتها الخاصة أيضاً تستمر بلا تردد على مواصلة غرضها كمرشدة
لمصر وأمينة على مصالحها ولا يكفيها أن تعلم أن في استطاعتها العودة
إلى مصر إذا تبين أن مصر بعد أن تركت لنفسها بغير معونة قد عادت
إلى عهد التبذير والاضطراب الذي لازمها في القرن الماضي . فرغبة
حكومة جلالة الملك أن تستكمل العمل الذي بدأ به في عهد اللورد
كرومر لا أن تبدأه من جديد . وهي لا تنوى أن تبقى مصر تحت
وصايتها بل بالعكس ترغب في تقوية عناصر التعمير في الوطنية المصرية
وتوسيع مجال العمل أمامها وتقريب الوقت الذي يمكن فيه تحقيق
المطمح الوطني تحقيقاً تاماً . ولكنها ترى من الواجب أن تصر على

الاحتفاظ بالحقوق والسلطة الفعالة لأجل صيانة مصالح مصر ومصالحها الخاصة على السواء وذلك الى أن يظهـر الشعب المصرى انه قادر على صيانة بلاده من الاضطراب الداخلى وما يترتب عليه حتما من تداخل الدول الاجنبية .

وسبيل التقدم الوحيد للشعب المصرى يقوم على تأزره مع الامبراطورية البريطانية لاعلى تنافرهما . وحكومة جلالته لرغبتها فى هذا النأزر مستعدة فيما يتعلق بها الى البحث فى أية طريقة قد تعرض عليها لاجل تنفيذ اقتراحاتها فى جوهرها وذلك فى أى وقت تريده حكومة عظمتمكم . على انها مع هذا لايسعها تعديل المبدأ الذى بنيت عليه تلك الاقتراحات ولا اضعاف الضمانات الجوهرية التى تشتمل عليها . وهذه الاقتراحات من مقتضاها أن يكون مستقبل مصر فى أيدي الشعب المصرى بنفسه . فكلما زاد اعتراف شعبكم بوحدة المصالح البريطانية ومصالحه قلت الحاجة الى هذه الضمانات . وقادة مصر المسئولون هم الذين عليهم فى هذا العهد الثانى من اشتراكهم مع بريطانيا العظمى أن يثبتوا بقبولهم النظام الوطنى المعروف عليهم الآن وبالالتزام جانب الحكمة فى العمل به ان المصالح الحيوية للامبراطورية البريطانية فى بلادهم يمكن أن توكل لعنايتهم بالتدريج .

رد الوفد الى سمي

على مشروع الاتفاق بين بريطانيا العظمى ومصر

اطلع الوفد الرسمي المصري على المشروع الذي سلمه اللورد كرزون الى رئيس الوفد بتاريخ ١٠ نوفمبر سنة ١٩٢١ .

ولقد رأي أن هذا المشروع تضمن فيما يتعلق بأكثر المسائل التي تناولتها مناقشاتنا والمذكرات التي تبادلناها منذ أربعة شهور نفس النصوص والصيغ التي عرضت علينا عند بدء المفاوضات ولم نقبلها حينئذ .

فعن المسألة العسكرية وهي ذات أهمية كبرى استبقى المشروع الحل الذي قاومناه أشد مقاومة . ولم يقتصر على ذلك بل توسع في مرماه بما جعله أشد وطأة . على ان حماية المواصلات الامبراطورية ، وهي التي قيل في مفاوضات العام الماضي أنها العلة الوحيدة لوجود قوة عسكرية في القطر المصري ، لا تبرر هذا الحل .

ففي حين أنه كان يكفي تعيين نقطة في منطقة القنال تنحصر فيها طرق ووسائل المواصلات الامبراطورية وكذلك القوة التي تتولى حمايتها نص المشروع على تحويل بريطانيا العظمى الحق في ابقاء قوات عسكرية في كل زمان وفي أي مكان بالاراضي المصرية ووضع أيضاً تحت تصرفها كل مالى القطر من وسائل المواصلات وطرقها . وهذا انما هو الاحتلال بذاته ، الاحتلال الذي يهدم كل معنى للاستقلال بل ويذهب

الى حد القضاء على السيادة الداخلية . على ان الاحتلال العسكري في الماضي ، ولو لم تكن له الا صفة مؤقتة ، قد كفى لأن يثبت لبريطانيا العظمى المراقبة المطلقة على الادارة كلها وان لم يكن هناك أي نص في معاهدة أو تقرير لأية سلطه .

أما مسألة العلاقات الخارجية ، وهي المسألة الوحيدة التي عدلت فيها الصيغة الاولى التي كانت وضعها وزارة الخارجية البريطانية وذلك بقبول مبدأ التمثيل ، فان المشروع قد أحاط الحق الذي اعترف لنا به بقيود كثيرة أصبح معها بمثابة حق وهمي ، اذ لا يتصور اذ تتوفر لدى وزير الخارجية الحرية التي يقتضيها القيام بأعباء منصبه وتحمل مسؤوليته اذا كان ملازماً بنص صريح بأن يبقى على اتصال ويشق بالمندوب السامي . فان ذلك معناه أن يكون خاضعاً في الواقع لمراقبته مباشرة في ادارة الامور الخارجية . وعدا ذلك فان الالتزام بالحصول على موافقة بريطانيا العظمى على جميع لاتفاقات السياسيه ، حتى ما لا يتناقض منها مع روح التحالف ، فيه اخلال خطير بمبدأ السيادة الخارجية . وأخيراً فان استبقاء لقب المندوب السامي ، وهو لقب لم تجر العادة بمنحه الى الممثلين السياسيين لدى البلاد المستقلة ، هو أوضح في الدلالة على طبيعة النظام السياسي المقترح لمصر .

ومن جهة أخرى فان تأجيل مسألة الامتيازات دحانا الى الاعتقاد بأنه لم تبق حاجة الى النص عليها في المعاهدة وان المفاوضات بشأنها في المستقبل تكون موكولة الى مصر صاحبة الشأن الاول مع معارنتها في ذلك سياسياً من جانب حليفها . ولكن المسألة منظور اليها اليوم كأنها تعني على الاخص بريطانيا العظمى التي تتولى من الآن حماية

المصالح الاجنبية . وتريد أن تبشر وحدهما عند الاقتضاء المفاوضات بشأن الغاء الامتيازات .

أما فيما يتعلق بالمندوبين (القوميسيرين) المالى والقضائى وبتدخلهما فى ادارة الشؤون الداخلية كلها باسم حماية المصالح الاجنبية تدخلا قد يصل فى بعض الاحوال فيما يختص بالمندوب (القوميسير) المالى الى شل سلطة الحكومة والبرلمان فاننا لانريد هنا أن نكرر ما سبق لنا ابدائه من الاعتراضات فى مذكراتنا .

على انه يتحتم علينا القول بأن المناقشات التى تلت تأجيل مسألة الامتيازات بعثت فى نفوسنا الشعور بأن الاتفاق فيما يتعلق بحماية المصالح الاجنبية سيقوم على قواعد أكثر ملاءمة للسيادة المصرية . أما مسألة السودان التى لم يكن قد تناولها البحث فلا بد لنا فيها من توجيه النظر الى ان النصوص الخاصة بها لا يمكن التسليم بها من جانبنا . فان هذه النصوص لا تكفل لمصر التمتع بما لها على تلك البلاد من حق السيادة الذى لانزاع فيه وحق السيطرة على مياه النيل .

ان الملاحظات المقدمة لا تجعل ثمة حاجة الى مناقشة المشروع تفصيلا اذ فيها ما يكفى للدلالة على روحه وممره . وغير هذا فقد التزم المشروع تكرار ذكر تعهدات بريطانيا العظمى و « المسؤوليات الخصوصية » الواقعة على المندوب السامى وكذلك الغرض الجديد - وهو قصد صيانة المصالح الحيوية لمصر - الذى اتخذ سبباً لوجود القوة العسكرية وبهذا تم للمشروع صبغة الوصاية الفعلية .

انا لما قبلنا المهمة التي عهد بها اليها عظمة السلطان كنا نؤمل
الوصول الى ابرام معاهدة تحالف مؤيدة لاستقلال مصر تأييداً حقيقياً
وكفيلة في الوقت نفسه بصيانة المصالح البريطانية وعندئذ فان مصر
حليفة بريطانيا العظمى كانت تعد من واجبات كرامتها الوفاء باخلاص
بما تقطعه على نفسها من العهود . ولكن التحالف بين أمتين لا يمكن
أن يتحقق الا على شريطة أن لا يقضى علي احدهما بالخضوع الدائم .
وان روح المساواة التي سادت مناقشاتنا كانت تسمح لنا بالتفاوض
بنجاح المفاوضات . ولكن المشروع الذي أمامنا لم يحقق هذا الامل .
فهو بحالته لا يجعل محلاً للأمل في الوصول الى اتفاق يحقق أمان
مصر الوطنية

لوندرة في ١٥ نوفمبر سنة ١٩٢١

الى ثيقتان الجديدتان

كتاب اللورد اللنبى الى عظمة السلطان

يا صاحب العظمة

(١) أتشرف بأن أعرض لمقام عظمتكم أن الناس قد ذهبوا في تأويل بعض عبارات المذكرة التفسيرية التي قدمتها الى عظمتكم في الثالث من شهر ديسمبر مذاهب تخالف أفكار الحكومة البريطانية وسياستها وهو ما آسف له أشد الاسف

(٢) ولقد يخال المرء مما نشر عن هذه المذكرة من التعليقات العديدة أن كثيراً من المصريين التي في روعهم أن بريطانيا العظمى توشك أن ترجع في نواياها القائمة على التسامح والعطف على الأماني المصرية وانها تنوى الانتفاع بمركزها الخاص بمصر لاستبقاء نظام سياسى ادارى لا يتفق والحريات التي وعدت بها

(٣) غير انه ليس شئ أبعد عن خاطر الحكومة البريطانية من هذه الفكرة . بل ان الاساس الذي بنيت عليه المذكرة التفسيرية هو ان الغاية من الضمانات التي تطالبها بريطانيا العظمى ليست ابقاء الحماية حقيقة أو حكماً . وقد نصت المذكرة على أن بريطانيا العظمى صادقة الرغبة في أن ترى مصر متممة بما تتمتع به البلاد المستقلة من ميزات أهلية ومن مركز دولى

(٤) واذا كان المصريون قد رأوا في هذه الضمانات انها تجاوزت الحد الذي يلتزم مع حالة البلاد الحرة فقد غاب عنهم ان انجلترا انما

الجأها الى ذلك حرصها على سلامة نفسها تلقاء حالة تتطلب منها أشد الحذر خصوصاً فيما يتعلق بتوزيع القوات العسكرية . على أن الاحوال التي يمر بها العالم الآن لن تدوم . ولا يلبث كذلك أن يزول الاضطراب السائد في مصر منذ الهدنة . والامل وطيد في أن الاحوال العالمية صائرة الى التحسن . هذا من جانب . ومن جانب آخر فكما قيل في المذكرة سيجيء وقت تكون فيه حالة مصر مدعاة الى الثقة بما تقدمه هي من الضمانات المصرية لصيانة المصالح الاجنبية

(٥) اما أن تكون انجلترا راغبة في التداخل في ادارة مصر الداخية فذلك ماقلت فيه الحكومة البريطانية ولا تزال تقول ان اصدق رغباتها وأخلصها هو أن تترك للمصريين ادارة شؤونهم . ولم يكن يخرج مشروع الاتفاق الذي عرضته بريطانيا العظمى عن هذا المعنى . واذا كان قد ورد فيه ذكر موظفين بريطانيين لوزارتى المالية والحقانية فان الحكومة البريطانية لم ترم بذلك الى استخدامهما للتداخل في شؤون مصر . وكل ماقصده هو أن تستبقى اداة اتصال تستدعيها حماية المصالح الاجنبية .

(٦) هذا هو كل مرعى الضمانات . ولم تصدر هذه الضمانات قط عن رغبة في الحيلولة بين مصر وبين التمتع بحقوقها الكاملة في حكومة أهلية .

(٧) فاذا كانت هذه هي نوايا انكلترة فلا يمكن لأحد أن ينكر أن انكلترة يعز عليها أن ترى المصريين يؤخرون بعملهم حلول الاجل الذى يبلغون فيه مطمحا ترغب فيها انكلترة كما تتوق اليه مصر . أو أن ينكر انها تكره أن ترى نفسها مضطرة الى التداخل لرد الامن الى

نصابه كلما أدركه اختلال يثير مخاوف الاجانب ويجعل مصالح الدول في خطر . وانه ليكون مما يؤسف له أن يرى المصريون في التدابير الاستثنائية التي اتخذت أخيراً أي مساس بمظمتهم الالهي أو أية دلالة على تغيير القاعدة السياسية التي سبق بيانها . فان الحكومة البريطانية لم يعد غرضها أن تضع حداً تهيج ضار قد يكون لتوجيهه الى اهواء العامة نتائج تذهب بشجرة الجهود القومية المصرية . ولذلك كان الذي روعي بوجه خاص فيما اتخذ من التدابير مصلحة القضية المصرية التي تستفيد من أن البحث فيها يجري في جو قائم على الهدوء والمناقشة باخلاص .

(٨) والآن وقد بدت تعود السكينة الى ما كانت عليه بفضل الحكومة التي هي قوام الخلق المصري والتي تغلب في الساعات الحاسمة فاني لسعيد أن أنهى الى عظمتكم أن حكومة جلالة الملك تنوى أن تشير على البرلمان باقرار التصريح الملحق بهذا . واننى على يقين بأن هذا التصريح يوجد حالة تسود فيها الثقة المتبادلة ويضع الاساس لحل المسألة المصرية حلانها مرضيا .

(٩) وليس ثمت ما يمنع منذ الآن من اعادة منصب وزير الخارجية والعمل لتحقيق التمثيل السياسى والقنصلى لمصر .

(١٠) أما انشاء برلمان يتمتع بحق الاشراف والرقابة على السياسة والادارة في حكومة مسؤولة على الطريقة الدستورية فالأمر فيه يرجع الى عظمتكم والى الشعب المصري .

واذا ابطأ لأى سبب من الاسباب انفاذ قانون التضمينات (اقرار الاجراءات التي اتخذت باسم السلطة العسكرية) السارى على جميع

ساكنى مصر والذي أشير اليه في التصريح الملحق بهذا فاني أود أن
أحيط عظمة تكم بأنني الى أن يتم الغاء الاعلان الصادر في ٢ نوفمبر سنة
١٩١٤ سأكون على استعداد لايقاف تطبيق الاحكام العرفية في جميع
الامور المتعلقة بحرية المصريين في التمتع بحقوقهم السياسية .

قال كلمه "الآن لمصر . وانه ليرجي انها وقد عرفت مبلغ حسن
استعداد الحكومة البريطانية ونواياها تسترشد في أمرها بالعقل
والروية لا بمامل الاهواء .

ولى مزيد الشرف الخ

القاهرة في ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢

(اللنبى فيلد ماريشال)

تصريح لمصر

بما ان حكومة جلالة الملك عملا بنواياها التي جاهرت بها ترغب في
الحال في الاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة
وبما أن للعلاقات بين حكومة جلالة الملك وبين أهمية جوهرية
للامبراطورية البريطانية
— فبموجب هذا تعلن المبادئ الآتية :

(١) انتهت الحماية البريطانية على مصر . وتكون مصر دولة
مستقلة ذات سيادة .

(٢) حالما تصدر حكومة عظمة الساطان قانون تضمينات (اقرار
الاجراءات التي اتخذت باسم السلطة العسكرية) نافذ المفعلى على جميع
ساكني مصر تلغى الاحكام العرفية التي أعلنت في ٢ نوفمبر ١٩١٤
(٣) الى أن يحين الوقت الذى يتسنى فيه ابرام اتفاقات بين
حكومة جلالة الملك وبين الحكومة المصرية فيما يتعلق بالامور
الآتى بيانها وذلك بمفاوضات ودية غير مقيدة بين الفريقين تحتفظ
حكومة جلالة الملك بصورة مطلقة بتولى هذه الامور وهي :

« ا » تأمين مواصلات الامبراطورية البريطانية في مصر

« ب » الدفاع عن مصر من كل اعتداء أو تدخلى أجنبي بالذات
أو بالواسطة

«ج» حماية المصالح الاجنبية في مصر وحماية الاقليات

«د» السودان

وحتى تبرم هذه الاتفاقات تبقى الحالة فيما يتعلق بهذه الامور
على ما هي عليه الآن.

تأليف الوزارة الجديدة

امر كريم نمرة ١٣ لسنة ١٩٢٢

صادر لحضرة صاحب الدولة عبد الخالق ثروت باشا

عزيزي عبد الخالق ثروت باشا

ان القرار الذي ابلغنا اياه صاحب المقام الجليل المنسوب السامي لدولة بريطانيا العظمي فيما يختص بانتهاء الحماية البريطانية على مصر بالاعتراف بها دولة مستقلة ذات سيادة يحقق أعز امنية لنا ولشعبنا العزيز وهو ثمرة الجهاد القومي الذي تعهدناه على الدوام بالتشجيع والتأييد ولا ريب عندنا في أن استمساك الامه بروابط الوئام والاتحاد والتزامها جانب الحكمة في هذا الدور الجديد من حياتها السياسية كفيل بتحقيق كامل امانها

ونظراً لما نعرفه لكم من الجهد المشكور في خدمة القضية المصرية ولما لنا من الثقة التامة بكم وما نعهد فيكم من الجدارة الكاملة للقيام بمهام الامور - قد اقتضت ارادتنا السلطانية توجيه سند رئاسة مجلس وزرائنا مع رتبة الرئاسة الجليلة لعهدتكم . وقد أصدرنا أمراً هذا لدولتكم للاخذ في تأليف وزارة جديدة يكون من بينها وزير للخارجية وعرض مشروعه لجنا بنا لصدور مرسومنا العالي به . ولما كان من أجل رغباتنا أن يكون للبلاد نظام دستوري يحقق التعاون بين الامه

والحكومة لذلك يكون من أول ما تعني به الوزارة اعداد مشروع ذلك النظام .

وانا نسأل الله العلي القدير أن يجعل التوفيق رائدنا فيما يعود على بلادنا ورعايانا بالخير والسعادة وهو المستعان .

صدر بسرأي عابدين في ٢ رجب سنة ١٣٤٠ - أول مارس ١٩٢٢
الامضاء - (فؤاد)

برنامج الوزارة

يا صاحب العظمة :

أتقدم الى سدة عظمتكم بفائق الشكر على ما تفضلت فأوليتني من الثقة السامية اذ عهدت الي بتأليف الوزارة الجديدة ووجهت الى رتبة الرئاسة الجايلة .

واني لأتشف بأن أعرض على عظمتكم اسماء الوزراء الذين تتألف منهم هيئة الوزارة وقد قبلو مشاركتي في العمل وهم :

اسماعيل صدقي باشا	لوزارة المالية
وابراهيم فتحي باشا	» الحربية والبحرية
وجعفر ولي باشا	» الاوقاف
ومصطفى ماهر باشا	» المعارف العمومية
ومحمد شكري باشا	» الزراعة
ومصطفى فتحي باشا	» الحقانية
وحسين واصف باشا	» الاشغال العمومية
وواصل سميكه بك	» المواصلات

وقد احتفظت بوزارتي الداخلية والخارجية
فاذا وقع هذا الاختيار موقع الاستحسان لدى عظمتكم يصدر
المرسوم العالى بالتصديق عليه
يا صاحب العظمة :

لم يكن لزملائى ولى ونحن نشاطر الأمة أمانها في الاستقلال الا
أن نقر الوفد الرسمى الذي تولى المفاوضات لعقد اتفاق مع بريطانيا
العظمى على ما فعل . فلم يكن يسعنا أن نتولى اعباء الحكم مادامت
المبادئ التي تسترشد بها الحكومة البريطانية في سياستها نحو مصر
هي تلك التي كانت تظهر من مشروع ١٠ نوفمبر من العام الماضى ومن
المذكوره التفسيرية التي تلتها . فان تولى الحكم في ظل مثل هذه المبادئ
قد يكون فيه معنى القبول بها .

غير أن الكتاب الذي رفعه فخامة المندوب السامى البريطانى الى
عظمتكم وتصريح الحكومة البريطانية في البرلمان قد أحدثا في الحالة
تغيراً كبيراً فأصبح من الممكن أن تتألف هذه الوزارة اذا أنها ترى
أن الشعور القومى أصاب ترضية من هانين الوثيقتين لا من ناحية
الاعتراف باستقلال مصر حالا وقبل أي اتفاق محسب بل ولان
المفاوضات المقبلة ستكون حرة غير مقيدة بأي تعهد سابق

أما وقد جزنا هذا الدور بخير فلم يبق على مصر الا أن تثبت
لبريطانيا العظمى أن ليس بها في سبيل حماية مصالحها من حاجة للتشدد
في طلب ضمانات قد يكون فيها مساس باستقلالنا وان خير الضمانات
في هذا الصدد وأجلها أثراً هي حسن نية مصر ومصالحها في حفظ
المهود .

على أن الوزارة ترى أنه لكي تكون جهود البلاد في سبيل تحقيق كامل أمانها بحيث تؤتي جميع ثمرها يجب أن يؤلف بين عمل الحكومة وبين عمل هيئة تنوب عن الأمة وأن تسعى الهيئتين متساندتين لأغراض متحدة ولذلك فإن الوزارة عملاً بأوامر عظمتكم ستأخذ في الحال في اعداد مشروع دستور طبقاً لمبادئ القانون العام الحديث وسيقرر هذا الدستور مبدأ المسؤولية الوزارية ويكون بذلك للهيئة النيابية حق الاشراف على العمل السياسي المقبل .

وغنى عن البيان ان انفاذ هذا الدستور يقتضي الغاء الاحكام العرفيه هذا وان اعاده منصب وزير الخارجية سيعين على العمل لتحقيق التمثيل السياسي والقنصلى لمصر في الخارج

ونظراً لأن النظام الادارى الحالى لا تتفق مع النظام السياسي الجديد ومع الانظمة الديموقراطية التي ستمنحها البلاد فان الوزارة قد اعزمت أن تتولى الأمر بنفسها وبلا شريك في الحكم الذى ستتحمل كل مسؤوليته أمام الهيئة النيابية المصرية وسيكون رائدها في ادارة شؤون الأمة توجيهها الى المصلحة القومية دون غيرها والوزارة موقنه بأن أكبر عامل لنجاح مصر في تسوية المسائل التى بقى حلها وأقوى حجة تستعين بها في تأييد وجهة نظرها هو أن تقبل على هذا الدور الجديد متحدة الكلمة مؤلفة القلوب وأن تأخذ بدواعي النظام وتلتزم جانب الحكم

والوزارة تحيى العصر الجديد الذى كان لعظمتكم أجل أثر في طلوعه على الأمة بفضل ما بذلته عظمتكم من المساعي الوطنية العالية وهي واثقة أن ستلقى من لدن عظمتكم كل تأييد في عمل الغد وانها

لترجو أن يجيء مكالا لجهود البلاد.
وانى لا أزال لعظمتكم العبد الخاضع المطيع والخادم المخلص
الامين م

(ثروت)

القاهرة في ٢ رجب سنة ١٣٤٠ (أول مارس سنة ١٩٢٢)

خطب ثروت باشا في وفود المهنيين

ملخصة في مقطع ٢١ مارس سنة ١٩٢٢

خلاصة خطب ثروت باشا

في وفود الاعيان

يوم ٢١ مارس سنة ١٩٢٢

ان مصر خطت الخطوة العظمي في سبيل الاستقلال وذلك بفضل
أهلها - كل على قدر اشتراكه في الاتحاد والتضامن في سبيل
الاستقلال . فهم أى الوفود يهنئون دولته به ويشكرونه عليه ولكن
دولته يرد ثناءهم اليهم ويشكر الأمة وأبناءها الذين جدوا وجاهدوا
لنيل هذا الاستقلال بتضامنهم واتحاد كلمتهم حتي حصلوا على هذه
النعمة العظمي من نعم الله التي يجب عليهم التحدث بها على الدوام . قال
فلقد حضر هذا الصباح معتمدوا الدول الاجنبية الى سراى عابدين
العاصمة لجلالة الملك فقدمهم دولته الى جلالته واحدا واحدا ثم خطب
أقدمهم عهداً فهناً لجلالته باستقلال مصر مجاهراً على رؤوس الاشهاد
ثانياً انه اذا قلنا أن مصر خطت الخطوة العظمي في سبيل
الاستقلال فليس المراد من ذلك ان مصر لم تحصل على استقلالها لأنها
حصلت عليه من الوجهة الوطنية المصرية وانما المراد أنه لا يزال أمام

مصر مفاوضات يلزمها أن تفاوضها من الوجهة البريطانية لأن انكلترا
تطلب من مصر ضمانات . فقد كانت انكلترا قابضة على استقلال مصر
وهي تقول لنا انه وديعة بيدي اسامكم اياه متى أعطيتهموني الضمانات
التي أطلبها منكم . وكان دولته ينتقل من هذا الكلام الى الكلام
عن الوفد المصري الرسمي ويطرى ماثر صاحب الدولة عدلى باشا فيه
وامتناعه عن أن يقيد الامة باعطاء الضمانات المطلوبة حتي عاد دولته
ورفاقه من دون أن يتم الاتفاق على الاستقلال المطاوب . وانحاز
ثروت باشا وغيره من الوزراء الباقين في هذا القطر الى دولة عدلى باشا
وقالوا قوله ورفضوا مافضه وهكذا فضل أعضاء الوزارة الحالية
معتمدين في ذلك كله على اتحاد الامة وحسن تضامنها وصدق غيرتها
وعزيمتها حتي قدر الله ان رضيت انكلترا بتسليم وديعة الاستقلال الى
مصر . وأن لا تطالب الوزارة المصرية أية كانت بالضمانات التي تريدها
بل تطالب الامة المصرية ذاتها . فنالت مصر استقلالها وفازت بحريتها
وهي لم تقيد بشيء ولا أخذ عليها عهد ما . والآن تسعي الوزارة في
انشاء برلمان مصرى يكون له القول الفصل في مسألة الضمانات
الانكليزية . قال دولته فاذا بحث نواب أمتكم في تلك الضمانات
ووجدوها مطابقة لاستقلالهم ومصالحه بلادهم قبلوها واذا لم يجدوها
كذلك رفضوها وهم أسياد في بلادهم . ثم كان دولته يتخلص من ذلك .
ثالثاً ان الفوز التام في سبيل هذا الاستقلال انما ينال اذا سلكت
الامة سبيل العقل والروية وحافظت على السكون وتتمام النظام وظهرت
للاوربيين جميعاً انها أمة تحسن السير وتستطيع التقدم في مراتب
الكمال بعد تمتعها بنعمة الاستقلال . قال دولته وهذا يتوقف أمره

عليكم ويطلب منكم . والحكومة ترجو انكم تضافرونها عليه
وتكونون لها عوناً فيه فهي مستعدة لأن تضع بيدكم ما يلزم لحفظ
السكون والنظام من وسيلة وعدة من الوسائل المشروعة وعاقدة النية
على أن لا تدخر وسعاً في تأييد النظام وشد أزر المحافظين عليه والضرب
على كل يد تعيث به وتعيث فساداً في البلاد . وهي مصممة أيضاً على
أن تفرغ جهدها في عمل كل ما تقتضيه مصلحة البلاد من الاعمال
وما يقتضيه السكون والنظام وتقدم البلاد والعباد في الراحة والرفاهة
وترجو أن الامة تتأني في حكمها على عملها ولا تتسرع بالاصغاء الى
الاقوال التي لا تطابق الواقع حتى يتضح لها الغث من الخمين والصدق
من المين فتحكم حكمها بعد ذلك . وكانت الوفود تقابل أقوال دولته
بالهتاف والدعاء . وخصوصاً عند ذكر دولة عدلى باشا وكانت تهتف
طويلاً وتصفق كثيراً .

خطبة

صاحب الدولة ثروت باشا

في مأدبة الكوكتانتال

حضرات السادة الاجلاء

انى أغتبط الاغتباط بموقفى بينكم في هذا اليوم السعيد الميمون
الذي هو أول عيد لميلاد مولانا المعظم بعد اعلان استقلال البلاد
أرى أيها السادة من واجبي قبل كل شيء أن انحنى بكل احترام
واجلال تحية لصاحب عرش مصر على ما أبداه من التفانى في شد أزر
أمته والاخذ بناصرها في هذا الدور العظيم من أدوار تاريخها
الطويل المجيد

لقد كان من بواعث سعادتي أن رأيت بنفسى عن كذب ما قام به
مليكننا النبيل من الجهاد في القضية المصرية فأثبت بهذا أن الدم لا يكذب
وكتب لنفسه في تاريخ المجد صحيفة خالدة جديرة بأن اسماعيل وحفيد
ابراهيم ومحمد علي فليحي سيد مصر المستقلة ولنهتف جميعاً من قلب
مفعم بالاخلاص والولاء ليحي جلالة الملك فؤاد الاول

ثم نحى بعد ذلك هذه الامة الكريمة التي عرفت قدر نفسها
واستمسكت بحقها وأبت أن تننازل عما يوجبها عليها تاريخها الخلق
بالعظائم وبجتمه عليها ماضيا العظيم وأظهرت من الحكم وسداد الرأي
١٨ — أبطال

ما اكسبها احترام الامم وجعلها جديرة بما تطمح اليه من المستقبل
الزاهر فانه اذا كان لأحد فضل فيما وصلنا اليه وفي ما سنصل اليه
بعون الله وتأيد مليك البلاد فان الفضل في الواقع الامة بأجمعها ولما
أبداه كل فرد منها كبيراً أو صغيراً في صدق الوطنية وروح التضحية
أيها السادة : أنتم من صفوة أبناء الامة ومن خيرة أهل الفضل
والحجى فيها ولكم اكبر مصلحة في نجاحها ويسرها فانا انتهز هذا
الظرف السعيد لكي اكشفكم بما يجول في نفسى وأخاطبكم اليوم لكي
أستمد العون والتعاضيد منكم على ما أنا ماض فيه مع زملائي فانما نحن
لكم نعمل وبكم نعتز وليس لنا من الحول الابطمقدار ما نرى منكم من
الاخذ بناصرنا وما تولونا من ثقة

لنرجع اذن أيها السادة قليلا الى الوراء لنتعرف الحالة على حقيقتها
ولنتبين منها أهمية الخطوة التي خطوناها أخيراً

بسطت بريطانيا العظمى حمايتها على مصر في ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤
على أثر دخول تركيا الحرب العامة وانضمامها الى دولتي الوسط وأعلنت
في تبليغها للمغفور له السلطان حسين كامل ان جميع الحقوق التي كانت
لتركيا قد سقطت عنها وآت الى الحكومة البريطانية ولكنها أعلنت
في الوقت نفسه انها تعتبر هذه الحقوق وديعة تحت يدها لسكان
القطر المصري

كانت نيران الحرب مشتعلة والنفوس ثائرة وقد أوشكت أركان
الحضارة أن تنهار وأصبح مصير الشعوب معلقاً في ميزان القدر فلم يكن
في وسع مصر الا أن تصبر حتى تنجلي هذه الكارثة ويتبين وجه الحق
وأقبلت على بريطانيا تنجدها نجدة الكريم للكريم ولم تدخر جهداً

في سبيل مدنها بالمعونة حتى بسم ثغر النصر فلما امضيت الهدنة بادرت
مصر تقاضي انجلترا ما وعدت به في اعلانها من أن حقوق تركيا وديعة
تحت يدها لسكان مصر وتطالبها برد الوديعة لاصحابها
ولا أرى داعياً الى الاسهاب في بيان ما وضع في هذه السنوات
من الجهاد الطويل وما حدث فيه من التطور في الافكار فكلكم اشترك
فيه وكلكم كان من المجاهدين ولكني اذكركم اني كنت في ذلك العهد
عضواً في الوزارة متشرفاً فيها برياسة ذلك الوطني الجليل حضرة صاحب
الدولة حسين رشدي باشا وزميله الصديق الوفي الامين دولة عدلى باشا
فأبت الوزارة أن تسكت على حق مصر أو تقبل في هذا الحق هوادة
أو تسوية فلما حالت الحكومة البريطانية بيننا وبين ابداء ما نريد
كانت الاستقالة المعروفة ولا ينكر أحد ما كان لهذه الاستقالة من
الآثر في تاريخ الحركة المصرية كان المذهب الذي تذهب اليه الحكومة
البريطانية في بادئ الأمر ان مصر قد دخلت في دائرة الحماية فلن
تخرج منها وقد أوفدت اللورد ماير الى مصر لكي ينظر في خير
الانظمة لهذه البلاد في دائرة الحماية فلما تبين لها انه ما من مصري
يرضى بتلك الحماية التي فرضت على مصر فرضاً لضرورات خاصة تحولات
عن موقعها الاولى وانتهى بها الامر الى الاعتراف بأن الحماية لم تعد
علاقة مرضية وطلبت الى مصر المفاوضة في ابدال هذه العلاقة بغيرها
يتبين لكم من هذا ان السياسة البريطانية تجاه مصر كانت قائمة
على أن الغاء الحماية لا يمكن أن يتم الا في مقابل علاقة جديدة تحل محلها
وعلى أن لبريطانيا العظمى في هذا انظر مصالح جوهرية لا بد لها من
تأمينها وضمانتها فان تعترف باستقلال الامم اعطيناها هذه الضمانات

وانا أيها السادة نعتقد ان خير ضمانه لمصالح انجلترا ومصالح جميع الدول الاجانب على السواء هو حرص مصر نفسها على حسن سمعتها كدولة متمدنة راقية ومصالحها في حفظ عهودها فلقد أخذنا باسباب الرقي من عهد بعيد وأدخلنا الى بلادنا الانظمة الحديثة ونشرنا فيها رايه العرفان وأوفدنا البعثات العلمية الى البلاد الغربية وبالاجمال نهضنا من عهد محمد علي نهضة عظمي حتى صبح أن يقال ان مصر قطعه من اوربا ومع هذا فان الامه المصريه لاجل اثبات حسن قصدها وشديد رغبتها في الاتفاق مع بريطانيا العظمى وتبديد مخاوفها سامت مبدئياً بفكرة الضمانات وانما بشرط اساسي لا محيص عنه وهو ان لا تتعارض هذه الضمانات مع الاستقلال وعلى أمل ان لا تلبث الحال قليلا حتى ترى انجلترا ذاتها ان لا حاجة بها الى هذه الضمانات

تشكلت الوزارة العدليه لتتولى المفاوضة في القضية المصريه بعد أن أعلنت الحكومه الانجليزيه رأيها ولا يمكنني أن أترك ذكر هذا الحادث يمر دون أن أقوم بواجب أشعر به نحو ذلك الذي كان مثلا في الوطنيه ونكران الذات واعني به دولة رشدي باشا لقد تولى دولته رياسه الوزارة قبل ذلك مرات عدة وبلغ اسمي مقام يمكن أن يطمح اليه انسان ومع ذلك فانه قبل أن يدخل عضواً في الوزارة الجديدة لان البلاد كانت في تلك الساعة في حاجة الى مواهبه وعلمه فما تردد في اجابة نداء الواجب ولم يقعه عن ذلك اعتبار من الاعتبارات

سافر الوفد الرسمي الى انجلترا وعلى رأسه ذلك الرجل الكبير القلب الكبير النفس عدلي يكن باشا للمنارضة في عقد اتفاق وقد اخذ على نفسه ان يعمل على تحقيق الاستقلال وعاهد امته بل عاهد قبل ذلك ضميره

وربه على أن لا يقبل اتفاقاً يخل بهذا الاستقلال بأي وجه من الوجوه .
طالت المفاوضات شهوراً بين الرجا واليأس الى ان تكشفت عن
المشروع الذي قدمته بريطانيا العظمى الى الوفد في ١٠ نوفمبر من العام
الماضي وهو المشروع الذي عرف بين الناس باسم مشروع كرزون
نظر عدلي باشا الى المشروع فرأى أن بريطانيا العظمى غالت فيما طلبته
من الضمانات وان هذه الضمانات لا تتفق وما عاهد به امته من استقلال
لا تحوطه ريبة فما تردد لحظة في رفض بر د اقترنت فيه الحكة بالشمم
والبراءة السياسية بعزة النفس كان في وسعه أن يعرض المشروع على
امته وان يلقي على عاتقها مسؤولية قبوله أو رفضه ولكن عدلي عرض
المشروع على ضميره أولاً فكان نصيبه الرفض

أيها المادة : سينشر يوماً من الايام ما طوي من الصحائف وما خفي
من أسرار المفاوضات حينئذ يعلم بنو مصر جميعاً أنه مامن رجل دافع
عن بلده كما دافع عدلي باشا عن مصر أثناء المفاوضات الرسمية وان
الموقف الشريف الذي وقفه ذلك الوزير الكبير والوطني الصميم كان
في ذاته أعظم تأكيد لشخصية مصر التي صممت على نيل استقلالها والتي
تأبى أن توقع على صك يضعف هذه الشخصية . انما الوطنية الصحيحة .
الوطنية الصادقة تعمل ولا تتسكلم وكل همهما موجه الى جلب النفع للوطن .
فلزم عدلي باشا الصمت . كان خصومه يرمونه بأشنع ما يرمى به انسان
من نقص في الوطنية وضعف في العقيدة القومية فكان جوابه الوحيد
على هذه الاتهام العمل على اثبات حق مصر وأما ما عدا ذلك فلم يكن له
عنده من شأن فكان وطنياً عظيماً في صمته كما كان وطنياً عظيماً في حسن
دفاعه ولقد أعلننا تضامنتنا مع الوفد في رفضه للمشروع وفي رده عليه .

نعم أيها السادة كونا ومازلنا ولن نزال نقر الوفد على ما فعل في هذا الرفض
لأننا نأبي كل الآباء أن نقر أي اتفاق أو تعاقـد ينقض استقلال
بلادنا

ولكن بريطانيا العظمى أمسكت بالمشروع في يدها ولوحت
بالاستقلال التام أمام عيوننا وقالت ها أنا ذا على استعداد للاعتراف
لكم بالاستقلال ولإلغاء الحماية المفروضة عليكم ولكن بشرط أن
أتقاضى منكم ثمنه . فلما وما هو الثمن ؟ قالت أن تعطوني ما أطلبه من
الضمانات المبينة في المشروع فان فعلتم كان لكم ما تريدون وان أبيتم
فالحماية باقية في أعناقكم

قال الوفد الرسمي كلا وقلنا نحن كلا وقالت البلاد كلها بصوت واحد
كلا لأننا نريد استقلالاً صحيحاً ولأن ما تعترف به إنجلترا في المشروع
تهدمه هاتيك الضمانات

أما اليوم فقد تغيرت الحال فأن بريطانيا العظمى قد ألغت الحماية
على مصر . ألغتها ولم تتقاض ذلك الثمن الذي جمعت تقاضيه من شرطاً
لإلغائها ونادى جلالته ملكنا المعظم بأن بلادنا دولة مستقلة تامة السيادة
وأبلغنا هذا النطق الملكي من وزارة خارجيتنا الى وكلاء الدول الأجنبية
في مصر كما أبلغهم إياه جناب المارشال اللبني فجاءنا رد هؤلاء الوكلاء
بوصول البلاغ الى دولهم وبادرت الوزارات الأجنبية بتقديم تهنئتها الى
حكومتنا على هذا العهد الجديد وأرسل الملوك ورؤساء الجمهوريات
الى جلالته الملك فؤاد الأول تهنئتهم بالاستقلال

أيها السادة لقد كونا لغاية سنة ١٩١٤ مستقلين استقلالاً داخلياً
تحت سيادة الدولة العثمانية فلما نشبت الحرب العامة وسقطت سيادة

تركيا عنا أصبحنا مستقلين حكما ولكن تمسك بريطانيا العظمى بانتقال
حقوق تركيا اليها بحكم اعلان الحماية حال بنينا وبين استقلالنا
أما اليوم فقد سقطت الحماية أيضاً دولياً بصورة نهائية فأصبحت
مصر دولة مستقلة في نظر الدول جمعاء

وهما كان رأى الناس في أمر الحماية واختلاف نظرهم اليها من
جهة صحتها أو بطلانها فما لا نزاع فيه أن بعض الدول وافقت عليها
وأنه من الوجهة الدولية أصبحت هذه الحماية صحيحة على الأقل في
نظر هذه الدول أما اليوم فقد انتهى الأمر وسواء كانت هذه الحماية
صحيحة أو باطلة فقد عنت آثارها

يقولون ولكن بريطانيا قد احتفظت بأمور معينة كانت مبينة
في المشروع الذى رفضته البلاد . وجوابي . أن هذه الامور احتفظت
بها بريطانيا من تلقاء نفسها وبمحض ارادتها ومن غير أن توقع لها صكا
بأقرارها . ولكن مشروع المعاهدة كان يجعل قبول هذه الضمانات
شرطاً أساسياً لالغاء الحماية وهناك على ما أظن فرق كبير بين أن تكون
الضمانات صادرة عن ارادة إنجلترا وبين أن تكون إنجلترا حاصلة عليها
بصفة شرعية برضى مصر

وفضلاً عن هذا فإن إنجلترا قد احتفظت بهذه الضمانات بصفة عامة
دون تمرض للتفاصيل وقد سبق أن بينا أن مبدأ الضمانات في ذاته
سلمت به غالبية الامة وإنما كان الاختلاف يقع عند التفصيل -
والتصريح الأخير اكتفى بالاجمال واجتنب التفصيل . ثم أن الحكومة
البريطانية فى تبايغها الى جلاله الملك لم يسمعها الا الاعتراف بان الامور
المحتفظ بها تكون محلاً لمفاوضة مقبلة جهة غير مقيدة فبقى حق مصر

كاملاً حتى لو رجعنا الى هذا التبليغ
وفوق هذا كله فأنا ابيننا أن ترتبط أي ارتباط بأي أمر من هذه
الامور وقلنا أن الكلمة الاخيرة في ذلك تكون للبلاد ممثلة في
برلمانها

وبالاجمال فإن مصر خرجت من هذه المعركة السياسية فائزة بالازايا
التي كانت تسعى الى تحقيقها دون أن ترتبط بأي ارتباط أو تنازيم بعهد
يقيدها في العمل فيما بقي وان استقلها أصبح معترفاً به من
الدول

نترك هذا الموضوع وننتقل الى نظام الحكم في بلادنا
لقد جعلنا أساس برنامجنا فيما يتعلق بالحكم أن تكون لبلادنا هيئة
نيابية وأن تكون الوزارة مسئولة أمامها عن كل أعمالها فما تستطيع
البقاء في منصب الحكم الا اذا أولاها البرلمان ثقته فحققنا بذلك دفعة
واحدة ما يح صوت البلاد في المطالبة به سنوات عديدة فلم تظفر بطائل
ومالم يحصل عليه كثير من البلاد الا بعد أن بذلت في سبيله جهداً
كبيراً

ويترتب على هذا النظام بطبيعة الحال أن يكون للوزارة تمام الحرية
في تولى ادارة البلاد وسياستها دون أن يشاركها في ذلك أحد لان تحمل
المسئولية يفترض في ذاته حتماً هذه الحرية اذ مما لا يمكن تصوره أن
يكون للبرلمان الكلمة العليا في شئون البلاد والاشراف عليها وتكون
الوزارة مسئولة أمامه عن هذه الشئون فلا تبقى في مساندها الا بسيرها
على ارادته وتوخيها انفاذ مقاصده ثم تكون في الوقت ذاته خاضعة
لأية سلطة أخرى فيما يتعلق بالشئون عينها

على انذائها السيادة لم تنتظر انفاذ النظام البرلماني حتي نأخذ المسؤولية على
عاتقنا بل نحن قد اخذناها على عاتقنا من أول لحظة وأصبحت ادارة
شئون البلاد في يدنا بتمام الحرية فلم يبق للمستشارين هذا الأثر الذي
كلكم كنتم تعرفونه وتحسون به وأصبحت كلمتهم لا تخرج عن حد
المشورة ولا اريد الحوادث فاخبركم بما سيكون في القريب العاجل
والخلاصة في هذا الباب أن مصر الآن من الوجهة لداخلية أصبحت
أمورها بيدنا بأنماؤها وأنما استصبح في القريب العاجل ذات نظام دستوري
على أحدث النظم العصرية

ولم يبق علينا الا أن نقنع انجلترا أن ليس بها من حاجة الى التمسك
بالضمانات التي تريد الاحتفاظ بها فتخطو بريطانيا العظمي خطوة أخرى
بالا كنفاء بما لا يتنافى منها مع استقلالنا الشرعي

أيها السادة : ليس لدينا وسيلة لتأييد ما نذهب اليه اكبر من تعلقنا
باهداب السكينة والترامنا الهدوء وأخذنا بأسباب النظام فان حججهم
الكبري في ما يبدونه من رغبة في الضمانات هي شدة حذرهم على مصالحهم
وخوفهم عليها وعدم اطمئنانهم في تركها لعهدتنا فاذا قضينا على عوامل
الفتنة والاضطراب وجعلنا التزام السكينة رائدنا فأنا نشلم هذا السلاح
بايديهم وندفع حججهم علينا ولا مشاحة في أن كل من يعمل علي
تعكير السلام أو اثاره الاضطراب مجرم في حق وطنه عامل على هدم
كيانه

علي أن خصومنا السياسين لا يرون اننا فعلنا شيئاً أو أن الوثائق
الجديدة تحوي أمراً جديداً وأز الغاء الحماية واعلان الاستقلال وتبليغه
للدول واعتراف هذه الدول به وادخال النظام النيابي الكامل وتقرير

مبدأ مسؤولية الوزارة أمام البرلمان كل هذا لا يعد شيئاً مذكوراً في
في نظر بعض الناس متى جاء على يد خصومهم
لاغرابة في ذلك فان للاعتبارات الشخصية عند البعض مقاما فوق
كل مقام . تقولوا علينا الاقاويل وأذاعوا عنا ما أذاعوا في طول البلاد
وعرضها وزعموا أن الوزارة ستعرض لحرية الانتخابات وان البرلمان
سيكون العوبة في يدها . من أين أنانم علم الغيب ومن أين جاءهم أنها
ستعمل ذلك وأية مصلحة لها في أن لا نتعرف من الامة الا رأيا فاسداً
لا يتفق ورأيها الصحيح

لقد نسوا انهم بهذا يرمون أمتهم بأقبح التهم وينسبون اليها أنها
تنقاد كالانعام وتستسلم استلاماً أعمى للحكام حتي فيما يعود على الوطن
بالتلف والمذلة

لقد نسوا أو تناسوا أيها السادة أننا أشخاص زائلون واننا لن
نبقى متربعين في دست الاحكام الابدية من الزمن ثم نخلي السبيل لغيرنا
أما النظام الدستوري فهو نظام ثابت دائم وهو أتم ما وصل اليه الناس
الي اليوم لتمثيل الامة أحسن تمثيل وللإشراف على الحكم باسمها . سنذهب
نحن أما النظام فسيبقى وعجيب ان رجالاً يتولون الحكم زمناً قصيراً
يعملون على تحقيق مثل هذا النظام الصالح لكي يجعلوه أداة في أيديهم
وسلاحاً يشهرونه في وجه خصومهم

أيها السادة لن تكون الانتخابات سرّاً مكتوماً فستشتركون جميعكم
فيها بل يشترك فيها كل مصري له حق الانتخاب وستذيع أخبارها
وتناقشها الافواه وسترون بأنفسكم أن الحكومة بريئة مما يتهمون بها به
وان هذه التهم وليدة الظن الاثيم

انني أعتقد أن تحقيق النظام البرلماني صحيفة فخار - ولو أن
الفخر كله في الأمة واليها - فلن يبلغ بنا سوء الرأي الى تسويد هذه
الصحيفة بمثل ما يذنبون اليها من التداخل المعيب فلا تصغوا أيها
السادة الى ما يقولون ويعيدون واحكمرا بما سترون لا بما تسمعون
واني أجاهر لكم وهل وأنتم في حاجة الى مثل هذه المجاهرة بأن
الانتخابات ستكون حرة بعيدة عن عوامل التأثير وافساد للضمائر

كذلك أخذ خصومنا علينا عدم الغاء الاحكام العرفية حالا
نعم ان الغاء الاحكام العرفية لم يصبح أمراً مرهوناً بارادة السلطة
العسكرية وهو اليوم بيد الحكومة المصرية من حيث المبدأ ولكن
الشروط التي لا يشك أحد في وجوبها لالغاء تلك الاحكام لا تتحقق
بين غمضة عين وانتباهتها ، يعلمون ذلك ولكنهم يغالطون ويشوهون
الواقع في أمر قانون التضمينات للتذرع بذلك في اتهم الوزارة في
اخلاصها وصدق نواياها

تعلمون حضراتكم انه في سنوات الحرب وبعدها صدرت تشريعات
مهمة استمدت فيها سلطة القائد العام لجعلها سارية على الاجانب حينما
كان الالتجاء الى الطرق العادية في اصدار القوانين غير ميسوراً ومقروناً
بالصعوبات أو محتمل البطء في أمور تقضى بالاستعجال كضريبة الخمر
وقانون أجور المباني وايقاف سريان المدد والمواعيد القانونية وكالمنظمات
المتعلقة بأشخاص الاعداء وأمواهم وتنفيذ معاهدات الصلح

كذلك منعت المحاكم الاهلية والمختلطة لاسباب مختلفة من نظر
مسائل داخلية في اختصاصها أو يجوز اعتبارها كذلك لتتولاها محاكم
عسكرية أو لجان أو غير ذلك من الهيئات وصدرت في هذه المسائل

أحكام وقرارات وبنى على أساسها حقوق وتعهدات ثم صدرت أيضاً
أوامر إدارية وتدابير تتعلق بالأمن أو النظام العام
وتعلمون حضراتكم أن كل ذلك حصل وأن السلطة العسكرية
اشتركت في أعمال التشريع والقضاء والإدارة العادية للبلاد بسبب
الامتيازات الأجنبية وبسبب الحرب هذا فضلاً عن المركز الخاص الذي
تهيأ لها بسبب معاهدات الصلح فأصبحت أشبه بنظام عادي بالرغم من
أن الأحكام العرفية بطبيعتها أداة استثنائية

تلمون ذلك حضراتكم ولا تجهلون أن كل ما بني على هذا النظام
يجب أن ينهار إذا زال أساسه وأنه إذا ألغيت الأحكام العرفية سقطت
كل التشريعات التي اتخذت بمقتضاها وأصبح من الممكن أن تنقض كل
الحقوق المدنية التي بنيت على أحكام السلطة وأوامرها بل أن يفتح
على السلطة أبواب مسؤولية واسعة

ليس منا من لا يرغب في إلغاء الأحكام العرفية وبلا تأخير ولكن
كل انسان يشعر بأننا لا يمكننا إلغاؤها دون اقرار التصرفات الماضية
ولا عبرة بما يراه غير المسؤولين الذين يرون أنه يكفي أن نطلب فنجاب
عرف الناس ذلك وسمعوا أنه يجب اصدار قانون لافترار التصرفات
الماضية فقال بعضهم انما أريد به تقرير الحماية وتنظيم أحكامها وهم
يعلمون أن ذلك القانون لا يخرج أمره عن أن يكون تصفية للماضي
ولا علاقة له مطلقاً بالنظام المستقبل فلفتحة التضمينات هي التي أفسحت
المجال للمضللين أن يذهبوا الى التأويل ما شاءوا وحقيقة الامر ان
ذلك القانون يسمى بالانجليزيه Bill of Indemnity ومعناه الصحيح
القانون الذي يقيل من المسؤولية ويرفمها

على ان بعض من يشكون من وجود الاحكام العرفية ويطالبون بالغائها يعملون في الوقت نفسه على عرقلة مساعي الحكومة في ذلك وقد وعدت هذه الوزارة بأنها اعتماداً على حسن موقف الامة ستسعي في الحصول على الرجوع فيما اتخذ من التدابير المقيدة للحرية طبقاً للاحكام العرفية ولكن الذين لا يرعون حرمة يحرضون على الفتنة ويشجعون الرطاع على الاخلال بالنظام وأعمال التهميش والارهاب (أترون في ذلك شيئاً من الخير للبلاد) ولكن هذه الحكومة لن تري مانعاً من القيام بواجبها وستمضي أعمالها بما تمليه عليها ذمتها وضميرها ولا تلتقي بالا لهذه الحركات التي لم يقصد بها وجه الله ومصلحة الوطن حتي اذا فرغت من عملها وتقدمت به الى الامة أدرك كل باغ أن صفحتها بيضاء وان اخلاصها عظيم

هذا ما أردت أن أقوله لكم في هذا المقام ولكنني قبل الختام وبمناسبة ما ذكره حضرة صديقنا شيخ المحامين وكبيرهم ابراهيم بك الهلباوى (وكأنني به قد خشي أن تنثنى عزائمنا لما نلقاه من المعارضة) لا أرى بداً من أن أطمئنه وأن أوجه أنظاركم أيها السادة الى انني لا أكره المعارضة بل اذا انعدمت هذه المعارضة فأنني أعمل على خلقها لما لها من نفع وفائدة في الوصول الى الحقيقة وتمحيص كل أمر على أكمل وجه ولكنني أريد المعارضة الشريفة التي تترفع عن الاعتبار الشخصية ولا تنزل الى اختلاق الاكاذيب والعمل على النيل من الخصم بكل وسيلة والنظر الى كل عمل من أعماله بمنظار البغضاء والعداوة اني أريد الخصومة الشريفة التي لا تنظر الا لمصلحة الوطن وخير البلد وتدرس كل أمر لذاته مجرداً عن كل اعتبار شخصي هذه الخصومة الشريفة

أتمني وجودها وأمد يدي لمصاقتها أما تلك الخصومة الحمقاء التي تأخذ
على الناس سبيل آرائهم وتزري بأقذارهم وترجمهم في الطرقات وتعمل
على اضطهادهم مادياً وأدبياً عقاباً لهم على رأى أو قول تلك الخصومة
الحمقاء المجرمة التي تزعم أنها تعمل هذا باسم الحرية ودفاطاً عن الحرية
فتحقق بذلك القول المشهور (أيتها الحرية كم من الجرائم ترتكب باسمك)
تلك المعارضة المجرمة يجب علينا جميعاً مكافئتها الى النهاية لأنها نكبة
على بلد ناهض وسأجد من عونكم ما يعينني على الوقوف في وجهها
أيها السادة متى فتح البرلمان المصري أبوابه فسنقوم منا أحزاب
وشيع تبعاً لاختلاف الآراء وتعدد وجهات النظر وسيعمل كل حزب
على خدمة الوطن بالسبيل التي يراها أقوم السبيل أما اليوم فأننا جميعاً
سواء أمام المطلب الاسمي للامة واذا كنا في وقت من أوقات تاريخنا
في حاجة الى الاتحاد فانما هو هذا الوقت الذي نرجو فيه أن نسعي في
ازالة ما يحول بيننا وبين التمتع الكامل باستقلالنا
فأنا أنادي الامة باسم الوطن ومصالحته بضم صفوفنا وتناسي
الماضي وليكن كلنا حزباً واحداً في خدمة بلادنا
والله المسئول أن يقرب اليوم الذي تتحقق فيه جميع آمالنا في ظل
حضرة صاحب الجلالة ملك مصر أطل الله ملكه وأدام دهره

حديث ثروت باشا

عن السودان

مع مكاتب الاهرام

في ٢٢ مايو سنة ١٩٢٢

تفضل صاحب الدولة رئيس الوزارة بالجواب على الاسئلة التي
القيناها بخصوص السودان وهذا نص الحديث :

(س) لفظ الناس كثيراً في مسألة السودان في العهد الأخير
وتساءلوا لم لم تبد الحكومة بياناً عن خطتها ورأيها في مركز السودان
بالنسبة لمصر ؟

(ج) تذكرون ان مسألة السودان من المسائل المحتفظ بها
للمفاوضات المقبلة كما ورد ذلك في كتاب المندوب السامي البريطاني الى
جلالة الملك في ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ولكن ليس معنى الاحتفاظ
بمسألة لزمان مقبل ألا يكون للحكومة المصرية رأى فيها ومذهب
تدافع عنه وتسعي لتحقيقه وغير صحيح ان الحكومة لم تبد رأيها
في مركز السودان بالنسبة لمصر فان برنامج الوزارة كان بهذه العبارة
« لم يكن لزملائي ولى » ونحن نشاطر الامة أمانيتها في الاستقلال الا
أن نقر الوفد الرسمي على ما فعل « ولم يغب عن ذهن أحد أن الوفد
أشار في الرد الذي أرسله الى اللورد كرزون الى مذهبهم في علاقة مصر

بالسودان وقال في ذلك « أما مسألة السودان التي لم يكن قد تناولها
البحث فلا بد لنا فيها من توجيه النظر الى أن النصوص الخاصة بها
لا يمكن التسليم بها من جانبنا . فان هذه النصوص لا تكفل لمصر التمتع
بما لها على تلك البلاد من حق السيادة الذي لانزاع فيه وحق السيطرة
على مياه النيل

وليس معنى اقرار الوفد الرسمي على ما فعل الا أن الوزارة أخذت
بمذهبه في المسائل المختلفة التي تمرض لها في الرد ومنها مسألة السودان
فرأى الحكومة في السودان رأى غير مكتوم . واذا لم يكن الذين
يفتقدون على الحكومة عدم ابداء رأيها في السودان قد تذهبوا الى هذا
الرأي فليس ذلك من ذنب الحكومة .

(س) ولكن ماهو رأى الحكومة ازاء ما يروونه من احتمال
تغيير حالة السودان قبل الوصول الى المفاوضات . وهل هي تنوى
السكوت على هذه الحالة الجديدة ؟

(ج) احتفظت الحكومة الانجليزية بمسألة السودان كما احتفظت
بغيرها من المسائل وأشارت الى أن معنى ذلك الاحتفاظ هو أن هذه
المسائل تبقى على ما كانت عليه حتى يجيء دور المفاوضات فلا محل
لتوقع أى تغيير في حالة السودان قبل ذلك الدور

وما دامت المفاوضات ستجرى حرة خالية من كل قيد فكل ركن
من أركان المسألة سيتناولها البحث والتمحيص .

ولقد جرى لى مع فخامة المندوب السامي البريطاني حديث في
هذا الشأن وكنا على اتفاق انه مهما كانت نظرية كل فريق فانه لن
يحدث من أحد الجانبين أي تغيير في حالة السودان أو بت في شأنه .

بل يجب بقاء القديم على قدمه حتى يجيء دور المفاوضات بين الحكومتين
المصرية والانكليزية . وقد صرحت الحكومة الانكليزية بذلك أخيراً
في مجلس النواب البريطاني بلسان أحد وزرائها . وعلى ذلك فلا محل
لأثارة البحث في هذا الموضوع الآن

وعندي ان مسألة السودان مسألة متشعبة الوجوه ومن مصلحة
القضية المصرية أن يكون البحث فيها شاملاً لجميع أطرافها في وقت
واحد . وهذا لا يتيسر الا وقت المفاوضات حيث تلتقي الوجهتان
المصرية والانكليزية بصفة تامة واضحة . وأرجو أن لا يتعذر اذ ذاك
الوصول الى حل مرض . ثم أن لهذه المسألة كما لغيرها من المسائل المحتفظ
بها من الاهمية الكبرى والدقة ما يقضى باشراف الهيئة النيابية على
المفاوضة بشأنها .

خطبة ثروت باشا في لجنة الدستور

حضرة صاحب الدولة

وحضرات الاعضاء المحترمين

انى باسم حكومة جلالة الملك المعظم فؤاد الاول أحييكم في هذا الاجتماع الذي هو أول اجتماع للجنةكم الموقرة كما أحيي فيكم الغيرة الوطنية والرغبة الصادقة في خدمة بلادكم العزيزة اذ قبلتم ان تشاركوا الحكومة في مهمة وضع مشروع الدستور للمملكة المصرية بعد اعلان استقلالها

ان الحكومة ايها السادة تقدر كل التقدير خطورة المهمة التي وكلت اليها من جانب ملك البلاد وتعلم حق العلم عظيم مسؤوليتها عن حسن القيام بها امام ضميرها وامام الامة والتاريخ كذلك تعلم ان مهمة وضع دستور للبلاد لا يكفى في ادائها على الوجه الصالح أن ينقل ما وضع لغيرها من البلاد بغير تمحيص وتدقيق بل يجب أن تلاحظ في تقرير احكام هذا الدستور تقاليد البلاد المحلية وعاداتها ومختلف الاعتبارات الاجتماعية فيها وان يستفاد في وضع نصوصه من تجارب الامم الاخرى كذلك أيها السادة لم تتردد الحكومة منذ طلبت اليها القيام بهذه المهمة في أن لا تستأثر في ادائها برأيها وأن لا تكتفى في ذلك بما لرجالها من الخبرة الخاصة بحالة البلد وبالنظمة العامة . بل صحت

عزيمتها على الاستعانة في ذلك بخبرة ذوى الكفاءات من ابناء البلاد
وقد كان من حسن حظها أن لبيتم دعوتها ورضيتم أن تشاركوها
في مسؤوليتها وأن تضحوا من وقتكم وراحتكم شيئاً كثيراً في سبيل
تحقيق التعاون بين الامة والحكومة ووضع الحجر الاساسى لحياة
مصر المستقلة لذلك لا يسعني الا أن أهنيئكم بهذا الشعور وأن أسديكم
خالص الشكر على العون الجليل الذى لاشك في أن الحكومة ستناله
من اشتراككم معها وان شكرى لكم ليزداد اذا ذكرت الضجة التى
أقيمت حول مسألة وضع الدستور وانها لم تصرفكم عن سماع نداء
الضمير والواجب

ان الحكومة لم تقتصر في الدعوة الى معاونتها على فريق دون آخر
بل وجهتها أيضاً الى من قضت عليهم الظروف بأن يعتبروا أنفسهم
خصوصاً سياسيين لها غير أنهم للأسف لم يريدوا أن يصاخوا اليديا التي
مدت اليهم وأبوا أن يتقدموا الى المشاركة في هذا العمل الوطنى الخطير
ولعمري أن في تصرفهم مائة ضي بالعجب فأن مصير الدستور أن يطبق
على الامة جميعها لا على طائفة دون غيرها وكنت استبعد أن تدخل
الشخصيات فى شأن يجب بطبيعته أن يعالو على كل تلك المنافسات . .
ولقد أعجب أكثر من ذلك أن أراهم يخطئون النظر حتى من وجهة
مصلحتهم الخصوصية . فلقد كان اشتراكهم فى عمل اللجنة يسمح لهم
بالاطلاع على كل مايجرى فيها ويمكنهم من الوقوف على حقيقة ما جرت
به السنة السوء وليتبينوا أن ليس هناك أمور مقررة من قبل تعرض
على اللجنة المجرد الشكل ولقد فاتتهم برفضهم الدخول فى اللجنة فرصة
ما كان احقهم بالحرص عليها فرصة عرض آرائهم والادلاء بحججهم واللجنة

بين أن تأخذ بها فيتمضح لهم أنها لم تكن متجيزة أو صادرة عن غرض أو هوى أو أن ترفضها فيكونوا قد أراحوا ضمائرهم والحساب بعد ذلك بيد الامة لأدري مقدار ارتباط هذا الرفض بالحركة التي روجت منذ أيام للدعوة الى عقد جمعية وطنية وما اذا كانت سبباً أو نتيجة على أن ذلك لا يعنيني الآن وإنما يغنيني تحييص هذه الآراء خصوصاً وإن تلك الدعوة كان ينطوى فيها شيء ليس بالقليل من سوء الظن بالحكومة وتهمتها في اخلاصها اني أترك جانباً ذلك الفريق الذي يدأب على تحدى الحكومة ومناوئها واقامة العراقيين في وجهها مهما جر ذلك على البلاد من الشر والوبال

أما الفريق الثاني فإنه يحكم على الاشياء حكماً نظرياً صرفاً ويخطيء تطبيق النظريات على الواقع اولئك هم الذين يزعمون أنه لم يوضع دستور الا على يد جمعية وطنية وانه لا يصح دستور الا اذا كان كذلك علمنا أن القوانين الدستورية وتوارىخها ومبادئها معروفة ومنتشرة بين جميع الناس وفي وسع كل انسان أن يرجع اليها ليعرف مقدار نصيب تلك النظريات من الصحة ويمكنني أن أقول لحضراتكم أن الأمر في وضع القوانين الدستورية ليس على ما يذكرون فأن كثيراً من البلاد الأوروبية وغير الأوروبية لم تكن قوانينها الدستورية وليدة جمعية وطنية وأذكر على سبيل الاستدلال تلك الامة العظيمة التي قطعت شوطاً كبيراً في سبيل الحضارة والمدنية وأعني بها الامة اليابانية وهي تلك البلاد التي أصبحت في مركز لا أريد أن أغالي فأقول أن أمم أوروبا تحسدها عليه ولكن مركزها على كل حال مما تغبط عليه أما أمم أوروبا فأن بعضها كان الدستور فيها من عمل جمعية وطنية ولكنها الأقل عدداً

والسبب في تولى الجمعية الوطنية هذا العمل يرجع الى ظروف استثنائية خاصة كالثورة أو زوال السلطة الشرعية فيها وحلول سلطة مؤقتة عليها أما الأمم الاخرى فقد سادت في وضع دساتيرها على الطريق العادى وصدرت دساتيرها من ملوكها وأذكر على سبيل المثال ايطاليا والنمسا والبرتغال وتركيا

فيجب أن لا يغيب عن أذهان أولئك القائلين بنظرية الجمعية الوطنية تلك الفروق بيننا وبين من اضطرتهم أحوالهم الاستثنائية الى الالتجاء لجمعية وطنية لوضع نظام حكمهم اذ اننا ولله الحمد لسنا في حالة من تلك الاحوال

على انه فيما يتعلق بمصر يجب لأجل تعيين السلطة التي تتولى وضع الدستور الرجوع الى قانوننا العام وقد جرى الأمر فيه على أن تصدر القوانين النظامية من ولى الأمر سواء كان ذلك في انشاء مجلس الوزراء وهو أول حجر وضع في بنيان النظام الديموقراطى في مصر أو ما في تلا ذلك من النظم النيابية التي أوجدت نوعاً من الاشتراك بين الأمة والحكومة وهي قانون مجلس شورى النواب وقانون مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية والقانون الذي انشأ الجمعية التشريعية واذا كان قانون سنة ١٨٨٢ قد شذ عن هذا النقياس فان ذلك يرجع الى أنه في ذلك العهد كانت ثورة على العرش دعت الى اعتصاب وضع الدستور من صاحب السلطة فى وضعه وهذا ما يؤيد ما نذهب اليه من أن وضع الدستور بطريق ولى الأمر ليس فيه افتيات على حقوق الأمة أو خروج عن القواعد المألوفة

قد يقول قائل اذا لم يكن الدستور من وضع جمعية وطنية فان فى وسع

ولى الامر أن يسترده في أي يوم من الايام وهو قول لا يقول به الا كل رجل يجهل مبادئ القانون الحديث وتطوراته لأنه مهما يكن من طريقة وضع الدستور واصداره فان استرداده بعد ذلك محال اذا أنه بمجرد صدوره يصبح حقاً مكتسباً للأمة

انهم يقولون ان الجمعية الوطنية هي الوسيلة الوحيدة للوقوف على رغبات الامة وحاجاتها . وأخشى أن أقول في هذا انه حق يراد به باطل ذلك لانه حتى مع التسليم جـدلاً بأن المبادئ العامة في مصر تسمح بأن مثل هذا العمل تتولاه جمعية وطنية فان هناك أشخاص يعملون منذ زمن على ترويح سوء الظن بالحكومة وعلى التقليل من أهمية ماوصلت اليه البلاد وعلى الشكيك في مانحن قادمون عليه بحيث اذا اجتمعت جمعية وطنية سادت فيها تلك الآراء والنزعات وانقلب العمل فيها الى معارضة وتهوئش وتعطيل تمتنع معه كل نتيجة صالحة بل يخشى أن ينقلب وبالا على البلاد ذلك انه بالرغم من أن البلاد نالت فوزاً عظيماً باعلان استقلالها واعتراف الدول به الا أن المسألة المصرية لم تسو بعد تسوية نامية نهائية اذ لايزال أمامنا مفاوضات يجب أن تمكن مصر من الوصول الى دورها موفورة القوة تامة النظام لم تفسد عاينها عوامل الشر والفوضى آمال النجاح فيها

يدعون اننا بعماننا هذا نرمي الامة بالعجز والقصور عن تقدير مصلحتها فالث الله يعلم اننا نجل أمتنا كل الاجلال ونضعها فوق كل اعتبار وان هذا نفسه هو الذي يدعوننا أن نقيها في هذه الآونة الدقيقة من عوامل الفساد ودواعي التضليل . ولعمري لأن نتهم تهمة سيتجلى وجه الحق فيها بعد قليل خير لنا من أن نترك البلاد تسود فيها الفوضى

ويجري الشعب فيها مجراه فأن التهمة اذا اصطدمت بالواقع المحسوس
زائلة ولكن اضرار الشعب والفوضى هائلة وآثارها باقية
وأريد هنا أن أتساءل عن قيمة المخاوف والشكوك التي يريد
بعضهم أن ينشرها بين الناس ويحيط بها عمل الحكومة واللجنة
يزعمون اننا نخشى الجمعية الوطنية لأنها لو دعت للاجتماع لاتخذت
من القرارات ما لا يتفق مع ميول الحكومة نريد بالاعتصار على تأليف
لجنة أن نتحكم في النظام الدستوري وأن تحول بين الامة وبين ابداء
رغباتها وأقول ان بيننا وبين الامة عهداً يحدد جوهر ما يختلف فيه
الآن لنا برنامج قطعنا فيه على أنفسنا اننا سنراعى في الدستور الذي
نضعه أحدث مبادئ القانون العام وعلى الاخص المسؤولية الوزارية
أمام البرلمان أترى يشكون في مبادئ القانون العام الحديث نفسها أم
يجهلون أن مبدأ المسؤولية الوزارية هو محور النظام الدستوري
وجوهره ولبابه والأمان السكافي ضد خروج السلطات عن حدودها
والاساس الصالح للتعاون بين الامة والحكومة أو يجهلون أن ما خلا
هذا المبدأ لا يبلغ أهميته ان هذا المبدأ ضابط لاحكام الدستور نفسه
قالوا أن وضع الدستور بهذه الطريقة لن يجعل للامة سبيلا الى
تغيير شيء من أحكامه على اني لا أدري مبلغ هذا التكهن من الصحة
فأن ما أعلمه عن القواعد الدستورية وهي التي أشرت اليها في برنامج
الوزارة أن الدستور يشتمل عادة على نص يحتفظ به بسبيل يكون من
حق للامة مشيخة في ادخال ما يري ضرورة ادخاله من التعديلات ...
سيرى الناس اذا انتظروا قليلا أن محاولة عرقلة الحكومة في أعمالها
لم يكن من مصلحة البلاد في شيء وان الحكومة ماتوخت ولن تتوخي

شيئا غير مصلحة الوطن القائمة التي تنلشى أمامها الاعراض الزائلة
والاوهام الباطلة

سيرى الناس يوم يصبح الدستور حقيقة واقعة بأن التهمة التي
وجهت للحكومة غير صادقة أن يرون أنفسهم امام نظام يسمح للارادة
العامة بأن يكون لها مظهر حقيقى وأثر فعلى فى تصريف لاعمال العامة
وفى كل شىء يتعلق بمستقبل البلاد

قالوا اننا خرجنا عن برنامج وزارة عدلى باشا الذي كنا متضامين
معه فيه . ولكنهم نسوا أو تناسوا أن مهمة الجمعية الوطنية بحسب
ذلك البرنامج لم تكن فى الاصل وضع دستور للبلاد وانما كانت مهمتها
النظر فى الاتفاق الذي تألفت وزارة عدلى باشا للمفاوضات فيه ثم وضع
الدستور المبني على نصوص هذا الاتفاق بعد ذلك

فالمهمتان لا تتبلان التجزئة وكان يجب على الجمعية اذا هي أقرت
الاتفاق أن تراعى فى وضع الدستور ما يكون قد تضمنه من الشروط
والقيود أما اليوم فان وضع الدستور متقدم على الاتفاق واذا كان
لا يبنى عليه فانه يجب على أي حال أن لا يسد الطريق للوصول اليه
هذه هي الحقائق التي أردت أن أبسطها امام حضراتكم وان
ماتعرفه الحكومة فى حضراتكم من الكفاءة والكفاية لهذا العمل
أحسن ضمان لان يكون عملكم خير مرشد وهاد الى رغبات البلاد
وحاجاتها

ولا أريد أن أختم كلامى بغير اشارة الى التضحية الكبيرة التي
قدمها حضرة صاحب الدولة رشدى باشا بقبول الاشتراك فى عمل
هذه اللجنة ولا أخفى على حضراتكم أن فكرة اسناد الرئاسة لدولته

قد خطرت مراراً على بالي من أول يوم فكرت فيه الحكومة في
تأليف اللجنة

ولكن علمنا بمقدار ما يبذله من نفسه وصحته في اداء الواجب
الذي يدعوه اليه الوطن ومصالحته وحبنا لشخصه ورغبتنا في تمتعه
بالصحة التامة كل ذلك جعلنا نتردد عن مخاطبته في الامر

غير اني لما خاطبت بعد ذلك أحدا من حضراتكم الا وسأني عما
اذا كان رشدي باشا مشتركا في عمل اللجنة وأظهر رغبته في أن يراه
على رأسها فلم أجده بداً أمام هذا الاجماع من ايصال هذه الرغبة
الى علمه

فتقدم كعادته الى الخدمة الوطنية غير ملتفت الى ما يكلفه ذلك من
تحميل صحته هذه المتاعب الجديدة ولكنه اشترط شرطاً لم يكن في
وسعى قبوله وتركت لدولته الحرية في أن يقدمه بنفسه لحضراتكم
لتتصرفوا فيه كما تريدون وأختم القول بتكرار التحية لحضراتكم
وتوجيه الرجاء الى المولى عز وجل أن يلهمكم السداد وأن يوفقنا جميعاً
الى ما فيه الخير للبلاد

شروط ثروت باشا لتأليف الوزارة

(نقلا عن مقطم ٣١ يناير سنة ١٩٢٢)

- أولاً - عدم قبول مشروع كرزون والمذكرة التفسيرية
- ثانياً - تصريح الحكومة البريطانية بالغاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر قبل الدخول في كل مفاوضة
- ثالثاً - إيجاد وزارة خارجية مصرية وتمثيل خارجي من تعيين سفراء وقناصل
- رابعاً - إيجاد برلمان مشكل من هيئتين أحدهما مجلس نواب والاخرى مجلس شيوخ ويكون للبرلمان المذكور السلطة التامة على أعمال الحكومة وتكون الوزارة مسؤولة أمامه
- خامساً - اطلاق يد الوزارة بلا مشاركة في جميع أعمال الحكومة تمكيناً للوزارة من تحمل مسؤولية الحكم أمام البرلمان
- سادساً - ألا يكون للمستشارين في الوزارات الا رأى استشاري وأن يبطل ما للمستشارين الآن من الحق في حضور جلسات مجلس الوزراء
- سابعاً - حذف وظائف المستشارين في القريب العاجل ماعدا وظيفة مستشاري الحقانية والمالية فانهما تبقيان الى ما بعد ظهور نتيجة المفاوضات الجديدة

ثامناً - استبدال الموظفين الاجانب بموظفين مصريين وأخذ
العدة لذلك من الآن وتعيين وكلاء مصريين على الفور لجميع الوزارات
وهم وكيل للمالية ووكيل للخارجية ووكيل للمواصلات ووكيل للاشغال
العمومية ووكيل للداخلية ووكيل آخر للداخلية في الصحة
تاسعاً - رفع الاحكام العسكرية ووعده الوزارة اعتماداً على حسن
موقف الامة بالسعي في سحب ما اتخذ من الاجراءات بمقتضى الاحكام
العرفية ومن جملة ذلك فك اعتقال المعتقلين المصريين حيثما كانوا
عاشراً - الدخول في مفاوضات جديدة - بعد تشكيل البرلمان
المصرى - مع الحكومة البريطانية بواسطة هيئة مصرية يشرف البرلمان
المصرى نفسه على تعيينها للنظر في مسألة السودان وفيما لا ينافي استقلال
البلاد من الضمانات التى تطلبها الحكومة البريطانية تأميناً لمصالح
الامبراطورية البريطانية ومصالح الاجانب فى مصر وذلك كله على شرط
أن تكون هذه المفاوضات غير مقيدة بشرط أو قيد من القيود
والشروط المبينة فى مشروع كرزون
وبعد الانتهاء من هذه المفاوضات يكون القول الفصل فى نتائجها
للامة المصرية المشخصة فى برلمانها .

الفهرست

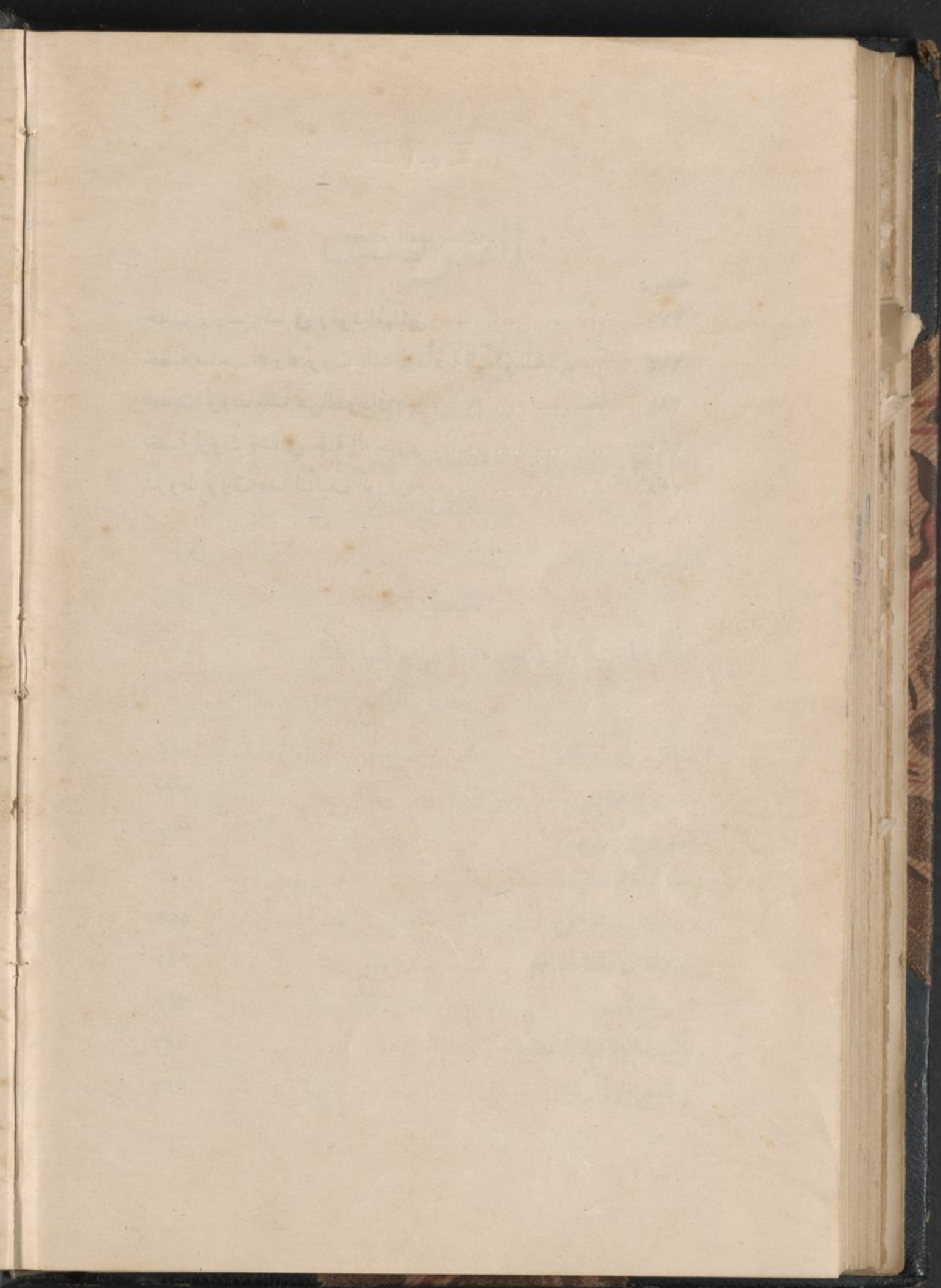
صفحة

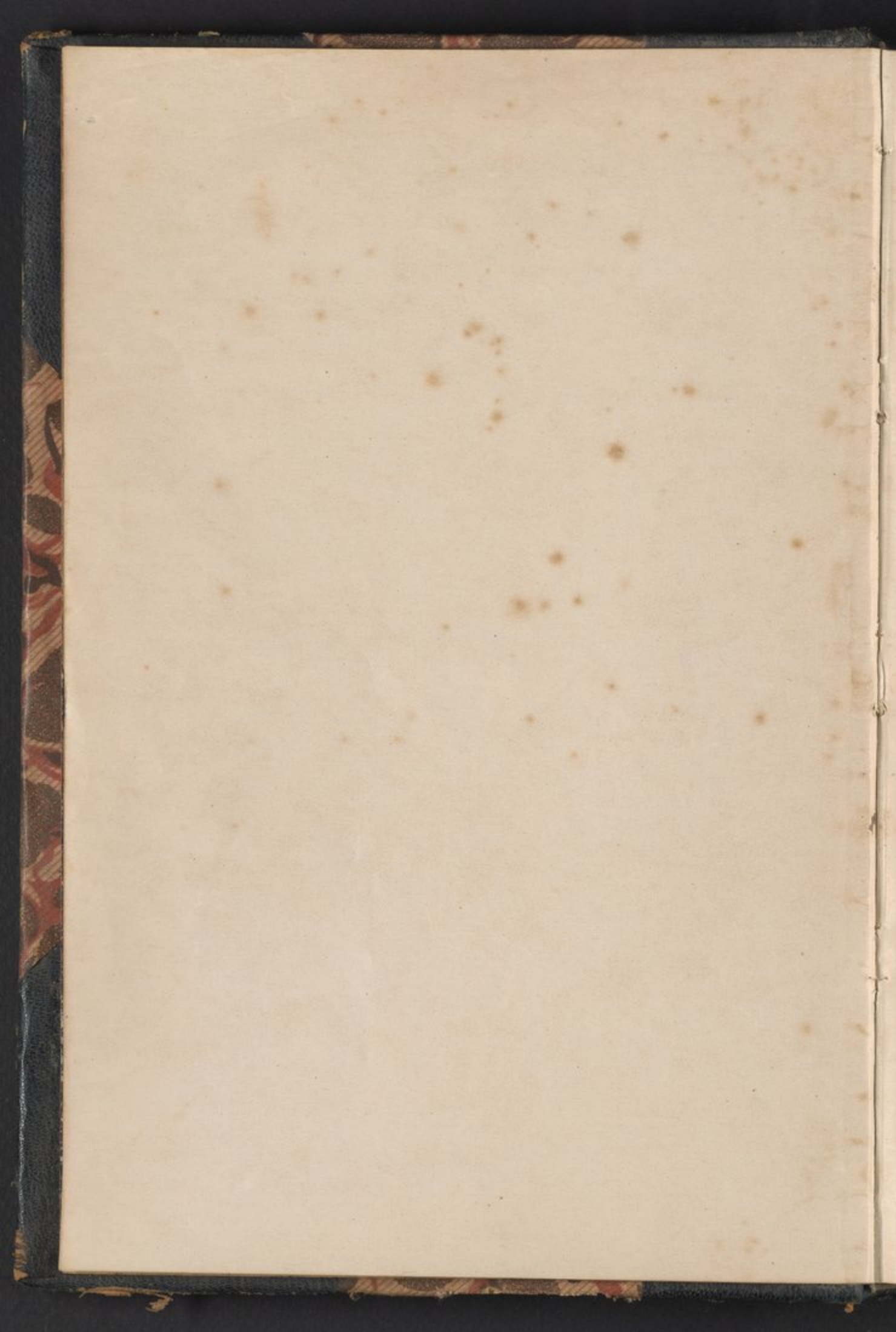
٣	المقدمة
الفصل الاول	
٧	مشروع كرزون والمذكرة الايضاحية
الفصل الثاني	
٤٨	التصريح لمصر
الفصل الثالث	
١٣٠	الحالة الحاضرة - واجب الامة في موقفها الحالي
الفصل الرابع	
١٨٠	مناقب ثروت باشا
٢٣٣	مشروع ملنر
٢٣٩	مشروع كرزون
٢٤٦	المذكرة التفسيرية
٢٥٥	رد الوفد الرسمي
٢٥٩	الوثيقتان الجديدتان
٢٦٣	تصريح لمصر
٢٦٥	تأليف الوزارة الجديدة
٢٦٦	برنامج الوزارة

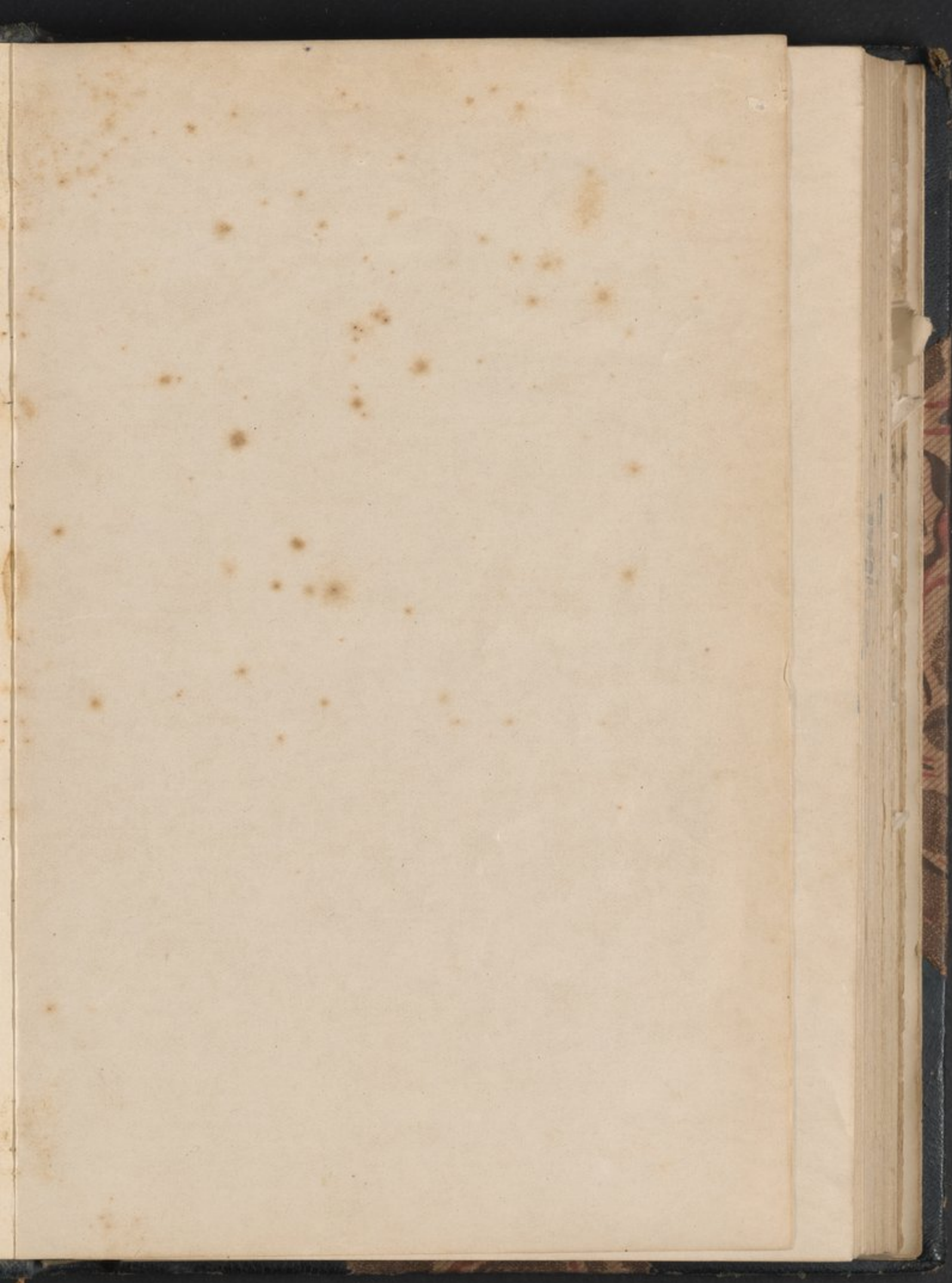
تابع الفهرست

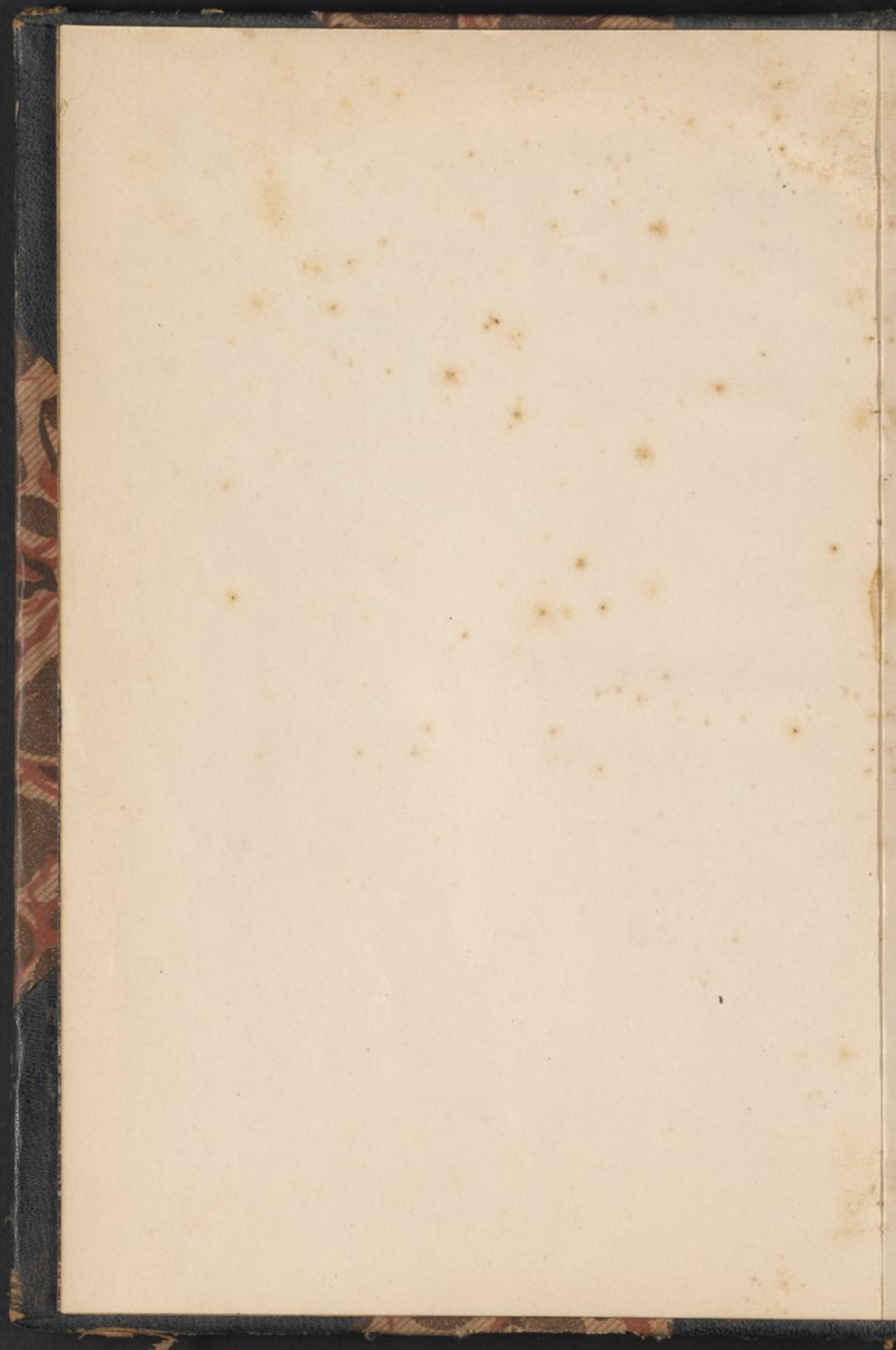
صفحة

٢٧٠		خطب ثروت باشا في وفود المهنتين
٢٧٣		خطبة صاحب الدولة ثروت باشا في مأدبة الكونتنتال
٢٨٧		حديث ثروت باشا عن السودان
٢٩٠		خطبة ثروت باشا في لجنة الدستور
٢٩٨		شروط ثروت باشا لتأليف الوزارة









B11775762

I13095080

EGAG-97-B



13 NOV 1997

